

297.09: ~~XXXX~~

العبد محمد عبد المجيد

الاسلام والهدى VI لا

297.09

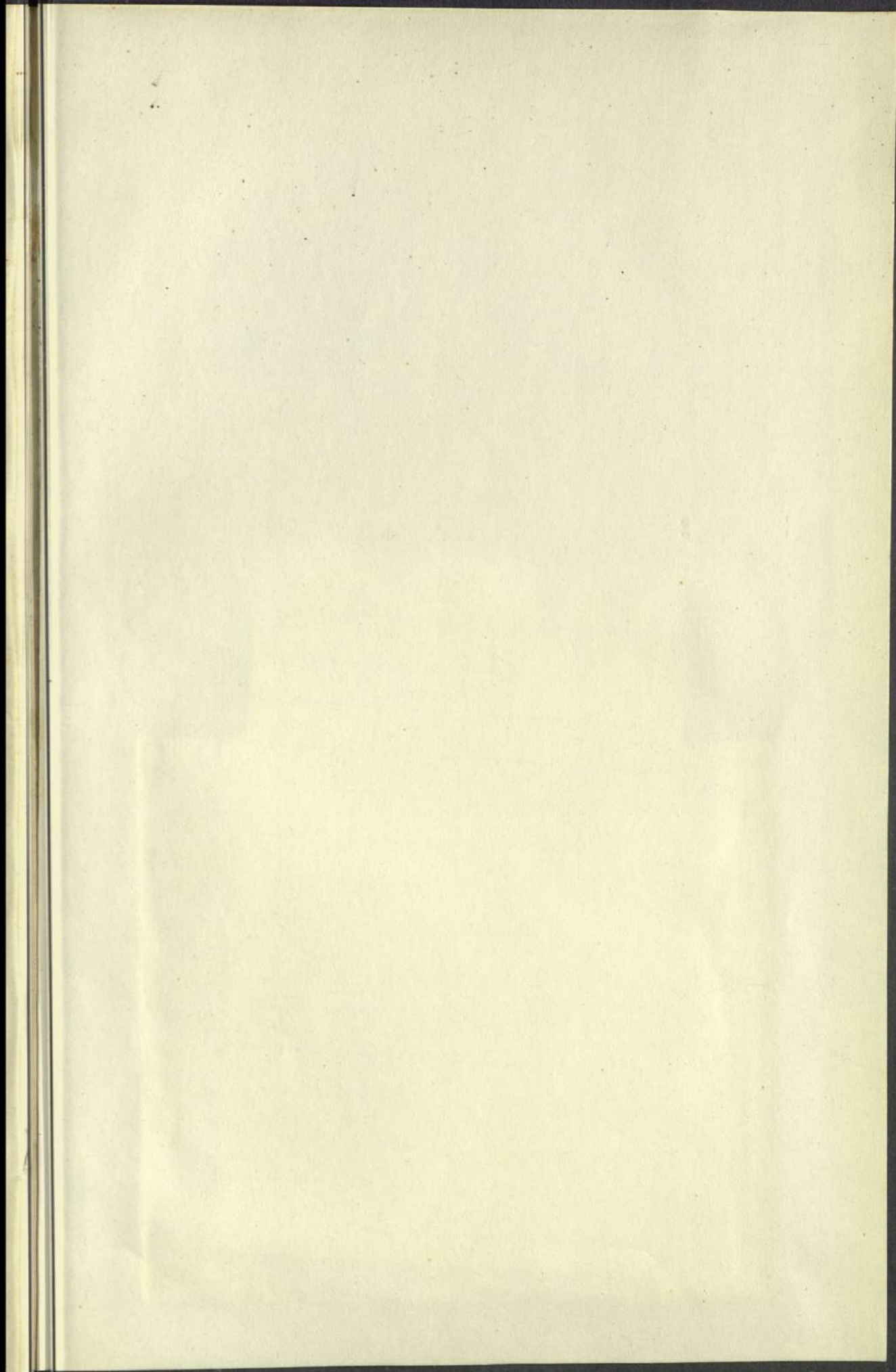
A131A

C.1

~~10 Mar~~ 70

~~13 Jan~~ 68

~~9 Apr~~ 70



297.09
A13A
C-1

كتاب

الإسلام والدولة الإسلامية
في الهند

تأليف

محمّد عبد المجيد العبد

عضو مجلس الشيوخ

الطبعة الأولى

١٩٣٩

مطبعة الرغائب

بیت

کتابخانه



مکتب

کتابخانه

مکتب

کتابخانه

مکتب

مکتب

الاسلام والدول الاسلامية

في الزمان

بينما كان سيدنا محمد رسول الله جالسا فوق ربوة وسلمان الفارسي مع بعض العرب يحفرون خندقا في الأرض اذ اعترضتهم صخرة حاروا في أمرها لشدة صلابتها فأخبروا النبي بذلك فقام وفي يده قضيب من حديد وضرب به الصخرة فتفتت وتطاير منها الشرر ولمع في الأفق برق شديد فنظر الرسول الى يمينه وقال لأعوانه « إني رأيت على ضوء البرق قصور الحيرة ومدائن كسرى » وعاد ثانية وضرب الصخرة فتطاير الشرر ولمع البرق فقال لأعوانه « إني رأيت على ضوءه قصور بنى الأحمر في الشام » . وعاد وضرب الصخرة مرة ثالثة فتطاير منها الشرر ولمع البرق في السماء فقال « إني رأيت على ضوءه قصور صنعاء » وبشر المسلمين بأن الله سيورثهم ملك كسرى وقيصر وقد تحقق ما قاله رسول المسلمين الى مدى ما كان يجوز في أحلام حالم . وغزت جيوش العرب شرقا وغربا وجنوبا فاستولت على جزيرة العرب بأجمعها وصارت راية الاسلام تخفق على ربوع أفريقيا الشمالية وتركيا وفارس .

وفي سنة ٧١١ ميلادية أي بعد انقضاء ثمانية وسبعين عاما على وفاة صاحب الرسالة وفي عهد الوليد الأول الأموي كان الحجاج بن يوسف الثقفي واليا على العراق يلهب غيره ويشتعل حماسا لنشر الدعوة الاسلامية . فأشار على الخليفة أن يسمح بإيفاد جيش لغزو بلاد الهند وهي أحد أقاليم الهند تتجاوز بلاد المعجم فصدر له الأمر بذلك فاختر فريقا من المسلمين (يبلغ عددهم ستة آلاف)

اسند قيادتهم الى محمد بن القاسم . ولما وصل هذا الجيش الى سواحل السند
وابتداً يتغلغل داخل البلاد وقف في طريقه « زاهر » — ملك السند —
ولكنه لم يستطع الوقوف في وجه هؤلاء المجاهدين فانهمز وقتل هو وعدد كبير
من جيشه وقد قال العربي الذي قتله :

الخيـل تشهـد يـوم زاهر والقنا ومحمد بن القاسم بن محمد
أني فرجت الجمع غير معرد حتى علوت عظيمهم بمهـندي
فتركته تحت العجاج مجندلا متغفر الخدين غير موسد

ولما قتل زاهر غلب محمد على بلاد السند وفتح مدينة « راور » عنوة وكان
بها امرأة لذاهر فخافت أن تؤخذ فأحرقت نفسها وجواربها وجميع مالها ولما اشتدت
هزيمة الهنود طلبو الأمان من المسلمين فاجابهم ابن القاسم اليه وأصاب العرب
مغانم كثيرة ومقداراً عظيماً من الذهب والجواهر قدرت يومئذ بمئة ألف ألف
وعشرين ألف درهم فقال الحجاج صرفنا في النفقة على هذا الغزو ستين
ألف ألف فرمحننا مثلها وأدركننا ثأرنا ورأس زاهر .

ولقد خلد محمد بن القاسم على حداثة سنه الذي لم يتجاوز سبعة عشر عاماً .
لنفسه في بطون التاريخ اسماً مجيداً حيث أحرز أول انتصار لجيوش العرب في
الهند . غير أنه مما يثير الأسف والحزن في نفس كل قارئ أن يعلم أن هذا القائد
الشاب أتهم ظلماً بأنه قارب إحدى بنات زاهر فيما له علاقة بعفتها فلما أرسلها الى
الخليفة شكت اليه فأثار ذلك غضبه عليه فقتله شر قتلة . ولما شفت بنت زاهر
غل نفسها منه حيث كان قد قتل والدها أخبرت الخليفة بحقيقة الأمر وفخرت
بأنها انتقمت لأبيها من ابن القاسم باختلاقها ما نسب اليه فأذاقها الخليفة وبال
فعلها وأعدمها وأسف على ظلمه لابن القاسم ولكن بعد أن أصبح الأسف
لا يفيد ولا يرد البعيد .

ولقد كانت غزوة العرب للسند في ذلك العهد أقل الغزوات شأنًا وأثرًا فاننا اذا استثنينا بعض المصادمات التي كانت تقع بين جيوش المجاهدين الغزاة وبين قبائل الراجبوت المجاورة في أوقات متقطعة فانه لم يحدث بعد ذلك شيء جدير بالذكر خصوصاً اذا عرفنا أن المنطقة التي أقام فيها العرب كانت تحف بها صحراء ذات طبيعة قاسية حالت دون توسع الغزاة علاوة على أن جيوش الخلافة كانت مشتبكة في أقطار أخرى متعددة مما حال دون امداد العرب بقوات أخرى فوقفت حركتهم هناك عند هذا الحد وبقيت خامدة جامدة الى أن قدر لمسلمين آخرين بالعمل الأكبر الذي كان ولا يزال عظيم الذكر بعيد الأثر في شؤون العالم عامة والاسلام خاصة وذلك في سنة ٩٦٢ حيث استطاع « سبكتاجين » المملوك التركي المشهور « بعز الدين » أن يحتل مدينة غزنة عاصمة الأفغان وهو والد السلطان محمود غزنوي الشهير وكان هذا المملوك المجازف أول مسلم غير عربي هاجم الهند المتاخمين لحدود بلاده وبذلك مهد الفكرة وأفسح الطريق لابنه السلطان محمود غزنوي حيث نفذ الى الهند من حدها الشمالي الغربي وقاتل الراجا « جيبال » ومن بعده قاتل ابنه « أنا ندادبال » حيث ثار عليه وألب معه قبائل الهندوس وراجواتهم (أمراءهم) فهاجموا مدينة ييشاور ولكن النصر في النهاية أحرزته جيوش المسلمين ويرجع الفضل في ذلك الى بسالة الخيالة الأتراك ومن وقتئذ صارت ولاية البنجاب ملكاً تابعاً للمسلمين (إلا في فترة قصيرة كانت انتزعتها منهم السيك « أو السيخ » وقت تفوقهم).

وفي سنة ١٠٢٥ وسنة ١٠٢٦ وقعت أهم غزوات السلطان محمود في الهند بولاية جوجيرات حيث أراد الاستحواذ على معبد سيفا وحينما بدأ تنفيذ خطته حيث سلك طريق أجمير ليتجنب صحراء السند وجد الهندوس متجمعين في مدينة « سومناه » للدفاع عن معبدهم وبدأ القتال واستمر يومين كاملين دون انقطاع

وهربت على أثر ذلك عساكر الراجبوت الباسلة ولجأ كهنة البراهمة الى معبدهم المقدس ولما اقتفى السلطان أثرهم الى داخل الهيكل توسلوا اليه أن لا يعتدى على أصنامهم مقابل قيامهم بأداء أى فدية يفرضها عليهم ولكنه أبى الا تحطيم أصنامهم إذ أنه لم يخرج طلبا لمال يغنمه بل مدفوعا بحماسة الدينى يريد محاربة الوثنية واعلاء كلمة الله ولما باشر تحطيم الأصنام تناثرت من أجوافها الجواهر الثمينة وقطع الذهب كما لو كانت مياهها تتدفق بسرعة من النوافير ويالها من غزوة جمعت بين الدين والدنيا !

ولقد حاز السلطان محمود شهرة كبيرة فى بلاد الشرق بين الأمم الاسلامية ولما اتسعت فتوحاته وثقلت أعباؤه ابتدأت تهرع اليه وفود المسلمين المتطوعين من كافة البلاد الاسلامية وخصوصا من إقليم « ما وراء النهر » . أى بخارى وخيوى - طمعا فى القتال معه وحباً فى الشهادة لما كان لحروبه من الصبغة الدينية وقدم له كثير من أمراء الهندوس فروض الطاعة وسلمت له مدينة « كونوج » عاصمة « راجاتومار » وقد كانت أشهر مدينة وقتئذ فى هندستان . ولم يزل محمود سائراً فى غزوه موفقا فى مجهوده تسلم له القلاع وتفر منه الأبطال وتحطم فى طريقه الأصنام وتمحى أمامه أثار الكفر حيث سار الى أن وصل سواحل المحيط الهندى وقد اجتاج محمود بجيوشه شمال الهند من نهر الاندوس الى نهر الجانجيز « الكنك » ولما طالت غربته هو وجيوشه عن غزنة عاد بسبب الحنين الى وطنه الأسمى أى الافغان ومعه من المغانم والأسلاب ما لا يدخل تحت حصر وقد امتلأت خزائنه بالذهب والفضة علاوة على الجواهر الثمينة ومن مزاياه أن مقره كان ملجأ يقصده رجال الفنون والآداب لتشجيعه لهم مما عاد على شعبه بجزيل الفائدة وصارت غزنة فى عهده كعبة لمشاهير الشرق من رجال السياسة والفلسفة والشعر والعلوم الفلكية واللغات الشرقية (ومنها السنسكريت) وقد قصده الفارابى والعتبى

والبيهقي المؤرخ والفردوسي وهو الشاعر الفارسي المشهور صاحب الشاهنامه التي أثبتت تاريخ أبطال الفرس شعرا .

وقد صرف السلطان محمود حياته في جهاد وتجديد وتشديد ولم يطل عمره كثيراً بعد هذه الفتوحات بل مات على أثرها ودفن في مدينة غزنة عاصمة ملكه في قبر يحف به جامع عظيم أحفظ فيه ببعض آثاره ومنها القضيبي الذي حطم به أصنام الهند ، وأبواب مدينة سومناه ولم تزل هذه الآثار باقية في أفغانستان حتى سنة ١٨٣٢ وبعدها فقد القضيبي ونقلت الأبواب الأثرية إلى الهند حينما غزا الإنجليز الأفغان سنة ١٨٣٩

لم تبقى أسرة هذا الغازي في الحكم طويلاً ولم يعقبه من نسله أكثر من أربعة عشر أميراً لم يصف لهم فيها الزمان بل ناوهم أمراء جبال الغور وفي سنة ١١٥٥ انتهى حكم بهرام الغزنوي وتولى بعده علاء الدين الغوري الذي أباح مدينة غزنة الغنية - بما تركه مؤسس عائلة الغزنوي - وقد صارت خراباً ، وعندئذ هرب الأمير خسرو بن بهرام الغزنوي ولجأ إلى الهند ودخل مدينة لاهور وباقامته بها بدأت إقامة أول أسرة إسلامية في الهند . غير أن الزمان لم يسلم خسرو طويلاً وانقرض حكم هذه العائلة الغزنوية في عهد ابنه المسمى أيضاً بخسرو حيث أسره محمد غوري سنة ١١٨٦ وبذلك بدأ حكم عائلة الغوري الأفغانية ودالت دولة الترك الغزنوية وكان مؤسس عائلة الغوري الأمير عز الدين والد علاء الدين الذي دمر مدينة غزنه وكان لعلاء الدين ابنا عم أحدهما يسمى غياث الدين والثاني يدعى معز الدين (وهو المشهور لدى مؤرخي المسلمين بشهاب الدين محمد غوري) ، وهو ثاني غزاة الهند المسلمين وفي سنة ١١٧٥ غزا مقاطعة ملتان وفي سنة ١١٧٦ سقطت لاهور في قبضته وبذلك تخلص محمد غوري من مناظره من الملوك المسلمين في الهند . فلما تحقق له ذلك بأسره السلطان خسرو وإيداعه

سجينا في قلعة فيروز كوه شرع في محاربة الهندوس . ولقد كان من عادة عائلة الغزنوى السابقة أن تستخدم جنوداً وطنيين هندوس ولكنه أبطل هذه العادة وجعل كل اعتماده على جيوش من الأفغانيين والأتراك والفرس الذين كانوا يشتعلون غيرة على الدين فجهز منهم قوة كبيرة ونازل راجا برتوى وكان خصماً شديداً للراس لا يفضل جيشه أى جيش في العالم حيث كانت وحداته مكونة من قبائل الراجبوت التى يخيل أنها ما خلقت إلا للقتال الى الموت وحتى أنه لم يتيسر لحاكم مسلم اخضاعهم الا بالاسم فقط ومما كان يجعل لهم قيمة عسكرية ممتازة وجود تنظيمات سليمة ومتقنة للرماية واتخاذهم مهنة الجندية من قرون عديدة كحرفة ويزيدهم حماساً فى القتال أغانيهم الحربية فقد كانت تلهبهم شجاعة وبلغ من نبل أخلاقهم أنهم كانوا يتقيدون بصفات شريفة فى معاملة خصومهم فكان من العار عندهم الخروج على هذه الصفات وكانت أول واقعة بينهم وبين محمد غورى جعلته يتصور من خطورتها أنها ستكون آخر محاولة له معهم إذ أن القتال الذى جرى ، عند مدينة « نارين » القريبة من « كارنال » كان شديداً لخطورة عليه إذ كثيراً ما هاجمت خيالاته جنود الخصوم ولكن شجاعة هؤلاء الخيالة واندفاعهم كان يفتر ويتلاشى أمام الراجبوت فكانت مهارة الراجبوت تفسد كل خطة وأخيراً ولأنقاذ الموقف هاجم محمد غزنوى شقيق الراجا وقتله ولكنه استهدف هو أيضاً للموت وكاد يسقط من جراحه لولا بسالة مملوك معه اسمه « القلجى » الذى انتشله كجثة وجرى به بعيداً وبذلك أنقذه من الموت ولكن جيش المسلمين تضعضع ولم يسبق لجيش قبله أن هزم هذه الهزيمة الساحقة حتى أنه فى تقهقره لم يقف فى مدينة لاهور بل عبر نهر الاندوس متراجعا الى بلاد الأفغان ولم يستطع السلطان أن ينسى ذكرى خذلانه بل لازمه الفكر ليلاً والحزن نهائياً وفى خلال عام تجهز بجيش يقدر بمئة وعشرين ألف مقاتل بينهما أربعين ألف خيال وكلهم

أفغان وأترک و فرس ، ولما عاود الكرة على خصمه السابق وجده في انتظاره بنفس المكان القديم ولما كان السلطان قد استفاد خبرة ودروسا من غلطاته الماضية فقد أرسل قسما كبيرا من جيشه لمهاجمة الهندوس فوجدهم ما زالو محافظين على بأسهم وقوتهم القديمة فأعطى تعليمات لقواده بتصنع الهزيمة والتقهقر فنفذوا تعليماته فتعقبهم الخصوم مندفعين وراءهم كالسيل فباغتتهم بهجوم عنيف باحتياطي جيشه فقتل كثيرا من جنودهم ورؤسائهم وأدخل عليهم الفرع والرعب فتداعت صفوفهم وأصابها الخلل والارتباك ففروا لا يلبون على شيء طلبا للنجاة وعلى رأسهم الراجا برتوى ولكنه لم يتمكن من الفرار وفي النهاية وقع أسيرا وقتل . وكانت النتيجة أن ضم المسلمون الى أملاكهم ولايات أجير وهانسي وسيرسوتي واستمر تعقب الهندوس والتقتيل فيهم وهدم معابدهم وتحطيم أصنامهم وشيدت في أماكنها مساجد يتلى فيها اسم الله وتركت ولاية أجير لابن واليها السابق برتوى لينوب عن السلطان محمد في حكمها كما وأن المملوك قطب الدين ايبك عين واليا لدلهي ولما انقضى أجل السلطان محمد انتهز قطب الدين الفرصة ونادى بنفسه ملكا على دلهي وبينما كان منهمكا في اخضاع المدن العاصية في غرب الهند اذا بقائد آخر اسمه محمد بختيار يهاجم شرقا في مدن البنغال حتى احتل مدينة لكنتاو وكانت العاصمة وقتئذ لهذه الولاية وبذلك تم اخضاع هندستان من الغرب الى الشرق تحت حكم المسلمين (معنى ذلك كل هندستان الشمالية ولم يتبقى إلا شبه الجزيرة في الجنوب وأهمها ولاياته الديكان) واسم قطب الدين ما زال منقوشا على المنارة المنسوبة له والتي لا زالت قائمة بين أطلال مدينة دلهي القديمة ولقد استمر الحكم يتعاقب في نسل هذا المملوك الملك الى سنة ١٢٨٨م

ولقد تم استيلاء علاء الدين القالجي سنة ١٢٩٤ على عرش عائلة الماليك وذلك بقتله غيلة السلطان فيروز الذي حل محل الماليك ويعتبر علاء الدين القالجي

ثالث غزاة المسلمين الذين غزوا الهند وأقاموا بها : ولقد خاض حروبا طويلة في الولايات الجنوبية التي لم تكن وقتئذ قد خضعت لحكم المسلمين وهو الذي احتل معبد بهلسا وديوجيرى (دولة أباد) في ولاية الديكان وقد بعث عدة قواد على رأس جيوش متعددة فاجتاحوا بها أواسط وجنوب الهند ومن بينهم مالك كافور الهندوسى الذى ارتد عن دينه واجتاح باسم المسلمين ولايات الجنوب والمشهور عنه أنه اعتدى على كل المعابد الهندوسية وجردها من كل شئ ثمين بها كما أنه لم يرحم السكان اذا صادرهم فى كل ما يملكون من ذهب وفضة .

وجاء فى تاريخ البارانى أن علاء الدين حكم عشرين عاما فى الهند اتسعت فيها حدود ملكه لدرجة لم تتفق لملك قبله وتوطدت الأمور وسار كل شئ طبق رغائبه وامتلات خزائنه بالذهب والفضة والجواهر وكان كثير البذل سفاكا للدماء أميالا يعرف مبادئ القراءة ولا الكتابة الا أنه كان موقفا فى كل مقاصده خيرا فى قيادة الجيوش وإدارة الأحكام وحينما اغتصب الملك من الشاه فيروز صار ينثر الذهب فى طريقه على أعوان الملك السابق استجلابا لهم وكسبا لولائهم فلما تم له ذلك قلب لهم ظهر المجن وقبض عليهم جميعا فقتل البعض منهم وسمل عيون الآخرين وصادر أموالهم واستصفى أملاكهم ولم يستثنى الا ثلاثة تنزهت نفوسهم عن قبول الرشوة وارتكاب الخيانة لسيدهم السابق فأعطى بذلك درسا عظيما للذين لا وفاء لهم ولا عهد . والذين يلبسون ثوب زيد لعمر وطبقا للظروف وتمشيا مع الهوى ولقد بالغ علاء الدين فى احترام القواد الثلاثة الذين حافظوا على ولائهم لفيروز فأفاد بذلك الجيل المعاصر له درسا أخلاقيا متينا وجاءت سنة ١٢٩٧ فأجتاز المغول مضائق الشمال ووصلوا نهر الأندوس قاصدين مدينة دهلى ولم تكن فى حالة تصلح للدفاع فلما صاروا على مقربة منها بجيش يبلغ مئتى الف مقاتل جزع أعوان الدين ونصحوا لهم بمسالمتهم فأنى

الاصفاء الى اقوالهم ودفع بظفرخان قائد الجناح الأيمن لجيشه الى ملاقاتهم فنجح
في مأموريته وسحق الجناح الأيسر للمغول وحصده حصداً غير أن الجناح
الأيسر لجيش علاء الدين تحت قيادة ولده أيلك خان تباطأ في حركته
فأفسد نجاح جيش أبيه الحاسم . الا أن الرعب دخل على قلوب المغول
ففي ظلام الليل فترقوا شذر مذر واعتنق فيما بعد كثير منهم الدين
الاسلامى غير أنهم لم يبتعدوا عن الدسائس وقويت عصبيتهم فحسب
علاء الدين حساباً لذلك واستأصل شأقتهم حينما علم أنهم يدبرون له المؤامرات
وقتل منهم نحو أربعين ألفاً ولقد تمرد عليه الهندوس في مدينة سومناه فأوقع بهم
ونقل صنمهم المعبود الى دلهى حيث ديس بالأقدام تأديباً لهم وتحقيراً وقد توالى
انتصاراته وفتوحاته وعظمت شوكرته فداخله الغرور وابتدأ يفكر فى خلق دين
جديد يضع فيه نفسه موضع التقديس كما خطر على باله أن يقتل الاسكندر
الأكبر (المقدونى) فيغزو العالم ويسكن من حسن حظه أن استشار من
حوله من العلماء فنصحوا له أن يدع أمور الدين فهمى من شؤون الأنبياء
وأما غزو العالم فلم يقروه عليه واستصوبوا له أن يتم غزو باقى بلاد الهند التى
لا زالت مستقلة والتى كانت تناوئه مثل ولاية « راتبور » و « شيتور »
و « ملتان » و « ملوا » .

انصافاً لهذا السلطان أثبت كثير من المؤرخين أنه استمع للنصيحة وعمل بها
وعدل عن خطته الأولى وعاد الى صوابه . ولقد دبر ابن عم له مؤامرة اعتدى عليه
فى أثناءها ولم يتركه المتآمرون إلا بعد أن ظنوا خطأ أنه قتل فتوجه ابن عمه الى
سرايه واقتحمها فاعترضه « الطواشى مالك دينار » ووقف فى وجهه أمام باب
الحرم وأقسم أنه لن يسمح له طائفاً بالدخول إلا اذا أظهر رأس السلطان غير أنه
لم تمض برهة يسيرة حتى استجمع السلطان علاء الدين قواه ودخل على ابن عمه

الثائر فأدخل عليه الارتباك والخوف وقبض عليه ومعه بعض المتآمرين وقتلهم
بعد أن مثل بهم .

وتتابعت بعد ذلك المؤامرات على حياته من أفراد عائلته وبعض مماليكه
فاستشار في أمرهم حاشيته ووزرائه فقالوا لهم أن كثرة اليسار والنعمة أبطرت
الناس وأن توالى اختلاطهم بسبب الحفلات التي يقيمونها جعلتهم يفكرون في
أموال ليست من شأنهم وصارت وفرة الأموال تطفئهم حتى على شخصك العظيم
فما كان منه إلا أن فرض ضرائب فادحة وصادر ذوى النعمة وسلب كثيرا من
أموالهم وأملا بهم وتبدل اليسر عسرا والسعة في الرزق ضيقا وسار الكثيرون في
كرب شديد وحيرة جعلتهم لا يفكرون إلا في الحصول على الضروري من
القوت وأقام نظاما واسع النطاق دقيق الوضع في الجاسوسية والرقابة وحرم على
السكبراء والعظماء أن يصاھروا بعضهم إلا بأذنه أو أن يجتمعوا إلا بأمره
حتى بلغ بهم الفرع الى درجة صاروا فيها لا يتزاورون الا خلصة ولا يتكلمون
الا همسا أو إشارة وصار كل الهنود يرتعدون من بطشه خوفا وزاد في التضيق
عليهم فمنع بتاتا بيع الخمر وشربه وحرم جميع الملاحى والعقاقير المخدرة وأمر
بتحطيم كل أدوات الخمر وبدأ بنفسه فكسر كل الأواني من زجاجات وأقداح
وأفرغ على الأرض ما كان مخزونا لديه من الخمر . ومما كان موضع اهتمام
هذا السلطان الغريب تنظيم أسعار المواد الغذائية فقد جعل لها ثمنا لا تعدوه فكان
سعر الغلال مثلا .

كل ثمانية وعشرين رطلا ما يوازي خمسة عشر مليا

» » » من الشعير ما يوازي سبعة مليات ونصف

» » » من الأرز » عشرة مليات

» » » من العدس » خمسة مليات

وكان من ضمن وسائله في مكافحة الغلاء أنه كان يصدر الأمر للجباة بتحصيل جانب من الضرائب بالنوع فكان بذلك يملأ كثيرا من مخازنه العامة بالمدن حبوبا فاذا قل الوارد ومالت الأسعار الى الصعود أخرج جانبها من المخزون فيحصل بذلك رد الفعل المطلوب .

ومما عرف عنه أنه كان شديد القسوة على رعاياه الهندوس اذ فرض عليهم ضرائب فادحة لم تترك لهم من حاصلاتهم الا القليل الذي لا يكفيهم الا بمشقة حتى أنهم اضطروا في بعض الأحوال لقطع السنابل الخضر من مزارعهم قبل نضوجها وذلك لتلافي الجوع .

والذي يعتبر تاريخ عبد الملك بن مروان والوليد بن عبد الملك ناقصا اذا لم يذكر فيه الحجاج بن يوسف الثقفي كذلك يحد تاريخ السلطان علاء الدين اذا لم تذكر معه سيرة قائده الهندوسي كافور فانه بما أوتي من بطش وسطوة استطاع أن يضم جنوب الهند الى حكم المسلمين وهو الذي ملأ خزائن علاء الدين بالجواهر والأصنام والنقود الذهبية التي بلغت زنتها الفا ومئتي طنا كما أنه أرسل معها عشرين ألف حصان وستمئة واثنا عشر فيلا . وفي سنة ١٣١١ وصل علاء الدين الى قمة مجده وبلغ كافور منزلة رفيعة لديه فأثارت الحقد والضغينة في قلوب الكثيرين لا سيما وأن كافورا استطاع بما له من النفوذ أن يسند وظائف الحكم في بعض الولايات الى غير الأكفاء من أعوانه فكان ذلك سببا في احداث رد فعل شديد عقب وفاة علاء الدين ولقد أخذ كافور مقاليد الأحكام في يده وأجلس على العرش شهاب الدين عمر وهو طفل لا يتجاوز ست سنوات وسمل عيون أخوين له أكبر منه سنا وعاملهما معاملة غاية في القسوة كما أنه طرد أمهما الملكة واغتصب أملا كها ولقد أمعن كافور في وسائل حكمه الدموي حتى أنه فكر في تدمير مؤامرة واسعة النطاق يبيد بها معظم عائلات الاشراف

ولسكن من حسن حظ هؤلاء أن بعض الجند فكروا في اغتياله ونفذوا مكيدتهم فيه إذ اقتحموا حجرة نومه وقتلوه فيها فخلوا دون انفاذ نواياه الخبيثة ولم يكن قد مضى على وراثته للعرش أكثر من خمسة أسابيع فانتبهز ابن كبير من أبناء علاء الدين فرصة الاضطراب الذي حدث بموت كافور وسمل عيني أخيه الصغير وجلس بعده على العرش وسمى نفسه « قطب الدين مبارك شاه » ولقد كانت أخلاقه متباينة ومختلفة كل الاختلاف عن أخلاق والده فقد عرف عنه لين الخلق وسهولة الطبع وكان سنه وقت اعتلائه العرش سبعة عشر عاماً وكان عبداً لشهواته فلجأ إلى اللهو والراحة وبدأ حكمه بفتح أبواب السجون وأطلق منها سبعة عشر ألف سجين وأعطى للجيش مرتب ستة أشهر وأكثر من أعطاء المنح والهبات وألغى كثيراً من الأحكام وأبطل كل الضرائب التي أحدثها والده وهكذا ذهب الخوف الذي كان مستحوذاً على الناس من صولة الملك وبعض جبالة الأموال واندثر العهد السابق المملوء بالأوامر والنواهي الشاذة فصار الهنود لا يسمعون :

اعمل هذا — ولا تعمل ذاك .

قل هذا — ولا تقل ذاك .

أخف هذا — ولا تخف ذاك .

كل هذا — ولا تأكل ذاك .

وَأَلْفَ النَّاسِ الْعَهْدَ الْجَدِيدَ وَانْدَفَعُوا فِي حُظُوظِهِمْ وَعَادَ صِنْعُ الْخَمْرِ وَبَيْعُهُ وَشُرْبُهُ وَارْتَفَعَتِ الْأَسْعارُ وَتَجَوَّهَتِ التَّسْعِيرَاتُ السَّابِقَةُ وَنَسِيَ التَّجَارُ الْأَمَانَةَ فِي الْمَعَامَلَاتِ وَارْتَفَعَتْ أَجُورُ الْعَمَالِ نَحْوَ ٢٥٪ وَفُشَتِ الرِّشْوَةُ وَبَدَأَ الْهِنْدُوسُ يَسْتَرِدُّونَ ثُرُوتَهُمْ الْمَفْقُودَةَ وَيَتَمَتَّعُونَ بِالسَّعَةِ فِي الْمَلْبَسِ وَالْمَأْكَلِ وَتَغَيَّرَتِ الْحَيَاةُ كَثِيرًا بِمَا رَفَعَ مِنَ الْقِيُودِ السَّابِقَةِ الَّتِي صَدَرَتْ فِي عَهْدِ عَلَاءِ الدِّينِ وَلَقَدْ ضَرَبَ قُطْبُ الدِّينِ مُبَارَكُ شَاهٍ مِثْلًا سَيِّئًا لِرَعَايَاهُ بِانْفِاسِهِ فِي الشَّهَوَاتِ وَاحْتِقَارِهِ لِأَصُولِ اللَّيَاقَةِ وَقَدْ

ارتفع ثمن الجوارى والقيان من جنهين الى مئتي جنيه وذلك لاندفاع الناس
كلهم في حظوظهم وشهواتهم

اذا كان رب البيت بالدف مولعا

فشيمة أهل البيت كلهم الرقص

ومما زاد الحال سوءاً أن السلطان قطب الدين وقع تحت تأثير أحد وزرائه
من طائفة المنبوذين وكان اسمه خسروخان فبيأ له كل وسائل الشهوات الخفيرة
دون مبالاة أو تقيد بحياء . ثم انه هجر الصلاة ولم يعد يذهب الى المسجد كما ترك
صوم رمضان وجاهر بالافطار وبذلك كان قطب الدين على تمام النقيض من أبيه
في أخلاقه الا فيما يتعلق في القسوة في العقوبة إذ حينما ثار عليه « هار بلاديقا »
في ولاية « ديفاجيرى » أسره السلطان ثم سلخه حيا ثم قتله ، ولما اتهم ابن عم
له اسمه أسد الدين بالتآمر عليه بسبب استيائه من فوضى الأمور كانت عقوبته
أسره ومعه تسع وعشرون من أخوته وأطفالهم وذبحهم ذبح النعاج واخراج
نسائهم من البيوت الى الشوارع . كما أن أخوته لم يكونوا أحسن حالا اذ وضع
ثلاثة منهم في قلعة وسمل عيونهم ثم أعدمهم . ولقد أتى بحاكم جوجيرات وحكم
باعدامه لو شايات لم تثبت صحتها . ولما ثار عليه الراجا الهندوسى الجديد لولاية
ديفاجيرى قطع أنفه وأذنيه وكثيرا ما نكل قطب الدين المبارك بالاشراف
الذين كانوا مقر بين من والده وذلك بايعاز من المنبوذ خسرو .

وفي سنة ١٣٢١ فى احدى الليالى تجرأ خسروخان ودخل على سيده وقتله

ورمى بجثته من احدى نوافذ قصره وخيرا فعل اذ أراح الناس من شروره

واغتصب خسرو عرش « قطب الدين » فى عهد امتلا بالرعب والخوف

ولقب نفسه « بناصر الدين » وبدأ عهده بسفك الدماء والقسوة التى لم تعهد الهند

مثلا ولقد تهجم على نساء قطب الدين وانتهك حرمتهم ووزع بعضهن كما وزع

بناته على بعض أعوانه ولم يقف عند هذا الحد بل اعتدى على كثير من بنات الأشراف ووزعهن على من يحيط به من الطبقات المنبوذة فكان ارتكابه لهذه الأعمال الخفية المثيرة واهراقه لدماء الأبرياء مما أحمرت له السماء غضبا ولقد أساء الى القرآن ووضع الأصنام في مساجد المسلمين وكان حكمه ممقوتا على السواء من الهندوس وغيرهم ولو أن أميراً من الهندوس جمع شتات طوائفه وحاول الاستحواذ على العرش لكان من الممكن نجاحه .

أما فيما يتعلق بالمسلمين فقد راعهم ما كابدوه من ظلمه ولجأوا الى « محمد بن تغلق » (الغازي) ذلك الرجل الذي كان رعباً للهندوس والذي وقف حارساً للبطائح والمستنقعات المتاخمة للحدود حينما حاول المغول اجتياح الهند في عصر السلطان علاء الدين فحقق أملهم وأجاب نداءهم وجمع شتات القوى المتفرقة وقصد مدينة دلهي لتخليصها من يد هذا الطاغية خسرو الذي حينما علم بزحف ابن تغلق صار يجود بما تحت يديه من الثروات المتجمعة ويوزع الأموال بسخاء ليجمع بها جيشاً يستعين به على رد الغازي الجديد الذي قصده لانتفاذ الحكم الاسلامي والشريعة الاسلامية ولقد تسكل مسعى ابن تغلق بالنجاح وقطعت رأس خسرو خان حيث وجد مخبئاً في إحدى حدائق دلهي وذلك في سنة ١٣٢١ بعد انقضاء أربعة شهور كانت على الهند جحياً واقترح « ابن تغلق » اختيار أمير من نسل الأسرة المالكة ولكن الجوع والجاهير بدلهي أصرت على المنادة به شخصياً ملكاً عليهم وقالوا له أنه أحق من يحكمهم اذ كان سبياً في خلاصهم من طغيان خسرو المرتد وأنه حقيق بولاء الجميع لما أسداه لهم من خدمات جليلة وانقاذهم من هول ما كانوا فيه .

عجل بن تغلق

رجل الوفا

ابتدأ حكمه سنة ١٣٢١ ولم يخب فيه أمل المؤمنين وهو الذي أنقذ الهند من شر المغول وحى الحدود الشمالية من عبور العدو ولما ابتدأ عهده كملك استعمل الحزم في كل أموره فأعاد الأمن الى نصابه وخفض الضرائب عن الأراضي الزراعية الى العشر والى $\frac{1}{10}$ قسما من الحاصلات ثم أنه واسبى الكثير من ضحايا خسروا وخصوصا السيدات اللاتي انتهكت حرمتهم في سراى قطب الدين وحاول أن ينسيهن ما أصابهن بما قدمه لهن من أنواع المساعدة واطهار عطفه الشخصى ولم يغال كثيراً كغيره في التشديد على الهندوس ولم تكن الضرائب التى فرضها عليهم فوق احتمالهم .

ولقد عاد الرخاء مع الأمن وقت حكمه . ومن أعماله العسكرية أنه أرسل جيشا الى ولايات الديكان الثائرة وأتاب عنه فى قيادتها ابنه « إيلك خان » فأخضعها ثم إنه قاد بنفسه جيشا آخر الى البنغال حيث ظهرت فيها الاضطرابات فاختار حاكمها « بغراخان » أسلم الوسائل وذلك بتقديمه فروض الطاعة والعبودية واسكنه أسر أخاه « بهادر شاه » الذى كان حاكما على ولاية البنغال الشرقية وقاده ذليلا الى سجون دلهى ومات ابن تغلق سنة ١٣٢٥ حين عودته من الغزو اذ سقط عليه سقف بيت أثناء سيره ويقال أن ذلك كانت نتيجة لمؤامرة قام بها ابنه الأكبر وهو الذى ولى الحكم بعده وكان اسمه محمد بن تغلق ولقد كان من ملوك الهند الذين حازوا شهرة فى الحكم فى عهد القرون الوسطى ولقد كان المثل الأعلى فى إنسانيته بالنسبة لمعاصريه وكان على جانب عظيم من الثقافة والالمام بكثير من العلوم الفلسفية والرياضية والمنطق وكثير من اللغات الشرقية ومنها

العربية وكان كثير التفكير في تنظيم الحكم على قواعد جديدة ومما طرأ على باله إيجاد عاصمة تتركز فيها سلطة الحكم كله وهي من الأساليب الحسنة إلا أن الأقدام عليها كان محفوفا بالخطر ويحتاج إلى كثير من الحذر ولما شرع في تطبيق نظامه الجديد لم يعمل حسابا كافيا لما جبلت عليه الشعوب وقتئذ وما ألفته من الأنظمة وقد كان من نقط الضعف فيه العجلة في التنفيذ مما أثار عليه كثيرا من المتاعب والاضطرابات وأنه لشدة وثوقه بخطته وتفكيره كان لا يطيق أن يخالفه أحد أو يراجعه في نظامه فكان ينزل بمخالفيه العقوبات القاسية مما أدى إلى الثورات والاضطرابات .

وقال ابن بطوطة في تاريخ رحلته أن من أعظم ما كان ينقم على السلطان اجلاؤه لأهل دلهي عنها . وسبب ذلك أنهم كانوا يكتبون بطائق فيها شتمه وسبه ويختتمون ويكتبون عليها « وحق رأس خوند عالم (سلطان العالم) » ما يقرأها غيره ويرمونها بالمشور فاذا فضها وجد فيها شتمه وسبه فعزم على تخريب دلهي واشترى من أهلها جميعا دورهم ومنازلهم ودفع لهم ثمنها وأمرهم بالانتقال عنها إلى دولت آباد فأبوا فنادى مناديه أن لا يبقى بها أحد بعد ، فانتقل معظمهم واختفى بعضهم في الدور فأمر بالبحث عن من بقي بها فخرج أهلها جميعا وتركوا أثقالهم وامتعتهم وبقيت المدينة خاوية على عروشها فحدثني من أثق به قال « صعد السلطان ليلة إلى سطح قصره ونظر إلى دلهي وليس بها نار ولا دخان ولا سراج فقال ، الآن طاب قلبي وتهدن خاطري ثم عاد وكتب إلى أهل البلاد أن ينتقلوا إلى دلهي ليعمروها فخربت بلادهم ولم تعمر دلهي لاتساعها وضخامتها وهي من أعظم مدن الدنيا وكذلك وجدناها لما دخلنا إليها خالية ليس بها إلا قليل عمارة .

هذه هي عبارة ابن خلدون ، ^{بطوطة} والواقع أن السيب الذي دفعه إلى بناء مدينة

أخرى هو أنه كان دائم التفكير في الاصلاحات من جميع وجوها وكان من بينها استبدال العاصمة دلهى بغيرها لتكون أكثر مناسبة بالنسبة لمركزها وكان من سوء الحظ أنه مع صواب فكره لم يفكر كثيرا في سكان دلهى والضرر المالى الكبير الذى يلحقهم بسبب حملهم على الانتقال الى مدينة أخرى والمشاق العظيمة الجثمانية التى سيكابدونها لبعده المسافة بين العاصمة القديمة والعاصمة الجديدة مما أدى الى مرض الكثيرين وموت عدد لا يستهان به من السكان أثناء الانتقال ثم فشل المشروع نهائيا واضطر للعدول عنها .

ومما زاد في متاعب هذا السلطان على الرغم من حسن نواياه وطيب سجاياه أنه كان كثير البذل الى درجة التبذير حتى أن سمعته فى العطاء والكرم انتشرت فى كل الأقطار فهرعت اليه الوفود والشعراء وطلاب الاحسان من جميع البلدان وكانت يده لا تنقبض عن البذل حتى أنه كثيرا ما خصص الى أفراد ايراد مدينة بل مركز بأجمعه فينقلهم فجأة من العسر الى اليسر الزائد ودام الحال على هذا المنوال حتى أصبحت الخزائن العامة خاوية الوفاض بادية الانقراض وقضى بذلك على الكنوز والثروات العظيمة التى كانت متجمعة لديه وألف عيشة البذخ والاسراف الذى تجاوز كل حد فأصابه العسر والارتباك فصار كرمه مهلكا لأنه وان كان أغنى بعض الأفراد الا أنه أفقر فى جانبهم الملايين الكثيرة من السكان حيث اضطر الى رفع الضرائب على المزارعين ونظر الى تغذية شهواته الخاصة بالمال دون أن ينظر الى الأثر الذى يحدثه مثل هذا التصرف فكانت النتيجة أن السكان وقعوا تحت أعباء ضرائب فوق طاقتهم فصاروا يهجرون المزارع ويهييمون فى الغابات والاحواش بين الوحوش والحشرات وأجدبت الضياع النظرة وأصبحت الخضراء يابسة وضائق سبل الرزق واختل نصاب الأمور وابتدأت بواعث الشر تبدو فى كثير من أنحاء هذه الامبراطورية الواسعة

وفشت المجاعات في بعض الجهات بحال مخيف جعله يثوب الى رشده ويحسب للعواقب حساباً فبدأ بتوزيع الاعانات للمحتاجين والجانحين في دلهى وغيرها واستمر على ذلك عدة شهور وبدأ يعالج حال الفلاحين بأن اختار لهم أحسن النظم للتسليف مما كان سيعود عليهم بأعظم الفائدة لو لم يتجرد المنفذون من النمة والأمانة وأدخل نظاماً جديداً من العملة ليستعين به على تفريج الأزمة ويبدو أنه اقتبس هذه الفكرة من بلاد فارس أو من كوبلاى خان امبراطور الصين غير أنه لم يجعل العملة ورقاً بل طبعها نحاساً يشبه العملة الفضية ذات القيمة الكبيرة المسماة « تانكا » واصطلح على أن تكون بنفس قيمة الفضة ولذا سمي (بأمير النقود) .

ولقد أعطى نظام المعاملات كل اهتمامه من وسائل الإصلاح . وكان في مقدمة القوانين التي أصدرها إعادة ضرب العملة على قواعد تجعل كل قطعة من نوع واحد متساوية الحجم كما أنه راعى نسبة قيمة العملة للقيمة المعدنية التي فيها وراعى الدقة في نسبة الذهب الى الفضة وبالجملة فانه كان أكبر خصيص في زمانه فيما يتعلق بمسائل العملة ونظام سكها .

غير أن هذا المشروع أيضاً بما كان له من جليل الفائدة لم يؤد الى الغرض المقصود منه لأن نظام الضرب لم يكن وصل للدقة التي عليها في وقتنا هذا وللأسف أن بعض الجشعين قلد كثيراً من هذه العملة مما زاد في ارتباكها لأن بيوت الكثيرين من الهندوس تحولت سرّاً الى « ضرب خانات » وبذلك استطاعوا دفع ضرائبهم والقيام بتعهداتهم بالعملة المزيفة فزادت ثروتهم وانتهى الأمر بأن صارت خزانة الحكومة في موضع يقرب من الافلاس وانتشر الذعر في الأسواق واختل نظام المعاملات وقد كثرت انتشار عملة التانكا النحاسية التي اصطلح على اعتبارها كالفضة وتسكدست لدى السلطان حتى كانت من كثرتها

تبدو كالتلال وشوهدت مكدسة على هذا الشكل بعد مرور مئة عام في عهد مبارك شاه الثاني وعلى العموم فإن كثيراً من مشروعات هذا السلطان المثقف كان نصيبها الفشل مما جعله غير محبوب لدى رعاياه وكانت في الأزمان السابقة عرى التضامن لدى الولاة وثيقة حيثوا كانوا تقريباً كلهم من جنس واحد (أتراك) أما في عهد محمد بن تغلق فقد انقلبت الحالة وصار الولاة خليطاً من المجازفين الأجانب كالأفغان والفرس والخرسانيين والمغول الذين كان يصدق عليهم السلطان الكثير من هداياه الثمينة وكان الولاة في هذا العهد ينتقصهم الولاء الذي كان يتحلى به من حكموا قبلهم ولم يتملصوا للسلطان بل تمردوا عليه وكانوا سبباً في تحطيم امبراطوريته الواسعة فانه ما كان ينتهى من اخضاع فتنة في ولاية إلا وتشب فتن في ولايات أخرى واستمر في آخر أيامه يخضع الثورات المتعددة حتى أصيب بالحمى وهو على نهر الاندوس ومات على أثرها في سنة ١٣٥١ ولم يترك ولداً يرثه ولكن رؤساء جيشه اختاروا فيروز شاه ابن عمه للعرش .

فيروز شاه

تولى الحكم وعمره خمسة وأربعون سنة وكانت أمه هندوسية وتولى عمه العظيم تربيته ومما يؤثر عنه أنه حين ولي الحكم استدعى من أساء اليهم عمه وعوضهم واسترضاهم عما وقع عليهم من الاساءات والمظالم واستكتبهم اقراراً بأنهم تجاوزوا عن ما وقع عليهم ونسوا وغفروا له ما أوقع عليهم من الأذى ولما تم توقيعهم على شهادة الاستغفار لحمد بن تغلق فتح قبره ووضع هذه الصكوك عند جثته تقرباً الى الله في أن يغفر له ذنوبه وكان هذا العمل الجميل يدل على النفي والنبل والوفاء لعمه وكان فيروز على جانب عظيم من رقة الطبع ولين القلب ورحمته مما جعل جميع الهنود يتعلقون به وصارت أعوام حكمه عهد سعادة وسلام

وكان كسميه فيروز الخالجي يكره سفك الدماء والتعذيب وذلك من هول ما رآه في الحكم السابق وجاء في مذكراته عن نفسه أن الله الرحمن الرحيم علمه وأمره أن يتجنب أذى الناس وقتلهم سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين وقد كان من صفاته بغض الحروب ولم يكن قائداً ولذلك رضى بأن تستقل ولاية الديكان تحت رئاسة حسن جنجو مؤسس الأسرة الهمانية التي استمرت في الحكم مئة وثمانين عاماً وتغيب فيروز عن عاصمة ملكه عامين ونصف حينما حاول استرداد البنغال وبعد أن قتل منه مئة وثمانين ألف نفس عصاه قلبه الطيب أن يهاجم حصون إكدالا التي التجأ إليها ملك البنغال وكان سبب عدوله عن المهاجمة بعد أن سنحت له الفرصة في النجاح محض الرغبة في حقن دماء المسلمين وفي غزوة أخرى توجه جيشه الى الهند ونفقت كل خيوله وقادى أهوالاً كثيرة وانقطعت أخباره مدة طويلة عن دلهي اذ أنه ضل الطريق ولكنه تجلد واحتمل كثيراً من الصعاب وتمكن من تجهيز جيش جديد وعبر نهر الاندوس ونجح في غزو السند وحاصر الجام (الأمير) حتى اضطر أن يسلم من الجوع فأسره وتوجه به الى دلهي وأحاطه بكل احترام ورعاية ثم أسند الملك لولده وكانت هذه أهم غزواته التي انتصر فيها وغاب عن عاصمة ملكه ثلاثين شهراً وكان يقوم بأعباء الحكم رجل هندوسي من أسرة عريقة في مكاتها اعتنق الدين الاسلامي وسمى نفسه (مقبول خان) وكان فيروز يحبه كثيراً ويخاطبه بلقب (خان جهان) أي سيد العالم وكان يعطى لكل ولد يولد له ألف جنيه سنوياً كما أنه كان يهب لبناته وقت زواجهن هبات كبيرة ويمكنك أن تدرك مقدار البذل لقبول هذا اذا علمت أنه كان يقتنى ألفي جارية في سرايه من بينهم الرومية والصينية والفارسية ولكن الوزير كان يستحق كل اكرام لأنه أحسن القيام بأعباء الحكم في الأوقات المضطربة العصيبة خصوصاً التي تغيب فيها فيروز شاه وانه وان كانت

حدود امبراطوريته انكشيت الا أنها صارت أكثر صلاحية من حيث الحكم ونتائجه ومما مهد لذلك ما اتبعه الشاه ووزيره من الرأفة في معاملة الفلاحين حتى أن الديون التي سبق أن أقرضها محمد بن تغلق لرعيته أثناء عسره المالى أحضرت مستنداتهما وصكوكها وأحرقت أمام الجماهير اعلانا للجميع بأن الفلاح قد حرر مما عليه من ديون للحكومة . ثم ان مقبول خان نصح لسيده بتخفيض الضرائب حتى صارت لا تتجاوز تعاليم الشريعة الاسلامية وكل محاولة دون ذلك كانت تقابل بأشد العقاب فدخلت الطائنة على قلوب الفلاحين وازدادوا يسرا وامتلأت بيوتهم بكل أنواع الأرزاق من حبوب وخيول ومفروشات وكثير لسيهم الذهب والفضة وكانت كل امرأة لديها حلى ومصاغات حتى خيل أن حكومة دلهى ورعاياها خضت ببركة الله .

ومن صفات فيروز حبه للعبانى العظيمة وكثيراً ما شيد منها واتفق أن ولد له ولد سماه (فتح خان) فوضع أساس بلد بمناسبة ميلاده سماها (فتح آباد) (أى بلد الفتح) . ثم أنه حفر ترعا عديدة أوصل بها نهر الجمنا بنهر ستلج ولا زال منها القنال يغذى مدينة دلهى بالماء باقيا الى وقتنا هذا ومما رواه بعض المؤرخين أنه قام بأعمال عظيمة نافعة من أهمها الخزانات والقناطر والحمامات العامة والقلاع والمساجد والسكليات والملاجىء والخانات لراحة المسافرين والحجاج ولقد كان من أثر القنالات والترع التي شقها أن استطاع كثير من سكان الهند الحصول على محصولين فى عام بدل من محصول واحد سابقا . وبلغ من عنايته بالشؤون العامة أنه أناط بطائفة من المهندسين مباشرة جسور الأنهار وتقويتها دفعا لخطرها فى مواسم الأمطار وهو الذى شجع غرس الحدائق فى الهند وغرس منها ألف ومئتين حديقة .

ومن حسناته أنه أوقف مساحات واسعة من الأراضى كانت غلتها تقدر

بثلاث مليون من الجنيهات سنويا وخصصها للعلماء والتعليم الديني كما أنه أوقف أرضا أخرى يبلغ إيرادها مليون جنيه سنويا وكانت تنفق على العجزة والفقراء ومن أقعدتهم الشيخوخة ، كما أنه أوقف مساحة واسعة على طائفة من النبلاء مقابل قيامهم بحماية حدود الامبراطورية والقيام بإدارة شؤون الحكم داخل ولاياتهم . وكانت من التقاليد المتبعة أن يزوره زعماء المقاطعات سنويا ويقدمون له الهدايا من ذهب وفضة وخيول وفيلة وجمال وسلاح وغير ذلك . وكان على كل واحد منهم أن يقدم من عشرة الى مئة من الرقيق وكان هؤلاء الأرقاء يتلقون التعليم على نفقة السلطان فتمرن بعضهم على وظائف الديوان والفريق الأكبر يتلقى التعليم والنظام العسكري وبعض الفنون والحرف والصناعات وكان أربعون ألفا يؤدون وظيفة الحرس وكان عدد الأرقاء أو المماليك الذين يستخدمهم الملك لا يقل عادة عن مئة وثمانين ألفا ، ومما يروى عن فيروز أنه جلس على أيوان له يشرب الخمر وكان في حالة لا تتفق مع مركزه ودخل عليه فجأة « تترخان » أحد قواده فهبت حين وجد سيده على هذه الحال وأنكر عليه فعله وكان ذا دالة على السلطان وأقسم له أنه لن يذوق الخمر ما دام في الجيش ومع « تترخان » ، فحمد القائد ربه وذهب الى حال سبيله . وكثيرا ما كان السلطان فيروز يصغى الى نصائح رجال الدين وارشاداتهم ولذا لم يندفع وراء شهواته بالشكل الذي يخل بالكرامة أو الواجب وأجمع المؤرخون على أنه كان محبوبا من جميع رعاياه لأنه كثيرا ما عالج مساوئ الحكم ومنع السلب من طريق الجباية وخفف الضرائب وأدخل التحسين على وسائل الري ووسع الأسواق وقام بأعمال كثيرة أفسحت فرص العمل للعمال . وكان يسلك مسلك الوالد لرعيته فيعين المحتاجين ويساعد العاطلين ويصرح لمن وصل الى سن الشيخوخة أن يترك عمله مع استمراره في الاتفاق عليه وأنشأ مستشفيات لمداواة

جميع المرضى من كل الطبقات والطوائف بما فيهم الأجانب ولم يكن قاسيا على الهندوس بل عاملهم بالرفق غير أنه منع عبادة الأصنام والصور علنا وفرض ضريبة على البراهمة وكان يحافظ على فرائض الدين الاسلامي ويحافظ على الصوم والصلاة ويقوم بالاحتفالات العامة في الأعياد الدينية وزار كثيرا من المزارات كمسجد سلار مسعود وفي آخر أيام حياته ثارت عليه المتاعب الشديدة وذلك لفقده وزيره المحبوب وازداد حزنا حين فقد ولده فتح خان وهزه هذا المصاب هزة عنيفة وأسند الوزارة الى ابن وزيره السابق وسماه « خان جهات الثاني » أي سيد العالم الثاني فلما وقع الوزير الجديد تحت تأثير الوزير محمد ولي العهد رأى الملك أن يتنحى له عن العرش غير أن هذا الأمير لم يسلك مسلكا حسنا واندفع وراء الشهوات فأثار ذلك ثائرة المالك في دلهي فتقدم فيروز لاهباط الثورة واحباطها فلما وقع نظر الثوار عليه هدا كل شيء وهرب ولي العهد فعين السلطان حفيده « تعلق شاه الثاني » ابن « فتح خان » وزادت بفيروز الشيخوخة والضعف فمات سنة ١٣٨٨ عن تسعين سنة ولم يحكم الهنود ملك تمتع بمحبتهم كفيروز فانه لم يسلك ملك مسلكه في عدله وشفقته برعاياه وتقيده بفضائل الدين علاوة على ما أبداه من همة في التجديد وتشديد في الأعمال النافعة وقد جاء في مذكراته القصيرة التي تركها وصفا للوسائل التي اتخذها في مقاومة المروق عن الدين وكافة الأعمال الشريرة أنه بفضل الله تحاشى فعل الأذى واراقة الدماء وارتكاب المظالم وبعونه استطاع أن يبدى صفحته الطيبة من رفق ولين وعدل في الأحكام .

عهد الانحلال

العائنت الاقليمية

كان حكم فيروز شاه الطويل السعيد من شأنه تهدئة الثورات التي كانت

عادة عند الهنود في العهود السابقة وسبب هذا الهدوء في عهده ما كسبه من حب رعاياه واحترامهم له فلما مات نشأ جيل جديد لم يكن يعرف الأحكام القاسية والمعاملات الخسنة الشديدة التي وقعت في الأيام السابقة في عهد علاء الدين ومحمد تغلق . ولم يعتادوا أيضا الخوف ولا الهيبة منهم . ومن الوسائل التي اتبعها فيروز أثناء حكمه السابق وجعل جل اعتماده عليها في إعداد الجيوش اختيارهم من طائفة المماليك وكانت الأغلبية من الهندوس الذي غير كثير منهم دينهم ظاهراً ولكنهم كانوا يدينون بالولاء لفيروز لحسن معاملته لهم ، لكنهم لم يشعروا بنفس هذا الشعور خلفه وهو حفيده « تغلق الثاني » إذ كان طائفاً منهم كما في الشهوات والخمور فتألب عليه الأمراء والمماليك وقتلوه قبل أن يتم خمسة شهور في الحكم وتلييه في الحكم حفيد آخر اسمه أبو بكر ولكن نازعه في العرش عمه محمد الذي سبق أن فر من ثورة المماليك في حياة والده فاكتفى وقتها بحكم مقاطعة في البنجاب وبعد عدة محاولات فشل في بعضها عاد فنجح في دخول دلهي سنة ١٣٩٠ وحكم لمدة أربعة أعوام كانت كلها اضطرابات حيث ثار ضده الهندوس ومات وخلفه في الحكم ابنه همايون الذي لقب نفسه بالأسكندر ومات بعد أن حكم ستة أسابيع وجلس بعده على العرش أخوه محمود من سنة ١٣٩٤ الى سنة ١٤١٢ الا أن عرشه لم يكن ثابتاً فكان يقيم أحياناً في دلهي وأحياناً يضطر الى الفرار الى « كانوج » وكان ابن عمه نصرت شاه ابن فتح خان يناوئه وكان كلا الملوكين ألعوبة في أيدي الأمراء ذوي المطامع السياسية وهكذا وصلت مدينة دلهي الى حالة مضطربة ثم باغتها تيمور خان باثني وعشرين (أورطة) كل (أورطة) منها تحوى ألف خيال وكان هذا الغازي ذائع الصيت في كل أنحاء العالم للأعمال الحربية العظيمة التي قام بها حيث غزت جيوشه أواسط آسيا والعراق والعجم والأفغان وآسيا الصغرى وقبل أن يدخل الهند

عرض فكرته على مجلسه الحربى فوجد الكثير من أعضائه يحاول اقناعه بالعدول عن هذا المشروع لما يعترضه من الصعاب والأخطار اذ كان المفروض على جيش يقوم بهذه المأمورية الشاقة أن يعبر خمسة أنهر عظيمة ويخترق غابات كثيفة ويصادم محاربين ذوى مراس وجلد خصوصا فى الغابات وكذلك ملاقات الأفيال المجهزة بأسلحة مسمومة ولكن الفريق الآخر أشار عليه بعدم التردد واستشهدوا بما سبق أن فعله محمود غزنوى (محطم الأصنام) بقوة تقل عن جيشه بكثير وأيدهم فى هذا رأى أولاد تيمور ورجال الدين فاعتمد الفكرة الأخيرة وقد جاء فى مذكرات تيمور أن الباعث على غزو الهند هو (محض الرغبة فى محاربة الكفار ونشر الدين الحق طبقا لما جاءت به تعاليم محمد صلاة الله وسلامه عليه وعلى آله ولتطهير البلاد من رجس الكافرين ولتحطيم أصنامهم وهدم معابدهم ولكى نصير غزاة ومجاهدين وقادة لجيوش المؤمنين) .

وعلى ذلك تقدمت طلائع جيشه تحت قيادة حفيده بير محمد الذى اخترق كابل وقصد نهر الاندوس فى نهاية سنة ١٣٩٧ وحاصر مدينة ملتان . وفى أوائل سنة ١٣٩٨ سبقه تيمور واخترق الجبال ذات الثلوج المتراكمة والصخور الشديدة الانحدار وظل فى سيره بعد أن قطع غورا ووديانا وعبر نهر شيناب بعد أن وضع عليه السكبارى العائمة وأدرك حفيده بعد ما تم احتلال ملتان ثم سار شرقا وانتشر عن جيشه السير الخفيفة اذ كان يسلب ويقتل كل من قابله من الأهالى ولذلك فر سكان (ديلابور) ولجأوا الى قلعة بهات نير فى راجبوت ليحتموا فيها فطوقها تيمور وذبح بها عشرة آلاف هندوسى فى ساعة واحدة وكان كلما سار وقصد بلدا وجدها خاوية لفرار سكانها فانه قصد سيرسوتى وفتح آباد فلم يجد بها أحدا وهام الناس فى الاحراش والغابات . وفى أواخر سنة ١٣٩٨ وصل الى سهل بانيبات على بعد أربعين ميلا من دلهى ولكن لم يقف فى وجهه

رجل واحد فبعد أسبوع وقف أمام حصون دلهى وفى سبعة عشر ديسمبر سنة ١٣٩٨ عبر نهر الجنا ووزع شعابا من الحديد على عسكره ليدافعوا بها الأفيال وكان تحت أسره مئة ألف هندوسى فرأى أنه ليس من الحزم تركهم أحياء وقت حدوث الموقعة فأمر بذبحهم جميعا . ثم هاجم مدينة دلهى فقابله للدفاع عنها السلطان محمود وقائده إقبال خان ومعهما عشرة آلاف خيال وأربعون ألف جندى (زيادة) ومئة وخمسة وعشرون فيلا وقد بذل الهنود شجاعة فائقة ولكنها لم تنفع أمام تيمور لمهارته فى القيادة وضخامة جيشه فى العدد . فلما رأى السلطان وقائده أن الدائرة دارت عليهم فروا بأفيالهم الى داخل المدينة ثم هربوا بعدها الى الجبال واعتصموا فيها فدخل تيمور المدينة وصلى ركعتين لله حمدا بجانب قبر فيروز فجاء اليه قادة الجيش المتهور وقدموا خضوعهم له واحتراما لرجاء العلماء قبل الفدية عن السكان وعافاهم من المذبحة والسلب كهادته ولكن للأسف لم تتحقق هذه الطريقة السلمية لنزاع وقع بين الذين يحصلون الفدية وبين دافعيها علاوة على أنه كان من الصعب كبسج جماع جيش من التتار اعتاد فى كل وقائعه الاستحواذ على الغنائم والاسلاب ولذا وقعت المدينة تحت فوضى السلب والنهب واسترقاق السكان لمدة ثلاثة أيام وكان مما أعجب تيمور ضخامة البناء وحسن بهائه فأرسل كثيرا من الصناع وأرباب الحرف والفنون من سكان دلهى ليذهبوا الى سمرقند لينتفع بمواهبهم هناك وكان مما استحوذ عليه تيمور كل ما فى البلد من أحجار ثمينة وذهب وفضة وحرار ولم يعف من سكان دلهى الا القسم الذى كانت تقيم به عائلات الأشراف (أقارب النبى) والعلماء ، ومما قال تيمور أنه قال أن لا تمس دلهى بسوء ولكن ارادة الله قضت أن يقع الشقاء على البلد وبعد اقامة تيمور فى دلهى نصف شهر خرج ليم الغزو الذى كان يعتبره فى سبيل الله وهاجم عدة مدن منها ميراث وفيروز آباد وأساء معاملته أهلها وذبح كثيرا من

الرجال والنساء والأطفال وكان مما خفف ويلات الهند من غزوته أن نفسه تآقت للرجوع الى سمرقند ولولم يكن ذلك لاحتياج الهند بأكلها وتضاعف ضرر غزوه وعلى العموم فإن وادى الأندوس والجنجيز واقليم البنجاب وهى المناطق التى حارب فيها وقعت فيها المجاعات الشديدة والخراب التام . ولم يبرحها الا بعد أن قتل الآلاف من (الكفار) واستحوذ على كل ثمين فيها وبذلك رأى أنه أدى الفرض الدينى والفرض الدينوى من الغزوة ولما ترك غضب الله (كما كان يسمى تيمور) بلاد الهند ابتداءً الهنود يظهرون من مخابهم كما لو كانوا أرباباً أمنوا من الصياد

والذى يتبع سيرة تيمورخان وسيرة ما كان يذكره من الغيرة على الدين الاسلامى والبغض للكافرين تتملكه الحيرة والدهشة إذ أن الملمين بتاريخه يعرفون أن أكثر البلاد التى أثار عليها حرباً وسعى فيها فساداً وتخريباً بلاد معظمها اسلامية أو تحت حكم المسلمين فآسيا الصغرى والشام والعراق والعجم والأفغان وبعض الولايات الهندية كانت اسلامية ديناً وحكماً ولم تنكس هذه البلاد نكبة فظيعة كادت تقضى على كل ما هو اسلامى الا فى عهد تيمور المتبجح بالغيرة على الاسلام وليس بمعجيب أن يظن الكثير أن تيمور كان كافراً فإن ما ارتكبه ضد الانسانية يخرججه عن كل دين

نعود الى الهند فنجد أن اقبال خان فرض حكمه على دلهى ومنع السلطان محمود أن يعود اليها فأقام له حكومة فى كانوج . ولما مات اقبال خان فى موقعة بينه وبين خضر خان الوالى لملتان من قبل السلطان محمود عاد السلطان الى عاصمة ملكه وقد ضاقت مساحته كثيراً عن ذى قبل بسبب قيام ثورات من الهندوس انفصل بسببها بعض الأقاليم ومات السلطان التعس فى سنة ١٤١٢ بعد نضال مستمر مع أتباعه السابقين وفى خلال سنتين استطاع نائبه خضر خان (أى فى

سنة ١٤١٤) أن يحكم في دلهي كوكيل لتييمور فانه أراد بذلك أن يأمن جانب
الأمراء الذين كان يحتمل أن ينازعوه . وبذلك استطاع أن يؤسس عائلة
الإشراف (السيد) . وقد تربع منهم في الحكم أربعة كانت مدتهم لا ينقطع
فيها القتال أو الثورات وكان نفوذهم ضئيلا لم يعد منطقة ضيقة المساحة حول
دلهي . ولم يكن في مقدورهم جباية الضرائب لضعف سلطتهم فكانوا يلجأون
الى الخيلة وتفككت الامبراطورية العظيمة وصارت أجزاء البعض يحكم فيه
الهندوس والبعض يحكم فيه المسلمون وكلهم يعملون ضد بعضهم مما جعل هذا
العهد من الحكم كقطع الليل الأسود اذ كان يسود فيه النزاع والخصام والدسائس
وتفرقت السكينة وتضعضع نفوذ المسلمين وعانت سلطة الهندوس حتى خيف على
الحكم الاسلامي أن يستهدف للزوال واختفى ما كان للغزاة السابقين من سطوة
وهيبة في قلوب الهندوسى وانتقل الحكم من عائلة الأشراف بعد أن قتل مبارك
شاه بواسطة وزيره مما مهد السبيل الى عائلة «لودى الافغانية» وعلى رأسها السلطان
بهلول الذى غزا دلهي سنة ١٤٥١ وقد أعاد حكم هذه العائلة شيئا من رونق
الحكم السابق وسطوته ورد لدلهي شيئا من رونقها وعظمتها وكانت وقتها باقى
بلاد الهند منقسمة لولايات صغيرة لم يكن لها تاريخ جدير بالذكر اللهم الا فى
شدة انحطاطها فى ذلك الحين .

وقبل أن يصير بهلول ملكا كان تاجر خيل واتفق أن باع عددا كبيرا منها الى
أحد ملوك دلهي السابقين فأعطاه التزاما (جاجيرا) (مساحة من الارض تحوى
قرى) ليستوفى من ضرائبها ثمن الخيل فكان سببا فى اتساع ثروته واتفق له أن
مر على أحد الدراويش (طائفة من فقراء وصلحاء المسلمين يعتقد بعض الناس
فيهم) صحبة صديقين له فابتدروهم الدراويش من منكم يشتري منى عرش
دلهي بألفى تانسكا (عملة فضية) فما كان من مالك بهلول الا أن أخرج

الف وثلثمائة تانكا وهى كل ما كان معه ووضعها أمام الدرويش وقال له « هذا كل ما أملك » فقبل الدرويش العطاء وقال له « أرجو أن تسعد أمبراطورية دلهى فى عهد حكمك » فسخر من ذلك صديقه ورمياه بالتخريف فقال لهما بهلول « لن تحقق وعد الدوريش فأنى أكون قد ربحت صفقة طيبة واذا لم يتحقق فأنما يكون المبلغ الذى دفعته صدقة لا أحرم أجرها عند الله »

وكانت مكانة بهلول ترتفع شيئا فشيئا الى أن بدأ يطمح فى الملك وكان يخشى من حامد خان منافسه . وفى يوم من الأيام دعا حامد كثيرا من الأشراف الى وليمة ومن بينهم بهلول (لم يكن ملكا وقتها) وكان من عادته أن يستصحب معه حاشيته من الأفغان لحراسته كلما انتقل ففكر أن يباغت حامدا بهم ولكى لا يثير شكوكه وخاوفه أفهمهم أن يتصنعوا فى مظهرهم ما يدل على البلاهة والبساطة فعلق بعضهم أحذيتهم فى رقابهم وظهروا بمظاهر غير العقلاء فدهش حامد لذلك وحينما أدخل الشرفاء الى المحل المعد للوليمة دخل الافغان صاخبين محتجين على منعهم وسألوا حامدا لماذا يمنعون ويدخل سيدهم مع أن حامدا سيد الجميع فابتسم حامد وخدع بظاهر بساطتهم وأمر أن لا يتعرض لهم أحد ولما دخلوا الحجرة وجدوا أبسطة ذات ألوان حمراء فرجوا حامدا أن يقسمها بينهم ليستعملوها بطاطين وليسأوا قطعا منها لمواطنيهم كتدكار فازداد بهم سرورا وقال « انى سأعطيكم هدايا أحسن منها بكثير » واستمروا فى خدائعهم الى أن ارتاح اليهم كل الارتياح . وفى الوقت الذى خرج فيه المدعوون من الوليمة يصحبهم الكثير من رجال حامد خان تخلف الأفغان اتماما لمكيدتهم فقام « قطب لودى » أحد أفراد عائلة بهلول وكان معهم وأخرج سلسلة من المعدن ووضعها فى رقبة حامد وقال له : « خير لك أن تتنحى عن الخدمة العامة وبما أننى أكلت معك ملحاً فلن أتعرض لك بأذى وقبض عليه وسلمه الى حاشية بهلول فصارت الفرصة سانحة لتسلم العرش فاتتهزها بهلول لودى .

بہلول لودی خان

۱۴۵۱ - ۱۴۸۸

كان حكمه موقفاً سعيداً ، وأجمع المؤرخون على امتداح خصاله حيث راعى العدل في أحكامه وعامل حاشيته كما لو كانوا من زملائه لا من رعاياه ، وكان يتجنب الجلوس على كرسى العرش لتواضعه وكان يكن التظاهر بالعظمة ويجب مجالسة العلماء ويكثر من منحهم الهبات والعطايا . وجعل اعتماده في الحروب على جيش من المغول يبلغ عدده عشرين ألف وكانوا موضع عنايته وحبه ، ومما يؤثر عنه شدة رعايته لإدارة الأحكام وصرف أيام حكمه في حروب كثيرة مع مملكة « جاونبور » أى المملكة الشرقية وكان الحد الفاصل تقريباً بين مملكة دلهى وجاونبور هو نهر الجانجيز .

وكان من صفات بهلول العناية بالشئون الدينية والشجاعة والكرم وشدة الاهتمام بتنفيذ القوانين ، واعتاد أن يصرف وقته مع الرجال العقلاء ورؤساء الدين مع كثرة الاستفهام عن الفقراء والمحتاجين ليدهم باعاناته ومساعداته ، وكان لا يرد سائلاً ، ويصلى دائماً مع الجماهير ، وصرف كل ما آل إليه من مال على الجند والفقراء واعتاد أن لا يدخر شيئاً ، وكان يجلس مع رعاياه كأحدهم ولوحظ في مكاتباته شدة احترامه لمن يكتب من الأشراف وكان يوجه لهم الاصطلاح المعروف (مسند على) (وهى عبارة احترام بالفارسية) وإذا عرف أن أحد أعوانه انحرف عنه ذهب إليه وأظهر أقصى درجات التواضع من جانبه حتى يعيد القلوب النافرة منه الى محبته . وكان يواسى الكثير من المرضى ولم يهزم طول حياته فى موقعة من مواقعه الحربية ولما مات تولى بعده ابنه .

السلطان اسكندر لودى

وكان اسمه سابقا نظام خان وقد جاء فى تاريخ الداودى أن السلطان
أسكندر فكر فى ذبح الهندوس الذين يكثر تجمع الآلاف الكثيرة منهم فى
مولد تانيسوار فنصح له أحد حاشيته قبل الاقدام على ذلك أن يشاور العلماء فلما
أخذ رأيهم نهوه عن ذلك فأنهى وجاء أيضا أنه كان متعلما وذا أخلاق هادئة
ميالا للأحسان والسخاء ويكره التجبر والكبرياء وينفر من تقريب كل واحد
منه لم يشتهر بحسن السيرة ولم يكن يجالس إلا العلماء والفضلاء ويخشى الله كثيرا
وكان كبير الاهتمام بتطبيق العدالة ويعمل كل ما يعود على رعيته بالسعادة والخير
ويقطع طول الليل فى إدارة شؤون ملكه وينام فى منتصف النهار قليلا . وشيد
عدة جوامع ومنع إقامة الموالد منعاً باتا لما كان ينتشر من الفساد باقامتها وكذلك
حرم على النساء زيارة المقابر والاقامة حولها . وقبل أن يموت اسكندر نجح فى
إعادة الولايات التى كانت قد فقدتها حكومة دلهى وأعاد اليها مجدها القديم
ولكن مما يلاحظ أن عائلة لودى عادت فى حكم الولايات الكثيرة الى ضباط من
الأفغان والى بعض الأمراء من عائلة لودى والعنصر الأفغانى يتوق دائما الى الحرية
الفردية والاستقلال ومن صفاته أنه يخضع للقوة أكثر من القانون ولذلك أدى
الأمر الى أن يسود فى هذه الامبراطورية حكم الأفراد أكثر من حكم القانون
العام ، بل كاد كل فرد من الولاة أن يكون مستقلا بولاياته وكانت شدة تواضع
اسكندر هى السبب الأساسى الذى أبقى على رابطة هؤلاء الولاة وانقيادهم الى
ملكهم ، إلا أنه مات سنة ١٥١٧

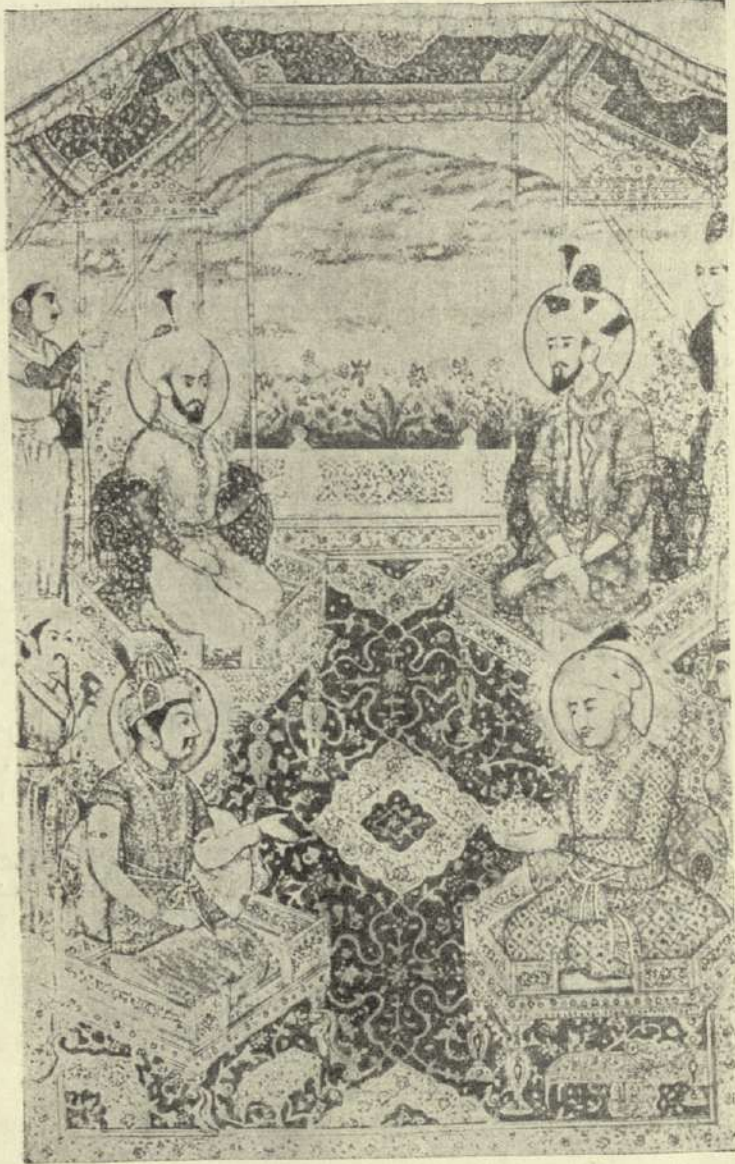
ابراهيم لودي

ولى الحكم سنة ١٥١٧ وكانت أخلاقه مغايرة لأخلاق أبيه بالمرّة وقد جاء في تاريخ الداوودى أن حاجات المعيشة فى أيامه كانت رخيصة ووافرة وكانت الغلال والثياب وأشياء أخرى متنوعة قد بلغت مستوى رخيصا لم يحصل أن بلغته فى عهد من العهود قبل حكمه إلا اذا استثنى عهد السلطان «علاء الدين الخلجى» ومع ذلك فى عهد علاء الدين كان السعر مخفضا لا بطبيعته بل بسلطة القانون والادارة أما سبب رخص الأشياء فى عهد ابراهيم فيرجع الى أسباب طبيعية فان الأمطار فى الهند تصادف أن انتظم نزولها بالمقادير التى يصلح بها الزرع كثيرا فكان عهداً مباركاً للفلاحين غير أن هذه البركة فى الأرزاق لم تقترن معها أحكام مباركة ، بل كانت أيام ابراهيم مصحوبة بالقلق المستمر وصدور الأحكام القاسية وكان سوء ظن ابراهيم لودى فى كثير من ولااته وحاشيته سببا فى هلاك كثير منهم فقد قتل عددا لا يستهان به خصوصا من أقاربه وكان للملك أخ اسمه جلال خان يحكم فى ولاية اسمها جادينور ووقع بينهما الخصام واستفحل أمر جلال حتى احتل مدينة أجرا (عليكرة) — ولكن حاكمها مالك آدم خان أصلح بينه وبين أخيه وأقنعه بالرجوع عن خطته ووعد به بأن يضيف اليه مقاطعة صغيرة بجانبه ولكن الملك رفض شروط الصلح وحرص عليه قبيلة الجوند فأوقعته فى شراكها وسلمته للسلطان ابراهيم فأعدمه فى الحال وكان الملك قد حنق أيضا على وزيره ميان بهوا فاتفق على أن يدبر له مؤامرة فظيعة فأمر بأعداد بناء جديد وأوجد تحته سردابا فى الأرض وملاؤه بأكياس من البارود ثم لما أتم كل هذا أظهر رضاه عن ميان ودعاه اليه وأحاطه بكل أنواع الاحترام والتكريم ثم أوعز اليه أن يصطحب معه فريقا من الاشراف (من يضمهم لهم الملك الكراهية) وأن يتوجهوا الى البناء الجديد وينفردوا بالنظر

في أمر اسلام خان وهو أحد قواده الذين شقوا عليه عصا الطاعة وقال لهم أن يعالجوا مسألة اسلام خان العاصي بما يتراءى لهم وبعد أن يجمعوا على رأى يتقدموا به لينفذه ونظرا لما أظهره نحوهم من الاحترام توجهوا جميعا دون أن يتطرق اليهم الشك وجلسوا في البناء الجديد للتداول فيما أنيط بهم وأشعل البارود عقب دخولهم وانفجر البناء وأطار المسكان ومن فيه في الهواء ولم يسلم أحد منهم بل طارت أجسامهم قطعاً وأشلاء وكان أكبر مستشار مؤتمن لابراهيم شاه وزيره أعظم همايون ولكنه قتل بمجرد الشك فيه اذ وضع في السجن وأسقوه كأس سم فقتل عليه ولا زال السلطان ابراهيم يشك في حاشيته حتى استأصل شافة معظمهم ثم تحول الى الولاية فبدأ يعيدهم واحداً واحداً وكان من أكبر ولايته دولت لودی خان حاكم البنجاب فاستدعاه الملك فتخلف وأرسل ولده ديلاور خان بدلا عنه فلما سئل عن تخلف والده قال أن ذلك يرجع لانهما كه في إعداد هدايا عظيمة عزم على التشرف بتقديمها فأمر الملك بأخذ دلاور الى حبر السجون فوجد بعض الأعيان وقد علقت أجسامهم حيث كانت أرجلهم من الأعلى ورؤوسهم نحو الأرض فاستولى عليه الرعب وتحایل حتى هرب وذهب لوالده وحذره من الملك وقال له أنه اذا لم يتخذ الحيطة فسيكون مآله الهلاك فما كان من أبيه الا أن أوفده الى بابر شاه حاكم أفغان وما وراء النهر ليحضر للهند وينقذها من المذابح ويتولى حكمها .

حكم المغول

بالشاه بابر يبدأ حكم المغول المشهور في الهند ولكن قبل التعرض لذكره
يحسن أن نشير إلى حال الولايات الجنوبية كالديكان في عهد الملك فيروز الذي



الملك بابر وهمايون وأكبر ومهرانجين

كان يبغض سفك الدماء وخصوصا دماء المسلمين رأى أحد المجازفين حسن جنججو يطمع في الاستئثار بحكم الديكان وكان ذلك سنة ١٣٥٣ فتغاضى الملك وبذلك بدأ حكم العائلة البهمانية في الديكان واستمر يتداوله أفراد منها لمدة مائة وثمانين سنة ويبدو أن حكمهم كان قويا الى درجة جعلت جيранهم يهابونهم هيبة كبيرة . ولقد حاول ملوك دهلئ أن يتوسعوا في الجنوب حول الديكان فلم يصيبوا نجاحا يذكر وكانت مملكة الكارنتك الهندوسية تقف في وجه دهلئ ولا تمكنها من غرضها ، فلما حكم ملوك البهمانية المسلمون تغير الحال واضطروا هذه المملكة الهندوسية الى دفع الجزية لهم بل والرضوخ الى أحكامهم ولكن في سنة ١٣٦٦ خرج الراجا الهندوسى يقود ثلاثين الف خيال ومائة الف جندى من المشاة وثلاثة آلاف فيل وقصد قلعة مكدال لاغتصابها من المسلمين فنجح في خطته وذبح كل مسلم بها وكان حسن جنججو يعسكر على نهر هنك ، فلما علم أقسم أنه لن يأكل أو يذوق النوم حتى ينتقم للمسلمين من الراجا فاقتفى أثره فهرب تاركا وراءه سبعين الفا فقتلهم محمد بن حسن جنججو ولم يكن لدى أمراء البهمانية مستودع رحمة فكثيرا ما كانوا يفتككون بالمجاورين لهم من الهندوس وكان من عادة البهمانية أنه كلما بلغ عدد القتلى من الكفار عشرين الفا أقاموا لذلك عيدا واحتفلوا بهذه المناسبة ومما قام به محمد بن حسن البهمانئ أنه قصد الى عاصمة الكارنتك وقتل نحو نصف مليون من الأنفس ومن الوقائع التى أثارها البهمانية موقعة قصد فيها الملك مجاهد ابن محمد سنة ١٣٧٨ لا متلاك « بنكاپور » فاضطر الراجا الى الفرار من مكان الى مكان وعاد مجاهد بأسرى يبلغ عددهم ستين ألفا ولكن أثناء رجوعه تربص له عمه داود وقتله طمعا فى العرش ولكن هذه الحادثة لم تؤثر على مركز مسلمئ الجنوب لاعتيادهم التضامن أمام الهندوس ويكونون كتلة واحدة ، وكان شر مالقيته الهندوس فى عهد الملك فيروز بن داود وذلك حينما عاود الهندوس الكرة لا متلاك مكدال

ففيها قام أحد القضاة مع بعض أصدقائه ومثل شكل البنات اللأئي يرقصن في معسكر العدو واندس بينهم ومعه بعض أعوانه واستعمل الخيلة الى أن جاء أمام ابن الملك ورقص رقصة السيف المألوفة لديهم ثم أخرج ومن معه خلسة خناجرهم وغمسوها في صدره فاضطرب المعسكر الهندوسى وظن أن كميناً يحيط به فأدت هذه الحادثة الى هروب الراجا وجيشه وانهزموا بذلك هزيمة فظيعة ولم يعتمد فيروز بن داود بالصلح معهم إلا بعد أن تعهدوا بدفع جزية قدرها أربعمئة ألف من الجنيهات سنويا ولكن في سنة ١٤٠٦ امتنعوا عن دفع الجزية السنوية فغزا فيروز مملكة الكارتك وكان من بين الأسباب التي عجلت بهذه الغزوة أن الراجا افتتن بفتاة في مكداال فقصدها للاستحواذ عليها فعلم أنها فرت وعلم أيضا أن جيش المسلمين يقتفى أثره وأن فيروز احتل بنكاپور التي عجز أسلافه عن احتلالها ولم يعد الى بلاده قبل أن يكبد الراجا خسارة بلغت ستين ألف نفس وأرغم الراجا أيضا أن يسلم إحدى بناته لتصبح ضمن حرم فيروز وكانت هذه معاملة نهاية في الهوان للملك هندوسى كبير ولا زالت تقع الحروب بين الهندوس وأسرة البهمانية ففي سنة ١٤١٩ وسنة ١٤٢٣ وسنة ١٤٣٥ وسنة ١٤٤٣ وقعت عدة حروب ما زال النصر فيها للبهمانية وكانت كلها مقرونة بالمذابح وهدم معابد البراهمة ومبانيهم الشهيرة وكانت تنتهى بتقديم فروض الطاعة من الهندوس لخصومهم واستمر النصر في جانب البهمانية الى أن انقسموا على بعضهم وتجزأت مملكتهم الى أربعة ممالك صغيرة فأذهب ذلك من هيبتهم ومن بأسهم فكأنهم كانوا على ميعاد مع المسلمين في الشمال اذ ظهر التضعضع والتقهر في هندوستان والهند الجنوبية وبهذا تمهد السبيل الى حكم المغول غير أنه لا بد قبل التعرض له من اثبات حادثة تشير الى وجود ارتباط بين الهنود ومصر وان ذكرها يعود بالفائدة اذ يعرف

المصريون والعرب قاطبة مزايا تضامن الشعوب الاسلامية أولا ، وثانيا يقفون على آية من آيات الهم لمملوك مصرى استطاع أن يوجد لمصر قوة بحرية ذات صولة كان يحسب لها حساب كبير عند الأمم الأوربية ففى أواخر القرن الخامس عشر كانت تجارة مصر واسعة النطاق مع الهند وكانت مصر منفذا للبضائع التى يصدرها الهنود الى أوروبا . ومن أجل ذلك حرصت مصر على أن يكون لها أسطول تجارى وآخر حربى لصيانة التجارة من القرصان والخصوم المنافسين كالبرتغال ، وكانت هذه الدولة البحرية قد ابتدأت هى وغيرها كجمهورية البندقية بالاعتداء على المراكب المصرية فشكا قنصوه الغورى حاكم مصر وقتئذ الى البابا ثم أحتج اليه فلم تفد الشكوى ولم ينفع الاحتجاج وكانت حكومة جوجيرات الهندية بدأت تشكو من سوء معاملة البرتغال واعتدائهم على سواحلها ومتاجرها فرأى قنصوه الغورى أن الحال تدعو لتأديب البرتغال فأعلم بهادر خان باستعداده لمساعدته ضد الخصم الأوربى وأوفد أسطولا حربيا تحت قيادة الأميرال حسين فوصل سواحل الهند وانضم الى الأسطول الهندى رغم ما حاوله البرتغال من الحيلولة دون ذلك والتحمت المراكب المصرية مع أسطول البرتغال تحت قيادة لورنسو الميدا وحوصرت مراكب القيادة البرتغالية وقتل قائدها وغرقت بمن فيها وتشتت أسطول العدو بعد ما لحقته خسائر شديدة وكان ذلك فى سنة ١٥٠٨ وهذه الذكرى تجعل كل من يعرفها يدرك أن ما يتمسّدق به الجيل الحاضر من ذكر النهضة والنهوض هو حصة واهية مما يجب أن يقوم به أبناء الوطن فى سبيل رفعة وإن عهد كعهد ابراهيم أو الظاهر بيبرس إذا قيس بهذا العهد الحاضر لبدا لنا أن مصر لم تزل بعيدة عن الطريق الصحيح بل ما زالت سائرة على غير هدى وهيئات أن يتحقق لها . أمل أو يتم لها عمل خصوصا إذا كان جسيما ما لم تبرزه ارادات الجبابرة الذين يآلفون الشدائد ويخوضون غمارها ويملكون نفوسهم

بضبط شهواتهم والزهد في الترف حتى تتركز الحياة القومية على أسس صالحة وحتى تقوم طائفة منا تنهض بكل القوى العاملة وأن تكون أعمالنا لأنفسنا دون أعمالنا لوطننا وأن تقدم مصالح الجماعات على مصالح الأفراد وأن يكون العمل خالصا لله وللوطن وأن تتجرد النفوس عن الهوى

ذكرنا هذه العبارة المختصرة التي جاء ذكرها بسبب ما قام به الأسطول المصري ولما كان الموضوع الذي نحن بصددده هو تاريخ الهند الاسلامي وجب أن نعود الي ما كنا فيه ونبدأ بشرح تاريخ المغول

تاريخ المغول

قد ينشأ الانسان ضعيفا ويبقى ضعيفا أو ضعيفا ثم يقوى أو قويا ثم يضعف وحالة رجال الحكم في الهند لا تعدو احدى هذه الحالات فلما جاء الغزو التركي والأفغانى من الشمال ظهر قويا وازداد قوة واتسع نفوذا وكثر أعوانا وازداد مالا ورجالا وانتشرت سطوته وعلت كلمته وكان القائمون بالأمر من طائفة يحرصون على الموت في سبيل مجدهم ويقدمون عليه في ظهور عصبتهم فلما وصلوا الى ذروة العلا وكثرت أموالهم جنحوا الى الراحة ثم الى النعيم وانغمسوا في الشهوات فبعد أن كانوا أفلحوا في غزو أنفسهم فغزوا العالم عاد شيطان النفس وسلطان الهوى فغزاهم فنال من أخلاقهم وقوتهم وتحلوا وتفرقوا ودب بينهم ديب النزاع وانقسموا شيئا فانتهدت أيام عزهم ونسكت رايات مجدهم وظهرت لهم خصوم كانوا في الخفاء فأبرزتهم الظروف ومهد لهم ضعف القائمين بالأمر أن يرثوا عروشهم وبرز نجم جديد في التاريخ الاسلامي الهندي على يد بابر شاه أول حاكم مغولى أقام بالهند .

حكم بابر شاه

دخل بابر شاه الهند في سنة ١٥٢٥ وكان ذلك بناء على ترغيب دولت خان أحد ولاية السلطان ابراهيم لودي والذي كان يخشى أن يفتك به السلطان كما فعل بالكثيرين غيره وأرسل بابر شاه جيشا تحت قيادة ابنه همايون ومساعدة قائد من أخلص القواد اسمه خوجه قالان ولكن دولت خان نكث العهد الذي قطعه على نفسه الى بابر شاه وانقلب على عقبيه وعارض جيش همايون وكان دولت عاهد نفسه أن يفوز أو يموت فلما انكشفت حقيقته أسرع بابر في نجدة ابنه وحضر له على رأس جيش صغير ولكن بمجرد وصوله ذاب جيش الهند وتشتت وحداته فاستمر بابر شاه في تقدمه الى أن وصل سنة ١٥٢٦ الى سهل بينات الذي فيه كسب ثلاثة أفراد عرش دلهي على أثر مواقع قاموا بها وكان ثالثهم بابر الذي مكث عدة أيام في تجهيز جيشه وإعداده للمعركة الفاصلة أمام قوات دلهي فخرج السلطان ابراهيم لودي بمئة ألف مقاتل ومئة فيل ولكن كثرة الجنود لا يستغنى بها أحيانا عن حسن القيادة فان بابر استطاع سرا أن يضع قوة في مؤخرة جيش ابراهيم أزاء جناحي الجيش ولما اندفع جيش الهند في الهجوم بوغت من الخلف بحركة التفاف وبالمدفعية من الأمام فدخل الفشل صفوفه وتفرق الجند هاربين ومما ساعد بابر على الانتصار أنه استصحب معه قطعاً من المدفعية الحديثة وقتئذ وكان يديرها اثنان من مهرة الأتراك وهما أستاذ على مدير المدفعية ومعاونيه مصطفى الطنجي وفي منتصف النهار سقط السلطان ابراهيم وسقط من جيشه خمسة عشر ألف جندي قتلى وقطعت رأس السلطان وتقهقر جيشه وجلب كثير من الأسرى والغنائم أمام بابر شاه وكذلك بعض الأفيال ودخلت فصيلتان من الغزاة الى مدينة دلهي ونادوا ببابر شاه امبراطورا على الهند في ٢٧ ابريل سنة ١٦٢٥ وخطب باسمه في المساجد ولقب بالمغول العظيم

واستحوذ في دلهي وأجرا على كنوز الملك السابق وكانت كثيرة فوزع جزءا كبيرا منها على ضباطه حيث خص الواحد منهم ألف وسبعمئة دينار ومن الطبقة



بابر شاه

العليا الفين وثمانئة جنيه علاوة على عشرين ألف أعطاها مكافأة الى ابنه همايون لما أظهره من الشجاعة النادرة وأعطى كل جنوده بسخاء وبالغ في ذلك حتى شمل طبقات العمال والتجار الذين يلازمون الجيش عادة كما أنه أرسل لكل رجل

ولكل امرأة ولكل عبد ولكل حرة في كابل قطعة من الفضة هدية من
الأمبراطور الجديد الى رعاياه في كابل كتذكار للمناسبة السارة . ولما جاءه
هاميون وقدم له الجوهرة المشهورة في تاج دلهي وهي كوهي النور (جبل النور)
فردها له متجاوزا عنها وهي أثمن جواهر العالم وقدر ثمنها أحد الخبراء الفرنسيين
بثمانئة وثمانين ألفا من الجنيهات وقد انتقلت هذه الجوهرة الثينة من مملكة الى
مملكة ومن الشرق الى الغرب ومن تاج ملك الى آخر فكانت في تاج راجا
جواليار ثم توارثها ملوك المغول في الهند ثم نادر شاه العجم وأخيراً ملك الانجليز
وأمبراطور الهند الحالي . انتقلت هذه الجوهرة الى كل هؤلاء ولا يدري إلا الله
ماذا يكون مآلها في المستقبل . نترك سيرة الجوهرة لنرجع الى بابر شاه الذي
أعطى كل من حوله الجزء الأكبر من جواهر الهند التي استولى عليها بعد مواعمه
الحربية ولم يكن هذا التصرف عن سخاء فقط بل لأنه يعرف أخلاق الأفغان
جيذا وكان يعلم أنهم فرحوا للغزو لينتصروا ثم ليحصلوا على غنائم لأنفسهم ثم
يعودون لأوطانهم كما فعل تيمور وجنوده ولأنهم كانوا يفضلون نسيم ربي
أفغان نستان العليل عن جو الهند المحترق في فصل الصيف ولكن هذه العودة الى
الوطن الأصلي لم يكن قد جاء وقتها المناسب فانه وإن كانت دلهي سقطت ونودي
ببابر أمبراطورا إلا أن هندستان لم تأت تحت لوائه بل بعض أجزاء منها وكان
لا زال بعض أفراد عائلة لودي يحكمون عدة أقاليم وراجبوتانا كانت تحت حكم
الراجا (سانجا) الهندوسي وكان هو وغيره من الحكام يضمرون للغازي الجديد
العداء ويتخذون الحيلة منه فاذا سافر بابر تحت ضغط جيشه كان ذلك يؤدي
حتمًا الى انهيار مشروعاته السياسية في الهند والقضاء عليها وكان جيشه وصل
تقريبا الى درجة التمرد وكاد يقفل راجعا ولكن صفات بابر وشخصيته القوية
حالت دون انتشار روح التمرد إذ أنه بمجرد أن لاحظ علامات الخروج عليه

جمع ضباطه وقام بينهم خطيباً وذكركم بالمتاعب التي تجشموها والفيافي والقفار التي اجتازوها والجبال التي تسلقوها والضحايا التي قدموها والدماء التي اراقوها وذلك كله في سبيل تحقيق الغرض العظيم وهو احتلال بلاد الهند وقهر الحضم القوي وأبان لهم أن بعد ذلك يكون جنونا وخوراً التفكير في ترك هذه الثرة الكبرى بعد الفوز بها ثم ناشد ضباطه قائلاً : « الآن وجب على كل من يحبني ويخلص لي أن لا يذكر هذه الفكرة . فكرة الرجوع الى الأوطان فانما يكون مثلنا كمثل الذي عاد منهزماً ولسكن اذا وجد بينكم من تسول له نفسه الرجوع فليذهب من الآن فلم يخرج أحد على رأيه بل وصل بحسن تصرفه الى تبديد روح التمرد ورد الجيش الى الطاعة واستطاع أن يقيم بين الهنود الكارهين له وعلى رأس الجيش المتذمر من البقاء وكان نجاحه ثمرة ثباته ورباطة جأشه وحزمه ولم يلبث أن تغير الحال بسبب بقاءه في الهند فقد بدأ خصومه ينضمون اليه وبعد أن انتهى مع الحكام المسلمين بعضهم حرباً والبعض سلماً أخذ يحول وجهته الى قهر خصمه الأكبر الراجا « سانجا » كبير أمراء راجيوتانا الذي واجه جيش بابر بثمانين ألف مقاتل على رأسهم مئة وعشرون أميراً هندوسياً وخمسمئة فيل ودقت طبول الراجا وقام راحلاً الى « بيانا » فأرسل الإمبراطور قوة على وجه السرعة لتعرقل الهندوس من احتلال القلعة الى أن يصل بجيشه الكبير وكان مقبلاً على حرب تخالف سابقتها من كل الوجوه إذ كانت حروبه الأولى مع أمراء من المسلمين ولكن هذه الحرب تعتبر حرباً دينية وكل مسلم فيها يعتبر مجاهداً وكل مقتول يصير شهيداً وقد حضر الإمبراطور وعسكر أمام مدينة « سيكري » التي صارت فيما بعد (فتح بور) وقد انضم اليه قوات قلعة بيانا وكان خصم بابر لا يستهان به بل يحسب له كل حساب لشجاعته وخبرته في القتال وكانت بوادر الحرب لا تشجع المسلمين إذ أن قسماً من جيوش الإمبراطور التحم مع الخصوم ولم

يثبت أمامه بل فر هذا القسم منهزما فتقدم الأمبراطور بكل جيشه ونظمهم على سابق عادته كما فعل أمام دلهي وأحضر معهم نفس المدفعية التي كان يديرها على ومصطفى واستمر في تجهيز الجيش وجعله على تمام الاستعداد للقتال وصرف في ذلك الاستعداد مدة خمسة وعشرين يوما لأنه حفر خنادق للوقاية وقت الخطر وكان يريد من شدة استعداده واحتياطاته الزائدة إعادة الطائفة إلى الجيش الذي دخل عليه الفرع لما رآه وقع لآخوانه السابقين وكانت من عادة بابر أن يدمن على شرب الخمر ولكنه في هذه المرة أقسم أن لا يقربها وأهرق منها ما كان عنده على الأرض وكسر كل كؤسها وحطم كل زجاجاتها ودعا ضباطه وحضهم قائلا إن كل رجل يولد في هذه الدنيا لا مفر من موته في يوم من الأيام ولا يبقى حيا لا يموت غير الله ولا بد لكل حي أن يشرب كأس الموت ولا بد لكل موجود أن يبرح هذا الوجود فأما والأمر كما تعلمون فخير لنا أن نموت شرفاء من أن يعيش يحبط بنا العار وإن من فضل الله علينا أن من مات منا ذهب شهيدا وإذا انتصرنا فإن انتصارنا يكون في سبيل الله فهاؤا بنا اذن نقسم باسم الله وبكتاب الله على أن لا نبرح القتال حتى نظفر أو نموت فلما رفعوا المصاحف في أيديهم وأقسموا عليها عادت اليهم البطولة ودب فيهم الحماس .

ولما تم تجهيز الجيش صار بابر يتنقل بينهم من مكان إلى مكان ويبت فيهم الحماسة وأمر الجيش بالتقدم . وبدأت الموقعة بمطاردة عنيفة من الراجبوت على الجناح الأيمن لجيش المسلمين فأمدته بجزء من الاحتياطي وبدأت طبعيته في القلب تطلق مدافعها واستمر هجوم الراجبوت كالسيل المنحدر لا ينقطع . وبلغ شدة بوئسة ، ولكنها كانت تصدم بنار المدفعية . ثم انه أعطي أمرا بالتقدم وفي الوقت ذاته أرسل جزءا من الاحتياطي وقام بحركة تطويق من الخلف وشعر الراجبوت بشدة الضغط عليهم وتحولت المعركة إلى مذبحه حيث اختلت

صفوف الهندوس من كرات النار التي كانت تقذفها المدفعية وأخيراً ضعفت روح الراجبوت وفروا متفرقين في كل الجهات وتمكن سانجا من الهرب جريحا ومات على أثر جروحه ولمدة طويلة لم تقم قائمة لأحد من عقبة وتلا هذه الموقعة هزيمة وزير الراجا في ملوا وتم بذلك سحق الراجبوت ولم يبق أمام بابر في الهند قوة يعمل لها حساب غير ولاية بهار وكانت في يد الأفغان . وفي سنة ١٥٢٨ تم اخضاعها ثم تفرغ بابر الى شؤون التجديد والتعمير وابتدأ يحفر الآبار والترع وغرس الأشجار والأزهار وجلب الى الهند كثيرا من كروم العنب وغيرها من الفاكهة وابتدأت ولايات متعددة تدفع الضرائب للامبراطور مليونين وستمئة ألف جنيه ولكن هذا المقدار ارتفع فيما بعد في مدة حفيده أكبر خان الى ثمانية عشر مليون جنيتها ولكن المساحة في وقت الحفيد كانت أكثر اتساعا وفي المدة التي قضاها بابر بعد فراغه من الحروب كتب مذكرة طويلة عن الهند تقتبس منها البعض

قال بابر انه لم يكن يحب الهند وان قراها ومدنها قبيحة الشكل وتسكاد كلها تشبه بعضها بعضا وأرضها سهول يمل الانسان رؤياها اذا قاسها بنواحي كابل الجبلية أو جهات فرغانة ذات المناظر الجميلة بمحادثتها وليس بالهند خيول جيدة ولا لحوم ولا أعشاب ولا بطيخ ولا فاكهة في الصيف ولا ثلج لتبريد الماء وخبزها ليس من نوع حسن وعلى العموم فان بابر كتب وهو في حالة صحية سيئة ولم يشهد للهند شهادة طيبة إلا من حيث اتساع مساحتها وكثرة ذهبها وفضتها

ومما امتاز به قوة بنيته حتى أنه كان يستطيع أن يحمل رجلين كل رجل في ذراع ويمشي بهما مسافة طويلة . وكان يشرب الخمر بكميات كبيرة ولولا قوة بنيته الخارقة للعادة لما احتملها طويلا وكان يعبر الأنهار عائما ويتسلق الجبال العالية ويركب على ظهر حصانه ثمانين ميلا دون تعب ولما انتهى بابر شاه من الحروب

مع راجا سانجا أوفد ولده الأمير همايون ليقم مؤقتا في كابل ولكنه عرج على مدينة دلهي وأخذ قسرا منها كنوزا من والده الذي استاء كثيرا حينما علم بذلك وكتب اليه بلهجة تدل على منتهى الرقة والانسانية وكتابته مزيج من نصيح أبوى تتخلله عبارات المحبة والاشفاق وقال له فيه « دعنى أعتب عليك لانك في ثلاث السنين الأخيرة لم ترسل أحدا من قبلك الى كاوانى أرسلت اليك رسولا ولكنه للآن لم يعد بعد انقضاء سنة كاملة وفى كثير من خطاباتك لى كتبت الى تشكو من أنك حرمت من رؤيا الأهل والأصدقاء وأنت تكاد تكون منقطعا بمعزل عن الأوساط التى ترتاح اليها ومن الخطأ أن أميرا مثلك يشكو من حالة مثل هذه فانك مقيد بحكم مركزك وما دام الانسان مقيدا وجب عليه الرضوخ لحكم الظروف أما اذا كان غير مقيد فهذا شئ آخر وله أن يتبع رأيه وميله . ولا يوجد مركز يكون صاحبه فى أسر قدر مركز الملك لشدة ما يتقيد به من الأنظمة والتقاليد فلا يليق بك اذا أن تشكو اذا تعذر عليك رؤيا بعض من تحب ولا أنكر أنك نزولا على رغبتى بعثت ردودا على خطاباتى ولكن يبدو لى أنك حينما بعثت الرد لم تكن قرأت ما كتبت لك ولولا ذلك ما كان يكون جوابك لى مثل الذى قرأته ثم إن عباراتك متنافرة فى المعنى ولم تنزهها من أخطاء الهجاء وكما أنك ملأته ألفاظا لا تعبر عن الآراء التى ترمى اليها فواجب عليك فى المستقبل أن تنتقى أحسن الألفاظ وتختار أرق العبارات دون تكلف أو تصنع وأن تكون عباراتك سهلة اللفظ وفى اتباع هذه الطريقة يكون هذا أسهل للكتاب والقارىء معا واذا أرغبت أن تكون موضع رضى الناس فلا تحجب نفسك بين طائفة من الأخصاء بل يجب أن تمتزج بالجميع ومما يجب ملاحظته أن تجمع اخوتك وأشرف عشيرتك مرتين فى اليوم وأن تتشاور معهم فى كل ما يستحق المشاورة ثم تسير طبقا لما تراه أكثر صوابا .

هذه بعض كتاباته لابنه وهي تدل على رقة الطباع والانسانية وبعد النظر وقد انتهت حياة هذا الامبراطور العظيم والسياسى الكبير والمجدد الشهير اذ اليه يرجع الفضل فى تحسين زراعات الهند . اذ كان كثير الاهتمام بجلب كل الأصناف الغريبة عن الهند والتي تجود بها وقبل الانتقال الى تاريخ ولده همايون الذى تولى الملك بعده لا يستطيع الانسان أن يهمل الإشارة الى شىء من تاريخ حياته مما كتبه عن نفسه ، وهذه الأهمية تأتى من ناحية الصراحة المتناهية وعدم التحيز فيها لشخصه بل كانت بمثابة اعترافات ولم يكن ما كتبه قاصرا على اذاعة حسناته وهى قدرة غريبة قل أن يستطيعها أحد ولقد قال كندى المؤرخ الانجليزى الشهير فى المسائل الشرقية أن مذكرات بابر خان تعد من أعظم الكتب المفيدة التى حفظت عن الشرق والتى لا شك أنها أصيلة ويمكن معرفة ذلك من ثنايا الكتابة وهى فى صدقها وصراحتها تشبه تماما اعترافات روسو وفيها يذكر بابر مهازله وسقطاته ولا يحاول اقتضاها ولا تلطيفها وهو صريح فيها كصراحته حين يذكر لنفسه فعلا مجيدا أو عملا طيبا ومما جاء فى مذكراته أنه قبل أن يجلس على عرش أبيه قتل بيده أحد أشراف بلده لأنه اعتقد أنه تأمر عليه كما ذكر أنه بنى مرة هرما من جماجم مئة شخص قتلهم ولا يبدو منه ما يدل على الأسف أو التخرج من ذكر هذه الأعمال البربرية .

(ولكنه فى فعله هذا كان يسلك مسلك أهل زمنه وطبقا لطباع قومه فهو من سلالة جنكيز وتيمور الذين لم يفكروا أن قتل الأنفس من الأعمال التى تنهى عنها الشرائع وتأبأها الانسانية ولكنه اذا قيس بغيره من الملوك المعاصرين له أو بأحد من أبناء جنسه وأهل بيئته مثل الشيبانى الأربكى أو اسمعيل شاه أو السلطان ابرهيم لودى فانه يكون الرحمة نفسها أو تكون الرحمة مجسمة فيه وهو يذكر عن نفسه أنه لم يعذب أحدا الا مرة وذلك حينما حاولت طباحة بايعاز من

أم السلطان ابرهيم لودى فى دس السم بطعامه وفى هذه الحالة ترك أم ابرهيم لودى وحبس الخادمة وقد جاء فى مذكراته مالا تجيزه أصول الكتابة فى عهدنا هذا فنمر عليه . وقال عن الخمر أنه لم يكن يشربها بدء حياته ولكنه اعتادها حينما زار أقاربه أبناء ملك خراسان فصارت عادة عنده وكان أسعد شئ عنده فى الوجود شرب الخمر وكثيرا ما كان يدعو بعض أصدقائه ويشرب معهم الى درجة السكر وكان يحلوه ذلك فى الغابات أو على جسر نهر ومما قاله ان نفسه كانت تنوق كثيرا الى مجالسة امرأة والشرب معها ولكنه حين فعل ذلك وجد المرأة كثيرة الصخب جاححة وسره أن يتخلص منها .

(ملحوظة — عادة شرب الخمر فى عهد بابر كانت فاشية شائعة بين الكثيرين حتى من المسلمين » فى أواسط آسيا وفارس والهند » حتى أن اثنين من اخوة بابر ماتا من الإفراط فى شرب الخمر) ومن أكبر غلطاته التى سجلها على نفسه أنه فى نشأته كان كثير الاهتمام بالفلكيين وشديد الوثوق بالطوابع وكثيرا ما كان يهمل الاعتبار الأخرى فى جانب ذلك وقد اعترف عن سخافاته فى هذا الاعتقاد وأنه كان مخرفا .

وكان بابر متزوجا عدة زوجات ككثير من المسلمين فى وقته ولكنه لم يكن مغرما بهن وذكر أنه حين تزوج الأولى منهن كان شديد الحياء منها ولم يكن يقربها وذهب عنه الميل لها وتجنبها طويلا ولكنه اضطر الى زيارتها مرة كل شهر أو أربعين يوما تحت ضغط والدته التى كانت تأتى اليه نائفة صاخبة وتستعمل معه كل شدة وتوبيخ وتقوده الى زوجته كما لو كانت تقوده الى السجن وكان يردد قول السعدى : (ان الزوجة السوء فى منزل الرجل الطيب تستطيع أن تخلق جحما فى هذا الوجود وفى الله كل رجل طيب هذا النوع من زيارة المنازل ولعل الله يمحوا هذا النوع من العالم)

وكانت صراحة بابر في ذكر معاصريه واضحة إذ قال إن إحدى زوجات أبي زيد (حاكم سمرقند في زمنه) كانت تعكف على شرب الخمر وكان زوجها شديد الغرام بها ومن أجلها هجر باقي زوجاته بل ولم يجراً منها على زيارة احداهن ولكنه أدرك ما يلحقه من عارها فقتلها وكان بابر ينحصر حبه النسائي في حب الأهل منهن فكان يكتفي بحب أمه وأخواته وعماته وخالاته وجدتيه ، ومما ذكره بابر عن السلطان علي مرزا أحد أقارب الأبايد ما يشير الى شديد احتقاره له لجنه فانه سلم بهدوء الى الشيباني وكان ذلك بسبب حرصه على المحافظة على جسمه الفاني فسلك مسلكا لا يسلكه الا النساء فترك لاسمه عارا لا يمحي ومما ذكره عن أم السلطان علي مرزا رغما عن أنها كانت امرأة متقدمة في شبابها أنها أرسلت الى الشيباني وتعهدت له باقناع ابنها أن يسلم له سمرقند اذا قبل أن يتزوجها فقبل منها الشيباني وسلمت سمرقند بناء على مساعدتها وتزوجها الشيباني لكنه لم يكن يحبها بل عاملها كاحدى جواريه

ومما ذكر عن نكران الجميل والكفر بالنعمة ما رواه عن خسرو وهو أحد كبار الأغنياء والمعاصرين له فقال كان هذا الرجل كريما وحسنا في معاملاته واشتهر عنه توخي الأمانة والذمة دائما في كل ما يعود عليه بالكسب ولكنه من أجل الظهور والعظمة في هذه الدنيا الكاذبة سمل عيني ولد وقتل ولدا آخر الى من كان سببا في نعمته وكان يحميه ويعاونه حتى وصل الى مكانه السامي فجلب على نفسه سخط الله ولعنته وبغض الناس وسيبقى غارقا في العار الى أن يحاسبه الله وقد ارتكب كل هذا من أجل الجاه الكاذب وبعد الصيت وهو في غنى عنهما بما لديه من أملاك واسعة ونعم متدفقة وخدم وحشم كثيرين يحيطون به .

وكان بابر لا يواظب على الصلاة دائما ولكن وثوقه بالله كان عظيما وكان

كثير الجنوح للاستغفار والتوبة وقد هجر الخمر في أواخر حياته وكان مغرما
بتأليف أشعار الهجو لكنه هجر ذلك أيضا لما اعتقد من أن ذلك لا يليق بحاكم
أو مسلم ولقد يطول بنا الأمر إذا تتبعنا هذه المذكرات فلنختم سيرته بأنه دفن في
مدينة كابل في مكان نسقت حوله الأشجار والأزهار سنة ١٥٣٠ ، وبني حول
قبره أحد أحفاده مسجدا حفظا لذكراه . فلنرجع الآن الى حكم همايون

حكم همايون

الجزر بعد المدة

لم تكن الظروف التي تحيط بالجالس على عرش بابر سهلة بل كانت عسيرة معقدة وقد حكم همايون وسنه ثلاثة وعشرون سنة وكان على شيء من الخبرة فانه قاد الجيوش مع ابنه وحكم بعض الولايات في حياة والده وكان بابر يحب ابنه همايون كثيراً حتى انه أشار عن هذه العاطفة الأبوية في بعض كتاباته اذ قال إن وجود همايون أمامي مما يجعل قلبي يتفتح كالوردة الغامضة ومما يجعل عيني تشرق كالشماعل. وكان حديثه دائماً مما يسره وذلك لأنه بلغ السكال في صفات الرجولة وفي الواقع أن هذا الأمير الشاب كان شجاعاً وله جاذبية وذا ذكاء وفطنة وكان يبدو منه نشاط خارق للعادة في بعض المناسبات غير أنه كان متردداً في أموره ينتابه الضعف الأخلاقي في بعض المواقف فكان اذا انتصر في حرب تتخدر أعصابه بنشوة النصر وتجعله ينغمس في النعيم النسائي وما يحيط به من أنواع الملاذ الضارة كتعاطي الأفيون وذلك في الوقت الذي يجراً فيه خصومه على الاقتراب من بابه مهددين ولما كان الرفق من طباعه فانه كثيراً ما عفا عن المسيئين في المواقف التي تتجتم فيها العقوبة وكثيراً ما كان يجلس على المائدة في الوقت الذي كان يجب أن يجلس فيه على سرج حصانه ومثل أخلاق هذا الأمير كانت جذابة حقاً ولكنها لم تكن تصلح لأن تحكم أو تسود وفي حياته الخاصة كان رقيق الشاغل حسن المعاشرة ولكنها لم يكن صالحاً ومعنى همايون هو السعود ولكن لم يخلق ملك أتعس منه حظاً والصفات التي كان يجب أن يستكملها الجالس على عرش مثل عرش الهند كانت توجب عليه اللامام مع السيطرة التامة على المركز الحربي والقدرة على القيام بشؤونه وكانت الحالة تقتضى

نشاطا لا حد له ونموغا عسكريا وكما شرحنا سابقا فان بابر لم يكن أخضع الهندستان بل أكبر ما كان تحت سلطانه يشمل الآن ما يسمونه البنجاب وولايات الهند الشمالية الغربية . ولم يستطع أن يضم اليه نهائيا البنغال وغيرها وانه وان كان كسر شوكة الراجبوت الا أنه لم يخضعها تماما كما وان كثيرا من الولايات الصغيرة التي كان يحكمها ضباط من الأفغان لم ينسوا أن ابراهيم لودى الذى كان جالسا على عرش دلهى كان افغانيا أيضا مثلهم لذلك لم يكن خضوعهم كلية بالأمر المحتمل لسابق ارتباط بعضهم بعائلة لودى يضاف لهذا عدم اطمئنان همايون لنفس عائلته وبالرغم من أن بابر وكل أمرأبنائه الثلاثة الآخرين الى شفقة أخيهما همايون فان التسامح الذى أظهره لهم لم يكن أضر عليه منه اذ كان اخوته الثلاثة يكيدون له وكان أخوه الذى يليه فى السن واسمه قمران حاكما على كابل فى عهد أبيه فاستبقاها وأضاف اليها الولاية الغربية وتجنب اظهار الخروج على أخيه الأكبر ولم يمانع همايون فى خطة أخيه للشفقة الاخوية التى طبع عليها ولمشاغله الأخرى فى باقى أجزاء الامبراطورية . وكان هذا قصر نظر من الامبراطور الحديث لان موافقته على استقلال أخيه فى هذه الولايات حال بين همايون وبين المورد الأساسى الذى كان يحبش منه الجيوش المغولية لأن بعض الولايات الاسلامية فى الهند وقعت فى يد ولاية من الأفغان استقلوا بها فقصدت بذلك أجنحته وأصبح يواجه صعوبة فى تموين نفسه بالجند واضطر أن يحارب باستمرار لاخضاع التأثيرين فأوردته هذه الحالة موارد الاضمحلال وكان قمران أكثر الاخوة الثلاثة خيانة وكان غير حقيق بأن يمت الى بابر بصلة البنوة . أما أخواه عسكري وهندال فكانا فى حالة ضعف وتقلب ونشأ خطرهما من حيث أنهما صارا آلة فى يد خصوم أخيهما وكان للامبراطور أبناء عم وهما محمد سلطان ومحمد زامان وقد حاولا محاولات غير مجدية فى الحصول على عرش دلهى الذى

لم يكن فيهما من يصلح له ، وكان همايون رقيقا مع الخارجين عليه اذ لم يكن يعالج الأمور معهم إلا بأقل ماتقتضية وسائل العلاج وخطته مع ما فيها من النبل من الوجهة الانسانية كانت وبالا عليه من الناحية السياسية وعجزت فطنته عن رسم الخطط التي تتناسب مع مقابلة هذه الأخطار ودرئها فينما كانت بعض الأحوال تقضى بان يتفرغ لخصم ويؤجل خصما آخر إذا به يوزع جيوشه في كثير من الجهات لذلك لم يتيسر حسن قيادتها ولا اتقان رقابتها وفي بعض الأحيان كان يذهب الى مواجهة خصم بعيد ويترك وراءه خصما قريبا منه يهدده وكانت السحب السياسية قد تجمعت في جو الهند في أوائل حكمه وأولها استئثار أخيه بالناحية الشمالية الغربية وفي الشرق قيام الافغانين عليه في ولاية بهار تحت قيادة أحد إخوة السلطان ابراهيم لودي ، وفي الجنوب تمرد بهادر شاه ملك جوجيرات وملوا وكان يتقدم مسرعا بجيشه نحو اجرا (عليكرة) وبقي همايون متحيرا في من يواجهه أولا وبعد ترو دخل ولاية بهار وتخلص من محمود لودي بنصر عظيم في موقعة تسكناو ولو أنه تابع انتصاره وسحق قوى بهار حتى لا يبقى بها من يقاوم لسكان أحسن صنعا لكنه لم يفعل ذلك بل تعجل الأمور وترك حصار شونار وفيها شيرخان واكتفى منه بخضوع ظاهري وبذلك ترك أكفاء خصم عنيد له وتوجه الى مقاتلة بهادر شاه وأوقف هجومه وردده ثم التحم معه أمام شيتور وهرب بهادر وترك جيشه فتبعه همايون بنشاط نادر حتى لحقه عند شاطيء المحيط أمام جزيرة (ديو) واستردت ولايتان من أكبر ولايات الهند همايون بسهولة غريبة فجعل ذلك مناسبة عظيمة لاقامة الأعياد والاحتفالات المتوالية . وفي هذا الوقت ظهر شيرخان ثانية في البنغال وصار سيد الموقف وللمرة الثانية تكررت غلطة همايون فبدلا من ترك الأفراح والأعياد لمواجهة خطورة الموقف مكن باهماله وتقاعده عن العمل خصمه شيرخان في أن يزداد قوة ومنعة علاوة على أنه كان قائدا قديما من ذوى الخبرة التامة وضيع همايون سنة كاملة بين لهوه ومرحه ثم ذهب الى البنغال لقتال

شيرخان إلا أنه أرسل اليه قبل ذلك عهدا بالصفح عنه مع إعطائه مملكة جاونبور
إذا خضع له ولكن شيرخان رفض العرض وتجهز في قلعة زوهتاس التي سبق له
أن احتلها بخديعة إذ أدخلها بعض عساكره في هذه القلعة الهندوسية وذلك بأن
ألبسهم لبس النساء مدعين أنهم موفدات من شير الى الأمير الهندوسي ليحمين
من مطاردة همايون « فجازت الخيلة على صاحب القلعة وهو جم من الداخل
وانتار ج فاضطر للتسليم وبقي في الحصن الجديد يتحين الفرص للإيقاع بهمايون
وتركه الى أن جال في كل الولايات دون احتياط على مواصلاته فاحتل شيرخان
كل منافذ الطرق ونادى بنفسه سلطانا واتفق أن تارهندال وقران على أخيهما
واتسع الخرق على الراقع وتكاثرت ذناب الحرب عليه من كل ناحية ولما وجد
همايون أن تمردا ظهر في أجرا وشيرخان ينادى بنفسه ملكا وإخوته يتحينون
الفرص للإيقاع به فكر في ترك إخضاعهم وبدأ يعالج وجوه الخلاص من خطرهم
ودب فيه اليأس لأن الأمراض فشت وفتكت في جيشه ولكن همايون لم يجد
مخلصا ووقعت الواقعة بين الخصمين في شونار ولكن جيوش همايون صدمت
بواسطة شيرخان ثم جاءت فترة وقف فيها الجيشان أمام بعضهما لا يجرأ واحد
على مهاجمة الآخر وشعر الإمبراطور بالخطر الذي صار فيه اذ مات كثير من خيله
ودواب حمله وقلت المؤونة لأن أجرا انقطع منها التموين ووصول الأمدات اللازمة
ففتحت المفاوضات تجنبنا للحرب وعقد محالفة من شروطها أن يحتفظ شيرخان بولاية
بنغال وجزء من بهار على شروط أن يعترف علنا و رسميا بسيادة الإمبراطور همايون
عليه وأوشك أن يتم الصلح وتآخى الجيشان مع بعضهما وشرع في تقويض بعض
الخيام استعدادا للرحيل ولكن عند بزوغ الفجر باغت أفغان شير الجيش
الإمبراطوري الذي كان أفراد آمنين في مراقدهم وأمعنوا فيهم ذبحا وقليل منهم

من نجا ومن بينهم الامبراطور الذى لم يتمكن من الفرار إلا بمساعدة أحد السقائين الذى أعطاه قرية فنفخها واستعان بها همايون على عبور نهر الجانجيز ووصل الامبراطور الى أجرا بعد أن أيد معظم جيشه وذلك فى سنة ١٥٣٩ وفى خلال سنة بدأ الخصمان يستعدان من جديد الى موقعة فاصلة بينهما وكانت فى سنة ١٥٤٠ أمام مدينة كونوج وفيها انقضت قوة المغول ودال سلطانهم وتشتت جيش قدره مئة ألف مقاتل بسبب اليأس وكثرة الفارين وذابت هذه القوى بمجرد بدء القتال وهرعوا الى الكبارى طلبا للنجاة وتزاحموا عليها فسقطت بهم ، ومات الكثيرون غرقا ومن هذا اليوم الذى انهزم فيه همايون صار ينتقل من جهة الى جهة ويجوب الصحارى والقفار ومضى عليه ثلاثة سنين فى محاولات فاشلة لتجنيد جيش جديد ومما صادفه أنه وقع فى حب ابنه أحد شيوخ الاشراف الملازمين لأخيه هندال وفى خلال هذه المدة ولد له ابنه أكبر خان ثم بعد ذلك هرب لا جئا الى الشاه طهماسب (ملك العجم) طالبا معونته فى المحنة التى يلاقىها فأجاب الشاه سؤله وأمدّه بجيش من الفرس فاسترد قندهار من أخيه عسكرى فى سنة ١٥٤٥ كما أنه استرد كابل فى سنة ١٥٤٧ وأصبح مركزه فى الحكم يعادل مركز والده قبل غزوته للهند ثم أنه مضى التسعة السنين التالية بين ارتفاع وانخفاض فى حظوظه الحربية ولم يتمتع بالهدوء وثمره الحكم فى الأفغان إلا بعد موت أخويه وقد قتل أخوه هندال فى معركة بينما مات عسكرى أثناء تأديته فريضة الحج . أما قمران الجاحد فبعد أن عفا عنه همايون مرارا ولم يفد العفو فى تغيير طباعه اضطر لسمل عينيه وارساله لمسكة حيث قضى نحبه هناك ، وقد كان السبب الأساسى لمحنة همايون سلوك قمران الشاذ معه وأغلب ما قاساه من شقاء يرجع الى هذا الأخ وهكذا كانت نهاية اخوة همايون معه

شيرشاه

بعد انهزام هايون استطاع شيرشاه أن يخضع الجزء الأكبر من هندستان
لسلطانه وقد قابل الهنود حكمه بالترحيب وان كان أفغانيا لأنه ولد في الهند
ولقدرته الفائقة في حسن الادارة ونبوغه في فنون الحرب ورجحان عقله، الذي قوبلت
تصرفاته بالرضا خصوصا في سياسته المالية ، وقد حاول ارضاء كل العناصر المختلفة
من السكان وكان يبتعد عما يعتبر اضطهادا لرعاياه الهندوس . وكان على جانب
عظيم من النشاط وذا حزم في فض المنازعات التي كانت تقع بين طبقات السكان
المختلفة وقد قسم ادارة ملكه الى مئات الأقسام ووضع في كل قسم منها ضابطا
يمثله ويكون واسطة اتصال بالمركز العام وهو أول من أدخل من حكام الهند
الأنظمة الجديدة التي تفيد العالم الهندي بكافة طبقاته لا الطبقة الممتازة (المسلمين)
ومما امتاز به شيرشاه أنه وطد الحكم وفرض سلطته على الجميع سواء فلم يستثن
الأفغان ولم يمكن أحدا منهم أن يناقضه فيما فرضه عليهم ضمنا وكان شديدا في
تنفيذ ذلك وكان اذا اتفق أن ابنا أو قريبا أو احدا من بني جنسه أو رئيسا أو
وزيرا عارض أمرا من أوامره كان يأمر باعدامه ولم يكن يحابي في الحق لأى
اعتبار من ناحية القرابة أو العصبية ومن يوم أن توطد حكم شيرشاه لم يستطع
أحد أن يرفع راية العصيان أو يبدى معارضة ما ولم يوجد من الجند أو اللصوص
من كان ينظر بعينه الى ملك أو متاع أى انسان آخر . كما أنه لم تقع سرقات فعلا
في عهده ولم يضطر أى تاجر أو عابر سبيل أن يقف في الطريق خيفة الاعتداء
بل رفراف الأمن بجناحيه في كل مكان . وكان رجال القوافل ينامون في الليل
دون خوف على الأنفس أو الأموال . وذلك لتنظيمه وسائل الحفظ بما يكفل
توطيد الأمن

كان شيرشاه ، شديد الوثوق بنفسه ومما رواه مؤلف تاريخه عباس خان
حكايه سمعها من خاله وكان يشق بصدق روايته ، قال : كنت في موقعة (شونديري)
صحبة الامبراطور بابر المنصور وكان معنا الشيخ ابراهيم سرواني والشيخ محمد
وبعض الأصدقاء ورأينا أن نذهب للجلوس مع شيرخان وكنا نتجاذب أطراف
الحديث حينما نكون على انفراد فقال الشيخ ابراهيم « أظن أن هذه الامبراطورية
(المغولية) لن تبدا ولن تعود ترجع الى يد الافغانين » فعارضه شيرخان
قائلا : « ان الزمن اذا وقف بجانبى وساعدنى الحظ فسيكون من السهل على
اخراج المغول من الهندستان فبدا على وجه الشيخ ابراهيم ما يعتبر شكاً أو
سخرية من هذا الأمل السكاذب الذى لا يصدر الا عن غرور مغرور أو حلم حالم
فلما لاحظ ذلك شيرخان رجع فأكد قوله وقال كن شاهدا ياشيخ محمد أن الحظ
والزمن اذا ساعدانى فانى سأطرد المغول من الهند لأنهم لم يبرهنوا في أى موقعة
من المواقع تفوقهم على الافغانين وغاية ما فى الأمر أن الامبراطورية أفلتت من
أيدي الافغانين بسبب الاختلافات التى كانت قائمة بينهم وبما أنى اختلطت
بالمغول فقد درست أخلاقهم وكيفية تصرفاتهم وهم ليس لديهم تدبير أو نظام ،
وان ملوكهم بسبب علو مركزهم أو نبيل مولدهم يترفعون عن مباشرة الأعمال العامة
ويكونون أمورهم الى الوزراء وبعض الأعيان ويثقون بهم ثقة عمياء
وهؤلاء الوكلاء عنهم ليس لديهم النزاهة فى تصرفاتهم ولا يؤيدون من المتظلمين
أو ذوى الشكايات سواء أكان هؤلاء ولاية أو جنودا أو مزارعين إلا من كان
يدفع لهم الرشوة التى ترضيهم وسيان عندهم فى ذلك المواليين للعرش أو غير المواليين
ولا يميزون عدوا من صديق فقد أعماه حب الذهب وسيرى الشيخ قريبا أنى
سأستطيع جمع الافغانين تحت حكمى ولن أسمح لهم أن يتفرقوا وسأحقق بهم
هذه الغاية وقد وصلت هذه الرواية الى مسامع بابر شاه قبل موته وكاد أن يقبض

على شيرخان خصوصا وأنه بدأ يعمل حسابا لشخصيته المتينة ولكن شير علم بنية الامبراطور وهرب في الفرصة المناسبة فيالها من تنبؤات حققتها الأيام وأيدتها الهمة الجبارة بعد أن كانت أقواله في هذه المسئلة تجعل سامعيه يعتبرونه يهذى ويحلم وكان مما ساعده به الحظ والظروف لتحقيق أمنيته أنه احتل احدى القلاع القوية بصدفة وتفصيل ذلك أن تاج خان صاحب قلعة شونار كان يقتنى احدى الجوارى فحنق عليه ابن شرعى من ابنائه وقتله وحصل خلاف على القلعة وأملا كه بين هذه السيدة وابناء زوجها الراحل . وكان في يد السيدة ثروة الخان المتنقلة ورغبت شيرخان أن يتزوجها ثم احتكمت اليه في فض الخلاف بينها وبين أولاد الخان فحكم لها واستولى على القلعة ولم يطل حكم شيرشاه إذ مات قتيلا أمام حصن كالينجار أثناء محاصرته له ومحاولة اخضاع الراجبوت .

سليم شاه

انقضى بموت شيرشاه عهد الهناء وخلفه على العرش ابنه سليم شاه وكان شديد الصولة والحول كأبيه ولكن ينقص عنه في الفطنة والحزم وقد بدأ حكمه بمحاولات كان يرمى من ورائها انقاص شأن الرؤساء من الافغانيين ممن يحيطون به وسلك مسلكا يشابه طريقة ابراهيم لودى من ثلاثين سنة مضت وكانت النتيجة في كلا الحالتين واحدة فانه لما غزته قوة أجنبية لم يستطع الوقوف في وجهها ولم يكن سليم شاه الابن الأكبر لوالده بل عادل شاه كان أكبر منه سنا وقت موت أبيه وبما أنه كان متغيبا عن الجيش في احدى الجهات النائية وكان اسناد العرش في الحال من الضرورات التى تقتضيها المحافظة على النظام وعلى مركز العائلة المالكة وعلى ذلك نادى الجيش في الحال بسليم حاكما عليهم . وبمجرد جلوسه على العرش كتب لأخيه الأكبر يخبره أنه

قبل هذا التعيين مضطراً تحت اصرار الجيش ولكن حقيقة نواياه متجهة الى التنازل عند حضوره وبعد ذلك كتب له ثانياً يستدعيه الى الحضور الى أجرا ولتخوف عادل اشترط أنه لا يحضر إلا بعد أن يضمن سلامته بعض أعيان من البلد ذكر أسمائهم ، ولما حضر اكتفى أخوه بأن أقطعه احدى الولايات دون العرش ! إلا أن سليم عاد ودخله الشك من ناحيته ولم يكن مضى على تعيينه غير شهرين فانتدب غازي المحل وهو أحد مشاهير ضباطه وأعطاه سلسلة من الذهب ليقيد بها أخاه عادلاً ويحضره اليه ولكن عادلاً استنجد بقواص خان وكان أكبر ممالك والده (ويده اليمنى) وكان في الوقت ذاته حاكم ولاية ألوار فصار الذي جاء ليأسر عادلاً أسيراً في يد قواص ولهذا السبب قامت الحرب بين سليم شاه من ناحية وعادل يؤيده قواص من ناحية أخرى . فما كان من الآخرين إلا أن جمعا جيوشهما على نية مباغطة أجرا وفي طريقهما مرا بسيكري (فتح بورسيكري) وقد أقيم بها مولد لأحد كبار المسلمين ، وهنا تأخرا طويلاً حيث قاما بتأدية الفروض الدينية ثم شاركا المحتفلين بالمولد ولذلك لم يصلا الى أجرا الا في ثاني يوم بعد أن صارت الشمس في رابعة النهار مع أنهما حددا موعداً لبعض أعوان الامبراطور للخروج عليه والهروب اليهم ولكن ضاعت منهما الفرصة لتأخرهما وانهزما وتحول سليم على كل من وقع عليه شكه فقتله ومما روى عنه أنه أباد عشيرة من أكبر العشائر وهي عشيرة نيازي ونسف رؤسائهم بالبارود لأن زعيمهم أعظم هيايون ثار عليه . ولقد ثار على الشاه أيضاً شوقت خان صاحب ولاية ملوا لاعتقاده أن الشاه حرض عليه أحد الافغان ليغتاله . وفي مرة حاول أحدهم أن يعتدي على حياة الشاه سليم فلما أحضر الجاني لاستجوابه رفض استجوابه وأمر باعدامه فوراً وقد قال أنه اراد بذلك أن لا يثير الشكوك وأن لا يتهم أحداً ظلماً ومات سليم سنة ١٥٥٣ ، وتنازل مجد عائلة شيرشاه ، وتولى بعد سليم ابنه ولم يكن يبلغ عمره غير اثنا عشر سنة

وضربت القوضى أطناها في عهده وقتله خاله مبارز خان وتولى العرش واتخذ لنفسه لقب عادل شاه وكان عاطل الصفات وحشى الطبع فناوأه على العرش اسكندر خان و ابراهيم خان وغيرهما وكان عادل يعتمد على وزير له هندوسى اسمه هيمو فى تسيير دفة الأمور وقد نشأ من وسط لاذكر له وكان صاحب حانوت صغير يبيع فيه بعض الحاجات وقد ارتفع بالتدريج الى أن صار رئيس وزرائه وكان قوى الشكيمة ذا عزم شديد فاستطاع أن يدافع عن عادل ويدفع خصومه ولكن شخصيته الهندوسية أثارت عليه حنق الكثيرين مما أضرب مركز عادل وانتهى الامر بأن اغتصب ابراهيم صور عرش دلهى بينما وضع اسكندر صور يده على ولاية البنجاب وكلا الثائرين كان ابن عم لشيرشاه ثم تحول اسكندر صور على ابراهيم صور وطرده من العرش وأخذ مكانه

عودة هايون الى عرش هندستان

فى عهد ابراهيم واسكندر صور انتشرت القوضى فى كل مكان ومن يوم أن أخرج هايون عن عرش الهند تغيرت طباعه وصار يطوى الفياقى والقفار ونفض عن نفسه ثوب الخمول والراحة وطلق المرح واللهو وصار يطرق وسيلة بعد أخرى لاسترداد عرش الهند المغصوب فلما جاءت الفرصة بسبب الانقسامات العائلية للذين حكموا دلهى جهز جيشا مكونا من خمسة عشرة ألف فارس وانضم اليه بعض رعاياه السابقين وسار فى طريقه قاصدا دلهى ليمسكها عنوة . وابتسم له الزمن ثانيا فى سنة ١٥٥٥ حينما احتل البنجاب وفرق جيش اسكندر صور الذى هرب الى جبال الهملايا ثم دخل عاصمته دلهى وجلس على عرشها ثانية ولكن لم يطل عمره إذ لم يبق غير ستة أشهر . وكان يباشر بعض اصلاحات فى سرايه فزلت قدمه زلة كانت القاضية وبذلك سجل له زلتان — زلة أخلاقية أخرجه من العرش أول مرة ، وأخرى بدنية أخرجه من الوجود .

أمبراطورية هندستان المتحدة

أكبر خان

١٥٥٦ - ١٦٠٥

كل مخلص لحكم المغول في الهند لم يقابل باطمئنان أو ارتياح الظروف التي كانت تحيط بعرش دلهي عقب وفاة هايون لاسيما وهو لم يكن أتم إخضاع خصومه ، ثم انه ترك جيشا من المأجورين وابنا قاصرا ليدير امبراطورية واسعة النطاق مترامية الأطراف لكن من حسن حظ الابن وهو أكبر خان ومن سوء حظ خصومه أن هايون ترك لابنه وزيرا كان على أكبر جانب من الكفاءة وأصلح من يليق في المواقف العصيبة فانه قام بتأديب العصاة والخارجين والمشاكل الداخلية ، اسمه « بيرام خان » . ومن حسن سياسة هذا الوزير أنه أخفى خبر وفاة هايون شاه عدة أيام لتغيب أكبر خان وقد نودى به أولا امبراطورا في البنجاب ولما عاد الى دلهي بعد سبعة عشر يوما من وفاة والده أجلس على العرش وتليت الخطبة باسمه يوم الجمعة ولكن قامت الفتن على أثر ذلك وزحف الوزير هيمو الهندوسي مناصرا لمعادل شاه ووقف أمام أبواب دلهي ولم تكن القوى المغولية القائمة بالعاصمة يومئذ تحت قيادة موحدة بل انقسم الرؤساء وقد أشار « تاردى بيج » وهو حاكم المدينة السابق باخلاء دلهي حيث لا تجدى المقاومة ولكن فريقا آخر رفض هذا الرأي ووقعت الحرب بين هيمو والمغول جنوب مدينة دلهي ثم انسحب الجيش المغولي منهزما ووصل الى أكبر خان في البنجاب منهوك القوى ولكن بيرام خان كان خصما عنيدا فأعاد تنظيم الجيش وأعدم تاردى بيج ليأمن معارضة غيره له في خطته . ثم عاد فصادم جيش هيمو

في بانيات وذلك بعد أن خطب بين جنده محرضا وقال لهم « ان هيمو هذا الكافر سبق له أن هزم جيوش امبراطوركم وقد عاود الكرة يريد بذلك أن يتحكم فيكم فاذا صدقتم في القتال وكنتم قلبا واحدا وروحا واحدة فستكون هندستان لكم وأنا أضع ثقتي في الله واذا قدر وفشلتم في هذا الموقف مع العلم أن بيوتكم تبعد عنه نحو خمسة كيلو فلن تجدوا لأنفسكم بعدئذ ملجأ . ثم انه أثار حماسهم للقتال ورغبهم فيه بما وعدهم به من حسن الجزاء والمكافأة ، وبالرغم من النصائح والترغيبات التي أبدأها بيرام خان لجنده فان هيمو كان متفوقا وقابل جيش المغول راكبا فيلا الا أن سهما طائشا أصاب منه مقتلا فلما حاول الفرار بعيدا أدركه خصومه وأحضروه أمام بيرام فقدمه للملك أكبر ليقتله بيده ولكن ما جبل عليه أكبر من رقة الطباع جعله يحجم وقال لوزيره « كيف يجوز لي أن أقتل شخصا يكاد يكون على أبواب الأبدية » فقتله بيرام بيده وبما أن هيمو كان أكبر شخصية تؤيد مطامع الأفغانيين فان موته قطع كل أمل في سبيل إعادة حكمهم للهند وبعد ذلك تفرغ بيرام الى باقى خصوم سيده وهزمهم وشتت قواهم وقتل اسكندر صور وبرايم وخلي الجو باتقراض عائلة صور وصفا الحكم للمغول . وكان سن الملك أكبر وقتئذ ثلاثة عشر عاما . ولم تكن سلطته أول الأمر ممتدة الا الى أقسام صغيرة من الامبراطورية العظيمة التي تركها فيما بعد حيث بسط سلطانه من الهملايا شمالا الى سلسلة جبال قندهيا جنوبا ومن أفغان غربا الى البنغال شرقا ولم تكن سلطته بالاسم كما كان هو الحال مع كثيرين ممن جلسوا على عرش دلهى قبله بل توطدت أحكامه وانتشر سلطانه وخضع الجميع له ولا شك أن هذه النتيجة ترجع الى عوامل جديدة وقد يعتبر في مقدمتها وجود وزيره الأكبر بيرام ذلك الرجل الحديدي ، الذي وقف ضد كل من ثار في وجهه أكبر خان وقضى على أكبر خصومه وأدب من حدثته

نفسه أن يشور على سيده حتى صيرهم مثلاً يخاف منه المتذمرون والمتآمرون فأعيد الهدوء إلى الهند ودانت جميع الولايات لسلطة الملك أكبر ومما ساعد على الوصول إلى هذه النتيجة أنه في أول الأمر لم يثر على أكبر غير المغول ولكن ثورتهم انتهت بموت الذين خلقوا الخلاف والانقسام ثم آل الأمر إلى أن توحدت القوى المغولية وصار تحت يد أكبر جيش من نفس المغول كان يجعل اعتماده عليه في مواجهة أى طارئ ويعززه في ذلك جيوش أخرى تتألف من المسلمين الأفغانيين الذين انقض مضيق رؤسائهم ومن المسلمين الهنود وقد كثر عددهم في الهند ثم إن طريقة الحكم الجديدة التي اتبعها أكبر كان من مقتضاها أن تزيل عداوة الكثيرين من الهندوس بل وتجذب إليه حب بعضهم فانه حين ولى الأمر بنفسه لم تكن سياسته أن يصير حاكماً مسلماً يحكم بقوة المسلمين بل كان يرمى إلى أن يصير حاكماً هندياً يحكم لمصلحة الهند فهو بذلك يحكم الكل . ويعمل لمصلحة الكل فلا تميز بين هندوسى ومسلم ولا امتياز لمغولى على أفغانى بل الكل سواء ولا شك أن هذه الطريقة الجديدة لها مزاياها فإن الهند كانت ولا زالت أكثرية سكانها من الهندوس ولم تكن وسائل حكم المسلمين السابقين تلائمهم لما كان فيها من النزعة الدينية التي كانت تدفع الكثيرين من الحكام إلى التعرض لحرية العبادة وهدم المعابد وتحطيم الأصنام . مما كان كفيلاً بإثارة الضغائن في نفوس الهندوس ، ومن أجل ذلك كثرت ثوراتهم في العهود السابقة وزادت الهندوس ارتباطاً بعد ما كانوا متفرقين

أما عهد أكبر فاختلفت فيه سياسة الحكم وانتظمت وسائل الضرائب وتنزهت كثيراً عن عيوبها السابقة ولا يوجد شيء يجعل الجماهير راضية مثل اعتدال المعاملات المالية وبعدها من المظالم التي تحمل الناس فوق طاقتهم ، ثم أنه من الوسائل التي استطاع بها أكبر أن يقرب الطوائف غير المسلمة منه ويزيل

نفورهم القديم أنه عقد مؤتمراً من رجال الأديان واختار له مكاناً وسماه بيت الحكمة ثم أبدى لهم رغبته في إيجاد دين جديد يجمع كل الطوائف وسماه دين الله وأستمد تعاليم هذا الدين الجديد من كل الأديان ومنها الديانات الهندوسية والاسلامية والمسيحية وأراد من وراء هذه الفكرة ازالة الفوارق الدينية وما يترتب عليها من أسباب الشقاق بين الطوائف والطبقات ، ولكن هذه الفكرة لم تنجح النجاح الذي قدره لها وان كانت أحدثت شيئاً من حسن الأثر لأن اقتباس شيء من تعاليم دين يعد بمثابة احترام واعتراف بصلاحيه ما يقتبس من هذا الدين إلا أنها في الوقت نفسه لم ترق في نظر فريق من المسلمين الذين لا يريدون النزول عن معتقداتهم ولا سيادتهم والواقع أن محاولة أكبر هذه بصرف جوازها أو عدم جوازها شرعاً ربما كانت الوسيلة الوحيدة لجعل الهند أمة واحدة فإنها كانت طبعاً ستؤدي الى توحيد الدين ثم اللغة ثم ازالة الفوارق الكثيرة مما كان يمكن به جعل الهند وحدة غير منقسمة ولسكنها كانت تجربة جريئة لم تنجح غير أنه كاد يصل الى غايته بسلوكة طريق العدل في الأحكام مما حببه الى كثير من الهندوس وجعلهم يقابلون حكمه بالرضى فانه ألغى الجزية في سنة ١٥٦٢ عن الهندوس (وهي ضريبة يفرضها المسلم على غير المسلم) ، فأزال بذلك سبباً كبيراً من أسباب استياء العناصر غير المسلمة وزاد في ذلك فأمر بالغاء الضريبة عن الحجاج الهندوس بحجة أن التعرض لتقييده من الوجهة الدينية أى انسان خطأ واجحاف ولكن هذا لم يمنعه من أن يقف في سبيل بعض عاداتهم القبيحة فحرم ارتكابها لمنافاتها لمبدأ الانسانية الصحيحة فمنع مثلاً .

حرق الأرملة اذا توفى زوجها الهندوسى .

ومنع زواج الأطفال « عادة شائعة في الهند أن تزوج بنت في سن الثامنة

مثلاً الى رجل في العشرين »

وأباح تزوج الأراامل بعد أن كان محرماً عند بعض الطوائف .
وحتم في صحة الزواج ضرورة الرضى والقبول من الزوج والزوجة واجازته
من الوالدين

وحرم التحقيق بواسطة التعذيب

هذه بعض اصلاحات أكبر التشريعية بدأها عقب انتهاء عهد الوصاية وذلك
في سنة ١٥٦٠ ثم انه أراد أن لا يستمر اسناد الحكم الى بيرام خان وأن يتولى
الأمر بنفسه وقد دفعه الى ذلك ما طبع عليه من نشاط وميل الى العمل والسلطة
وثانيهما أنه لا حظ أن بيرام كان شديد القسوة في الأحكام مما جعله مكروها ومما
ساعد على ذلك أيضا أن أكبر كان واقعا تحت تأثير النساء وفي مقدمتهن أمه
في الرضاع « مهام أنجاه » فانها ساعدت على ابعاد بيرام خان ولكن أكبر صرفه
عن الحكم بطريقة رقيقة اذ قال له إني صرفت كثيرا من وقتي في اللهو والصيد
وتركتك تحمل أعباء الحكم والآن أريد أن أحمل نفسي هذا العبأ وأن أتيح
لك الفرصة التي تمكنك من أن تعيش عيشة هادئة تتناسب مع سنك كما أريد أن
أتيح لك فرصة أداء فريضة الحج الى مكة »

وعلى ذلك انقضى عهد الوصاية وترك بيرام الوزارة وفي طريقه أثناء سفره
قابله أفغانى من الموتورين منه وقتله وابتدأ عهد جديد في ادارة الأحكام وكانت
فيه الشخصية البارزة هي السيدة مهام أنجاه مرضعته فانها أدارت دفعة الأمور
باخلاص وكفاءة نادرة ولكن من سوء حظها أن كان لها ابن سىء الخلق اسمه
أدهم خان زوجته في مركز رفيع ما كان يليق له فامتلا غرورا وكان ذا غلظة في
طباعه فتمادى في غيه الى أن اعتدى على شمس الدين رئيس وزراء أكبر وقتله
ثم التجأ الى باب الحرم وكان أكبر في هذه اللحظة قد رأى بعينه ما وقع فاشتد
غيطه من أدهم فتناول سيفه وضربه به ثم أمر أن يحمل وأن يرمى بجسمه من أعلا
البناء فمات لفوره

ومما دفع أ كبر الى قتل هذا الشرير أنه سبق أن تكررت على يديه المآسى إذ أنه اغتصب احدى نساء « بازبهادر » فلكيلا تسلم نفسها لمغتصبها انتحرت ثم سبق له أن ذهب الى محاربة بعض العصاة فلما استحوذ على بعض النساء كأرقاء اختص نفسه ببعضهن وبعض الأشياء الثمينة مما لم يكن أخذ به أمرا من الملك . ولما علم الملك بأمر الجاريتين اللتين سلبهما استحضرها وسلمهما الى أم أدهم ليقبها عندها الى أن يحين الوقت الذى فيه يحقق بنفسه مسألتها فسمتها لتحول دون اثبات فضائح ابنها . كل ذلك أقنع الملك أ كبر بالتخلص أولا من أدهم وثانية من الحكم النسائى الذى ظهرت مساوئه وصار وصمة لحكمه .

ولما أن قضى على أدهم ماتت أمه حزنا عليه بعد انقضاء أربعين يوما من تاريخ وفاته . وبدأ عهد جديد استخدم فيه أ كبر كثيرا من الوزراء ولكنه كان سيد الكل يتولى تصريف الأمور الهامة بنفسه . وحينما حكم الملك أ كبر كان حديث السن ولكن يستدل من ثنايا أعماله أنه وصل الى درجة عالية من النضوج الأخلاقى وسمو الفكر فانه حينما ثار عليه وصيه بيرام خان قبل أن يقتل أثناء سيره فى طريقه الى الحجاز هزمه الملك ثم عفا عنه وأظهر له عطفًا ونبلا ولما أحضر له هيمو الثائر وطلب منه أن يقتله ليصبح غازيا أبت نفسه أن يقتل أسيرا وترفع أن يعتدى على جريح طريق فدل على طبع طيب إذ سمت نفسه عن أن ينال من خصمه بعد أن صار فى قبضة يده ثم انه مع تقديره العظيم لأمه فى الرضاع ولائها أدهم خان من أجلها والذى كان مخلصا لأ كبر كل الاخلاص رغما عن صفاته السيئة فانه حينما قتل شمس الدين لم يتردد فى توقيع أشد عقوبة عليه وهى القتل فدل بهذا العمل على بعده عن التحيز للمقربين اليه اذا أساءوا صنعا، ثم إن اجتماعاته كانت كلها من أجل ابتغاء العلم والحكمة حتى صار شخصه منبعًا للفضائل ومن صفاته البارزة الاعتماد على نفسه ومما جاء فى وصف ابنه جهانجير له

في منتصف حياته أنه كان متوسط الحجم طويل الذراعين قوى الجسم أسمر اللون مع اصفرار ، أسود العينين والحاجبين وعريض الجبهة وقال أن صوته كان عاليا ورغما عن أن تعليمه كان سطحيا إلا أن حديثه كان ممتعا وكانت صفاته وطباعه تختلف كثيراً عن صفات غيره من الخلق وكان يعلو هيئته هبة الهبة وكان مواظبا على عمله معتدلا في شهواته ويصرف وقته في الانكباب على تصريف الأمور الهامة وإذا نام نام قليلا حتى يخيل لمن يراه أنه كالتيقظ وكان لا يأكل إلا مرة واحدة في اليوم ويراعى في ذلك الاعتدال حتى لا يصل لدرجة الشبع ، وكان ماء نهر الجانجيز شرابه وكان يبرده بملح البارود وكان يوضع في أوان ويختم عليه خوفا من السم ، ومن عاداته أنه كان لا يذوق اللحم الا مرتين في الأسبوع ويكون لذلك كارها ، لأنه كما كان يقول « لا يحب أن يجعل جسمه مقبرة للحيوانات غير أنه لم يجد مفرا من التغذى بها لتعوض جسمه من التعب وكان دائم النشاط شديد الجهد طويله ومغرما برياضة الفروسية كالصيد والسباحة وكان يغوى مطاردة الوحوش كالفيل والنمر وكان منظما لسلاحه ويعطى المدافع أسماء معينة وترك لها تاريخا حفظ فيه ما أدته هذه الأسلحة من الخدمات وكان نابغا في الميكانيكا وله عدة اختراعات ، وهو الذي اخترع ماسورة للبندقية من الحديد لا تنفجر ، واخترع جهازا لتنظيف ستة عشر مدفعا دفعة واحدة واخترع طريقة يطلق بها سبعة عشر مدفعا بكبسونة واحدة وأدخل كثيراً من التحسينات على أشياء متعددة ، وكان (أ كبر) أعجوبة من حيث جلده على احتمال المشاق إذ قيل عنه أنه قطع المسافة بين أجمير وأجرا وقدرها مئتان وأربعون ميلا في يوم وليلة واحدة على ظهور الخيل وكان يسرع العدو لدرجة زائدة حتى أن كثيرا ما سقطت خيله ميتة من شدة الإرهاق ، وكان مغرما برؤيا المعارك ، حتى أنه أثناء مروره بمدينة « تانسوار » رأى طائفتين من الهندوس دب الخلاف بينهما تسابعا على استحواذ الصدقات التي تعطى في مولدهم الديني الذي يقام على بحيرة هناك فاستأذناه في أن يقتتلا طبقا

لعاداتهم المتبعة فصرح لهما بذلك وأوعز الى بعض جنوده في تقليد الطائفة الضعيفة منهما والاندماج بينها لمساعدتها ودار القتال وقتل الكثير من الطرفين فسر بهذا المنظر سروراً كبيراً ، وكان في مواقعه الحربية لا يثنى عن قصده مهما بلغ خطره فقد ثار عليه ضابط أزبكي كبير اسمه « على كولى خان زمان » من أعوان أخيه حاكم خان وسبق أن عفا عنه الملك أكبر وكان من شيمته أن يعفو كثيراً ولكن لتكرر تمرده انقض عليه هذه المرة حتى أنه لم يستطع الاستمرار في سرعة الهجوم مع الملك غير قوة لاتعدو خمسة فارس ومع ذلك لم ينتظر حتى تتجمع القوى بل اندفع في طريقه مقتحماً صفوف الخصوم ولما اشتد القتال نزل الملك عن فيله وركب حصاناً وأعطى أمراً للفيلة بالمطاردة وكان بها فيل شهير اسمه هرناند فأطلق عليه الخصوم فيلاً اسمه ديانا ولكن فيل الملك أصاب منه مقتلاً . وأصيب على كولى بسهم فحاول اخراجه وأصيب حصانه أيضاً بسهم فجمح به فأدركه فيل اسمه نارسنج ودهسه عندما أسقطه الحصان ثم أحضرت الأسرى في نهاية الموقعة فأمر أكبر بأن تدهسها الفيلة ، وكانت هذه عادة متبعة في الهند لم يتورع عنها حتى الملك أكبر المشهور برقته ، وكانت تنتاب الملك أكبر نوبات غضب فيرتكب فيها أقسى الأعمال وكان أحياناً وقت غضبه ربما أمر أن يرمى خادم من أعلا البناء إذا هفا هفوة وربما قتل ألفاً أو ألفين من الأسرى وأقام من جماجمها أهراماً وربما كان يعاوده هذا الطبع وراثته عن جدوده جينكيز وتيمور ولكن على وجه العموم فإن الرأفة والرفقة كانت غالباً على طباعه في أغلب الأحيان ومما يروى عن شجاعته أن أبناء عمه ثاروا عليه في سوريات سنة ١٥٧٢ ولأنه كان دائماً يهاجم خصومه بسرعة البرق فانه وجد نفسه فجأة على ضفة نهر ماهدري أمام خصومه ولم يستطع متابعتهم في السير غير أربعين من رجاله وأدركهم بعد قليل ستون آخرون وبهذه القوة الضئيلة هجم على المدينة بعد ما سبح النهر وكان يقف ازاء كل جندي من رجاله عشرة من جنود خصومه فاعتصم في مكان ضيق يحيط به شوك ووقف في المقدمة وبجانبه الراجا بجوان داس

فطاردها ثلاثة من فرسان العدو (لضيق الممر) فاصاب الراجا أحدهم وطارده الملك الاثنين الآخرين ففرا من وجهه واندفع متتبعا للخصوم وتحمست قوته الصغيرة لما رأت الخطر الذي استهدف له ملكهم ففرت قوى الخصوم وعاد الأبطال المنصورون إلى مدينة بارودا ، وفي حروبه من سنة ١٥٧٢ الى سنة ١٥٧٣ عاد فاحتل أحمد آباد وكبای وبارودا وليس ذلك فقط بل احتل قلعة سورات الشهيرة بمنعتها وكانت معدة لمقاومة البرتغاليين وحينما دخلها الملك اكبر وجد بها مدافع كبيرة عليها اسم السلطان سليمان ملك تركيا العظيم ثم إنه لما احتل قلعة « جوناجار » سنة ١٥٩١ وجد بها مدفعا من مدافع السلطان سليمان اذ حاول اسطوله اقتحام هذا الشاطئ وترك هذا المدفع هناك عند عجزه . وكان وجود الراجا بجوان في الحروب بجانب الملك اكبر ذا مغزى سياسى عظيم فانه وان كان الملك فقد عطف كثير من المسلمين بل قاسى مناوآتهم له إلا أنه استعاض عن ذلك بما كسبه من ولاء كثير من الهندوس له . لما أظهره من الاعتدال في معاملاتهم وقد علل بعض المؤرخين ارتقاء اكبر في أحضان الهندوس انه كان نتيجة تألب الكثير من ضباطه الاتراك عليه وقد تزوج بأمرتين من بنات أعمامه وهما رقية وسليمة ولكن تزوج بجانبهما الأميرة الهندوسية ابنة الراجا « بهارى مال » وقد أنعم الملك على أبيها بأعلى رتبة تعطى لأشراف الدولة وجعله رئيسا على خمسة آلاف فارس وأباح لعروسه وهى ابنة الراجا بأداء فروضها الدينية وقد شجعته على معاملة الهندوس بروح الاعتدال فيما يختص بشرائعهم وقد أكثر الملك من الزواج حتى كان لديه من الزوجات الهندوسية والفارسية والمغولية والأرمينية وحتى حوت سرايه عصابة أمم نسائية . ومما رواه أبو الفضل وهو أحد العلماء الملازمين لأكبر أن سرايه كانت تحوى خمسة آلاف امرأة وكان من آثار زواجه بالأميرة الهندوسية أنه النقى الجزية المفروضة على الهندوس والضريبة التى كانت تجبى من حجاجهم وكان لانفاهم أحسن الأثر لدى الهندوس الأمر الذى جعل أغلبهم يخذلون الى السكون فى عهده إذا استثنيت بعض حوادث كدرت العلائق بين أكبر والهندوس ومنها

التجاء الباز بهادر إلى أوداي سنج ابن راجا سانجا الشهير في عهد بابر فلما أعطاه ملجأ وتحدى أكبر قصده الملك بجيش ولكنه اعتصم في قلعة شيتور الشهيرة التي يكاد يكون اقتحامها عسيرا لموقعها الطبيعي حيث تقع على مرتفع صخري يكاد يكون قائم الجوانب . مما يجعل تسلقه في غاية الخطورة ولكن رغمًا عن كل هذه الاعتبارات فان ذلك لم يكن مؤسًا لأكبر بل إنه بجلده وفنه الحربي استطاع التغلب على هذه العوائق . هذا بالرغم عن أن حرس القلعة قدره ثمانية آلاف جندي وكانوا يهزأون من القوة التي جلبها الملك وقدرها أربعة آلاف مقاتل بينما كان محيط القلعة يبلغ اثني عشر ميلا ، فجاء أكبر ببطاريات من المدافع وشرع في إعداد سبتين (والسبت عبارة عن اختراع خاص بالهنود يستعمل كوقاء للجنود الذين يقتحمون حصناً كحصن شيتور وهو عبارة عن عدة قوائم من الحديد ترتكز على قضبان مستطيلة فوق عجلات أعلاها سقف يقي الجنود من نار الحصون وبذلك يستطيعون الاقتراب من الحصن وفتح ثغرة فيه يدخلون منها دون استهداف للكثير من نار المدافعين أو يمكنهم من لغم بعض الأماكن في الحصن ولما أتم الملك صنع السبتين بدأ بالهجوم وجلس على سقف أحدها وصار يشجع جنده على التقدم وكان لا يعادله أحد في إصابة الهدف فلما رأى جايمال قائد الحصن صوب اليه طلقاً ناريا فقتله واختل على أثر ذلك نظام حامية القلعة ولكنها لم تسلم القلعة أو المدينة إلا بعد قتال على كل شبر أرض منها . غير أن اليوم انتهى بهزيمة الراجبوت وقتل منهم ثمانية آلاف رجل ووقع باقي سكان المدينة في الأسر ومما يؤثر عن الملك أكبر أنه أقام تمثالين للأخوين الذين دافعا عن القلعة ووضعها على فيلين من البناء أمام باب دلهي اعترافاً منه بشجاعة خصومه . وتلا سقوط قلعة شيتور تسليم حصن راتنامبور وكالنجار وبذلك انتهت فتنة الراجبوت بعد ما أخذوا درساً علمهم أن الخضوع لثل أكبر أسلم عاقبة لهم وانه لا فائدة من معاداته ولكن أكبر لم يغتر بما أحرزه من النصر بل استعمل حسن السياسة فصاهر أحد أمراءهم راجايكانير اذ تزوج إبنته فربط برباط المصاهرة أكبر قوة في الهند

وضمن ولاءها له وصارت قوى أكبر ليست مستمدة من المسلمين فقط بل دخل فيها العنصر الهندوسى ومن بينهم أكبر الشخصيات كراجا بيجوان وتودارمال (الشهير بتنظيم الضرائب) ومان سنج . ولقد بلغت ثقة أكبر بهم أن عهد إلى الأول والثالث محاربة راجا أودايبور فجعل الراجبوت يحاربون الراجبوت وقد حققا ثقته فيهما وتقلبا على خصمه وقهره حيث فر منهما .

اصلاحات أكبر

أن اندماج رؤساء الهندوس ضمن الهيئة الحاكمة في الهند كان ظاهرة كبيرة في عهد أكبر . ولم يكن الملك ممتازاً في حروبه ولا شجاعته بل كان من هذه الناحية . مثل بعض من سبقه في الحكم لا يختلف عنهم في شيء وإنما الذى جعل له ميزة على أسلافه في الحروب التى وسع بها فتوحاته حتى جاوزت فتوحات علاء الدين ، أنه استفاد من تعضيد الكثيرين من الهندوس دون إرغام منه لهم بل بمحض إرادتهم . ثم مما جعل لفتوحاته وسعة أملاكه قيمة اهتمامه بشؤونها الادارية والمالية وحرصه كل الحرص على استئصال شأفة الحكام الظالمين وكان لا يدع أحداً يستمر في ظلمه متى علم به حتى أن كثيراً من حملاته العسكرية دفعه اليها إهتمامه بتأديب الحكام الذين استباحوا مصلحة المحكومين وحقوقهم وضحوها في سبيل مصالحهم الشخصية ، وكان استخدامه لبعض الهندوس سبباً في رفع مستوى قدرة موظفيه على العمل إذ كان الفريق الهندوسى أكثر خبرة وكفاءة وتعليم من العساكر المأجورين من المغول وغيرهم حتى أنه برزت من الهندوس بعض شخصيات مثل راجا تودارمال الراجبوتى الذى سبق أن خدم في حداثة سنه الملك شيرشاه واكتسب منه وفي أيامه خبرة نادرة في تنظيم شؤون ضرائب الأراضى وموارد الدخل الأخرى ، وكان أكبر معضد لمظفرخان وزير مالية أكبر واشترك معه في وضع الأنظمة التى اتبعت بعد في فرض الضرائب وتحصيلها في أملاك أكبر التى فتحها حديثاً كما أنه ساهم في الأعمال الحربية التى

أشير إليها سابقاً في محاربة على كولي خان ، وخاض معارك كثيرة في البنغال وغيرها ، وظهرت فيها كفاءته ورقى الى رتبة وزير مكافأة له ثم إرتقى مرة أخرى حتى صار المدير لبيت مال الدولة . وهو الذى أعاد تقدير الايجارات العقارية ليتيسر فرض الضرائب بموجبها رفعاً للظلم ومنعاً للمحاباة وسار في كل الوظائف التى تقلدها ورائده المصلحة العامة فوق كل شيء ناسياً في ذلك مصلحته الخاصة ، تلك هى الشهادة الطيبة التى سجلها له الشيخ أبو الفضل جليس أكبر وكاتب تاريخ الأكبر نانا الخالص بحياة الملك ، واسم تودار أشهر علم يعرف في تاريخ الهند في القرون الوسطى بسبب سياسته المالية الحكيمة ، التى كان لها دخل في رفع الشقاء عن الهنود بسبب فوضى الأنظمة السابقة ولقد جعل ضريبة الأراضى هى الضريبة الأساسية خصوصاً بعد ما ألغى أكبر الجزية وضريبة الحجاج ونحو خمسين نوعاً من أنواع الضرائب الصغرى ، وقد سار في سياسته على التوفيق بين مصلحتى الفلاح والحكومة بحيث ترك للمالك ما يكفيه دون إرهاق له ، وقد يرجع الفضل الى شيرشاه إذ كان أول من أعطى التفاتاً وعناية لمسائل المزارعين ومن خبرته استفاد تودار هذه الشهرة الدائمة ، وقد ارتفع دخل ضرائب الأطيان من أيام بابر الى عهد أكبر من مليونين وستمئة الى ثمانية عشر مليوناً وستمئة ألف من الجنيهات ، وقد نشأت هذه الزيادة الكبيرة لا من فداحة الضرائب بل من اتساع الملكة ومنع المحاباة وضبط العمل .

ومن إصلاحاته أنه ثبت ملكية المزارعين للأرض بعد أن كانت مترعزة إذ اعترف لهم بالملكية ، وفى عهد أكبر ، أزيلت الفوارق بين الهندوس والمسلمين في رفع الضرائب ولقد سهل أكبر على الفلاحين وسائل الشكاية بعد أن كانت صعبة معقدة ، كما انه كان يعاقب الجائرين أشد العقاب وأتقص نصف عدد الجباة توفيراً لأبواب الصرف وكان يمد الفلاحين بالتقاوى والسلف الزراعية لمن يحتاجها وتجاوز عن المتأخرات التى كانت على الفلاحين إستنهاضاً لهممهم وإحياء لأملهم في نتائج العمل ، وكان يطالب رؤساء المحصلين بتقديم تقارير وافية عن صغار

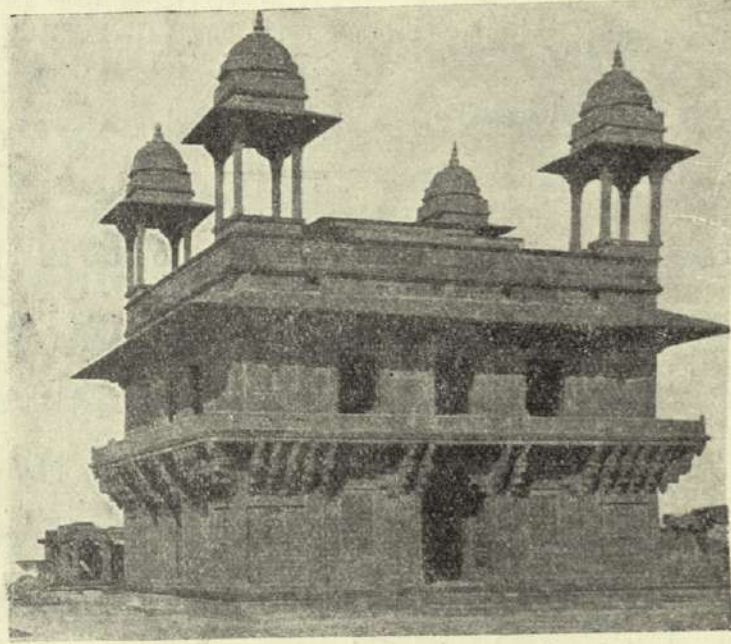
محصول الضرائب وكيفية سلوكهم وكان يطالب رجال الادارة بموافاته بكل حادث يقع في دائرة نفوذهم خاصا بما يصيب الأراضي من الفرق والشرق . والآفات الأخرى ليعالج أثرها .

ومما يذكر لا كبر بالفخر أن النظام الذي يسير عليه الانجليز الآن في الهند لا يختلف عن نظام أكبر إلا ببعض تعديلات طفيفة وكان مما أمر به أكبر أن جميع بيانات الحكومة الخاصة بالمعاملات والضرائب يجب أن تكون مكتوبة باللغة الفارسية (أي لغة الحاكم) لا اللغة الهندية وكان ذلك من أكبر العوامل التي بسببها انتشرت لغة فارس في الهند .

وقد جرى الانجليز حديثا على نفس هذه الطريقة فجعلوا لغة الحكومة في الهند هي الانجليزية . ومن أجل هذا أصبح كل المتعلمين في الهند يعرفون هذه اللغة لأن القائمين بالأمر حتموا أن تكون كل المكاتبات الحكومية بلغة الحاكم الأجنبي .

وكان من أظهر إصلاحات الملك أكبر تقسيمه الامبراطورية الى أقسام صغيرة عين لكل قسم منها مباشرا وجعل من واجبه أن يعمل على تحويل كل الأراضي البائرة في دائرته الى منزرعة في مدة لا تتجاوز ثلاث سنين وبذلك أحيى كثيرا من الأرض الموات وزاد في أرزاق الهند وفي موارد الدولة معا ، ثم إنه وزع مساحات كبيرة من الأراضي على بعض العائلات دون ثمن وفرض عليها أن تقدم جنودا وخيولا وأفيالا للجيش بمقادير عينها تبعا للمساحة .

وأكبر من الشخصيات التي قدرها حق قدرها كتاب أوروبا الذين درسوا المسائل الشرقية واعتبروه مصلحا من أكبر المصلحين وسياسيا في مقدمة الساسيين ومما جاء تأييدا له قول أحدهم . « نرى في التاريخ عدة أمثلة لأشخاص استطاعوا غزو امبراطوريات بمجد السيف إلا أن تكوين الامبراطورية بالقوة شيء والقدرة في المحافظة عليها شيء آخر . ولكن أكبر كان من القليلين الذين استطاعوا تكوين امبراطورية واستطاعوا حكمها .



الديوان الخاصى للملك اكبر بمدينة فتح پور سكرى

أما رأى المؤرخين الشرقيين اذا استثنينا أبا الفضل كاتب الشاه نانا وكان يعتبر أكبرا المثل الأعلا فى كل شىء . فانا لم نجد منهم إلا انكارهم عليه أشياء كثيرة عدوها من أكبر غلطاته ومن أشدهم لوماله واستياء منه البدوانى المؤرخ إذ كان يعتبره منحرفا عن الدين غير مقدر لعواقب سياسته وخصوصا بعد أن أنشأ ما سماه بيت العبادات (أو الديوان الخاصى) إذ كان يجمع فيه الملك رجال الديانات المختلفة من علماء سنيين وشيعة وقسس وبراهمة وغيرهم وكان على رأسهم العالم الشهير والفيلسوف الكبير أبو الفضل وأخوه فيظى شاعر أكبر ، وكلفهم بانتقاء دين بحيث يكون خليطا من كل الأديان وأن يختاروا من كل دين أصلح ما فيه . وغالى أكبر فى هذا المشروع حتى اشتهر عنه أنه كان يغالى فى احترام كل الأما كن المقدسة التابعة لغير دينه ويشاطر أتباعها فى عباداتهم المختلفة مما أثار عليه ضغينة العناصر الاسلامية وإن كان أغلبهم لم يظهر امتعاضه إلا فى

أو آخر حكمه حيث كان الاستياء قد اشتد منه من الطوائف الإسلامية . والواقع أن سياسة أكبر التي أراد بها كسب إخلاص الهندوس وذلك برفع المظالم عنهم ووضعهم في مستوى واحد مع المسلمين أمر من الوجهة الأخلاقية لا غبار عليه بل يستحق كل تقدير وثناء أما إذا تعرضنا لفحص هذه الخطة من الناحية السياسية فقد تكون نظرية أكبر من أخطر المسائل التي أضرت بقضية المسلمين خصوصاً وإن أكبر لم يكن عالماً أخلاقياً بل حاكماً سياسياً فوضعه الهندوس مع المسلمين في مستوى واحد كان عملاً سابقاً لأوانه إن لم يكن خطراً . ومبنيًا على أسباب لم يحسن فهمها فمسئلة الجزية حينما يدفعها الهندوسى بعد ما يفرضها المسلم كان القصد منها تقوية العنصر الحربى وكان وقتئذ المسلمون هم الذين يقومون دون غيرهم بالحروب وحماية الثغور من الغزات كما حصل في عهد تيمور ، ثم إن وضع الهندوس على قدم المساواة مع المسلمين لم يكن ليجعلهم يحبون المسلمين ويخلصون لهم بل لو أن أكبر أعطى الهندوس امتيازات على المسلمين فقد يحبه الهندوس وحده كما كم رفع الظلم عنهم وحاباهم ولكنهم بأى حال من الأحوال لن يحبوا المسلمين فهم لن ينسوا أنهم كانوا غزاة لبلادهم ودخلوا عليهم وبما أن الهندوس كانوا أكثرية كبرى إذ كانت نسبتهم وقتئذ ثمانية إلى واحد من المسلمين فتقويتهم لو استمرت لكنت نتيجةها الطبيعية تمكينهم من التغلب على العنصر الإسلامى ، وليس ذلك فقط بل إخراج هذا العنصر من الهند والقضاء على الديانة الإسلامية وكل أثر إسلامى فى هندستان ، خصوصاً وأن الدعوة للدين لم تقم بالحجة والمنطق إلا فى حالات قليلة وكانت فيما عدا ذلك بالسيف والرمح ولم يوجد بيت أو عائلة من الهندوس لم تكن موتورة فى عضو فى أعضائها فلو أن الفرصة سنحت لهم وطال العهد بأ أكبر حتى يستحوذوا على أكثر وظائف الدولة وتصبح أغلبية الجيش منهم — لو أن هذا تم — لما بقى مسلم واحد فى الهند وما وقع من التخريب للهياكل والأصنام الهندوسية لوقع أشد منه على المساجد والمخلفات الإسلامية ولما بقى جامع فى دلهى أو أجرا أو أى مدينة أخرى

ولو طالت الفرصة للهندوس حتى يتمكنوا من رقاب المسلمين لما بقي لأكبر أو قوم أكبر أثر على العرش أو خارج العرش ولكانت هزيمة أبدية ، أما الآن وإن يكن خرج الحكم من يد المغول فان المسلمين لم يخسروا معه أملا كههم ولا فقدوا تقاليدهم . والانكليز الذين طردوا المغول من الهند وامتلكوها سيأتى عليهم الظرف السياسى — حتماً — الذى بموجبه سيخرجون من الهند كما خرج منها الاسكندر وتيمور وعندئذ تكون الفرص تنتظر المسلمين إذا أمكنهم استغلالها فى المستقبل ، خصوصا وان الحكومات الاسلامية المتاخمة للهند من الشمال والغرب آخذة بأسباب التقدم والقوة وتكاد الظروف تهىء لها الفرصة فيما بعد اذا استيقظت فيها الهمة والأمل بمقدار كاف وذكرت مجد حكامها السابقين كمحمود غزنوى والغورى وبار وندر شاه وهاهى انجلترا اليوم غيرها بالأمس فانها فيما مضى كانت دولة لا تقاربها فى اقوة أو تنازعها فى الصولة أمة أخرى . أما الآن فان الشمس المشرقة شمس اليابان الساطعة التى بدأت تحقق بروجرامها السياسى العظيم وهو تحرير آسيا من النفوذ الأوروبى صارت عاملا كبيرا فى إضعاف انجلترا عن صيانة مركزها فى الشرق . يضاف اليها أسباب أوروبية وهى ظهور دول الفاشست بمظهر القوة التى لا عهد لانجلترا به سابقا مما جعلها لا تطمئن الى مركزها فى أفريقيا ، فسواء أرادت أن تحتفظ بمجدها أو لم ترد فقد صارت مأموريتها فوق طاقتها والذى وقع فعلا فى أيامنا هذه من الحوادث السياسية العظيمة كامتلاك إيطاليا للحبشة وألمانيا للنمسا وتفوق الحليفين فى مركزهما الحالى باسبانيا ثم ظهور الدولة اليابانية بمظهرها الأخير واحتلال منشوريا بعد كوريا ثم احتلال ولايات الصين الشمالية وفيها من ثروة الصين المعدنية ما يقدر بثمانين فى المئة من مجموعها ثم الاستمرار فى غزو الصين واحتلال شواطئها ووقوف انجلترا موقف المتردد مع أن لها من المصالح والثروة التجارية بما يقدر بثلاثمئة مليون من الجنيهات فى شنغهاى وحدها — كل هذا من علامات الضعف المؤذن بزوال مجد انجلترا — فأين نحن الآن من العهد السابق الذى كان فيه الأمر

لأنجلترا ولم تكن أى دولة فى العالم تستطيع أن تحدث تغييرا فى سياستها الخارجية دون رضى منهم وأين نحن من الزمن الذى كان فيه الجنرال الفرنسى مرشال يدخل فاشودا قبل الانجليز ويرفع راية فرنسا عليها فىأتى انجليزى ويأمر بانزال هذه الراية وتخضع فرنسا ، ثم يجىء الروسيا بما لها من قوة وجيوش تحارب تركيا وتهزمها وتكاد تحصل على حكمها القديم وهو منفذ على البحر الأبيض المتوسط فتأتى إنجلترا وتضطرها للرجوع خائبة وتحرمها من ثمرة غزوها ، ثم يجىء موسولينى فى أوائل أمره ويقع فى خلاف مع دولة اليونان الصغيرة ويفرض عليها غرامة ويحتل بعض جزرها فى مدخل الادرياتيك فيصه انذار من الانجليز بأن يعدل عن خطته وكل ذلك فى أربع وعشرين ساعة — يرضخ ويسلم بالأمر دون أى اعتراض ثم تدور الأيام دورتها ويشرع الدوتشى فى القيام بأعمال جريئة تهدد مصالح إنجلترا مالياً وسياسياً وذلك بامتلاكه بلاد الحبشة فتؤلب عليه إنجلترا عصبة أمم وتهدد ثم لا تفلح فى سياستها ولا يجوز تهديدها ثم تدخل الحبشة ضمن امبراطورية الرومان الجديدة فلا تصادق إنجلترا ثم ترجع وتصادق تحت ضغط ايطاليا التى زجت بنفسها أخيراً فى اسبانيا وقطعت لإنجلترا عهداً ولأن لم تبد اكثر اثا لانجاز ما وعدت ثم يجىء هتلر ويضم النمسا فى أربع وعشرين ساعة وقبلها كانت إنجلترا وحليفها فرنسا لا تسلمان بهذا العمل ولكن سرعان ما خضع الانجليز للأمر الواقع وتنازلوا عن عهودهم للنمسا ولقد نشأ قديماً عند إنجلترا حب إملاء إرادتهم على الغير حتى أصبح طبيعة لازمة فى كل مكان من أجل هذه العادة الغربية وقع لولاية فلسطين الجرداء ما هى فيه من محنة الآن فان هذه الدولة التى غوت فرض ارادتها لما عجزت عن تحقيقها وفشلت شرقاً وغرباً ، شمالاً وجنوباً اختارت هذه البقعة الضعيفة لكي تجرد بأسها المقهور فى الصين والحبشة واسبانيا والنمسا ومازالت مستمرة فى غيابها فى خدمة اليهود واتحدت معهم لمحاربة هذه الفئة القليلة من العرب وسارت فى طريقها تهدم منازل الساكنين وتروع القوم الآمنين وتجرد المالكين وتقتل نفوسا حرم الله قتلها الا بالحق وهذا من أوضح العلامات

الدالة على انحلال هذه الدولة وتشمبرلن ذلك الذى يدعى أن استسلامه انما جاء حبا وتأيداً للسلم لم يظهر منه هذا الحب ولا هذه الرغبة الشريفة فى مسألة فلسطين فدل بذلك على أن المسألة لم تكن منه حباً للسلم بل عجزاً واضحاً وجبنا فاضحاً إذ لو كان السلم غايته الشريفة فلماذا احترمه أمام الأقوياء ونبذه أمام الضعفاء ولكن فلسطين هذه الضعيفة التى رويت أرضها بالدماء لها أمم اسلامية تعطف عليها والمسلم أخو المسلم وستكون مسائلها الباعث الاكبر على الانتفاض على إنجلترا فى ظرف قريب ولن تفلت اليابان الانتفاع بهذه الفرصة إذ ستستغل هذه الضعيفة المتقدمة ضد إنجلترا من سواحل البحر الأبيض إلى جبال الهملايا ومتى اشتبكت إنجلترا فى حرب أوروبية أو غير أوروبية فستظهر حركة عدائية للانكليز فى شمال الهند خصوصاً وان مركز الانجليز فى الهند يعادل تماماً مركز المغول الذين سقطوا فى الهند لأنهم لم يعتمدوا فى حكمها على جيوش مغولية وكذلك الانجليز الآن يعتمدون فى حكم الهند على جيش من الهنود الذين تتأجج فى قلوبهم الضغائن الكامنة فهى واقعة فى نفس الغلظة التى جلبت على الحكم المغولى أسباب انقراضه .

بعد هذا التعليق الذى لم أجد منه مفراً لأن أسباب خروج الانجليز متوفر فيها الأسباب عينها التى قضت على المغول يضاف إليها العوامل الخارجية التى سبق ذكرها وشرحها ونعود الآن إلى باقى سيرة الملك أكبر

فى الثلث الأخير من حياة أكبر ثارت عليه موجة استياء مع انتفاض فى أماكن كثيرة سببت له سلسلة حروب وأغلبها مع الأمراء المسلمين ومنها اعتداء مرزا محمد حاكم والى أفغانستان إذ غزا شمال الهند واستمر فى زحفه إلى مدينة لاهور سنة ١٥٨١ لكن حينما قابله جيش الامبراطور تحت قيادة الأمير مراد الاسمية (ابن أكبر) ارتد إلى كابل ولكن الجيش الامبراطورى استمر متعقباً أثر المعتدين حتى كابل فى سنة ١٥٨٢ وكانت هذه أول مرة زار فيها هذا الأمير هذه العاصمة من أيام طفولته ، وفى خلال مدة المعركة بنى أكبر حصن آتوك على نهر السند وبذلك استطاع الاشراف على الجزء الأعلى من النهر وفى سنة ١٥٨٤

مات مرزا محمد أكبر ويقال ان الذي عجل بوفاته اعتياده على كثرة شرب الخمر
الشديدة ككثير من أمراء عائلة تيمور وعند موته أوفد الملك راجا بيجوان
ومان سنج وقد عين الأخير واليا عليها وهذه أول مرة في تاريخ المغول عين فيها
والى هندوسى على ولاية إسلامية وجلس فى كابل وفى سنة ١٥٩١ أخضع خان
الخانات مرزا عبد الرحيم بن بيرام خان (الذى عين مكان أبيه) ولايات السند
الجنوبية التى كانت ثائرة تحت زعامة جاني بج وكان فى خلال هذه الثورة وقبل
أن يتم اتحادها قد اندلع لهيب ثورة أخرى فى شمال الهند فى المقاطعات والأماكن
الجبليّة على أثر دعوة دينية قام بها أحد رجال الدين اسمه الشيخ « بايزيد » وبثها
بين القبائل وكان الغرض منها الجهاد فى سبيل الله ضد الكفار أولاً ونشر التعاليم
الشيوعية وقد ادعى الشيخ بايزيد المهدوية فزاد ذلك الثورة لهيباً وتولى الدعاية بعده
ابنه جلال الدين وكان لا يزال ولدا حديث السن وفى عهده اتحدت أغلب قبائل
الشمال وأيدته فى دعوته وصاروا بذلك خصوماً أقوياء لآسيا وإن جميع القبائل
دخلت ضمن الاتحاد فيما بعد سواء كانت شيعية أو سنية وتوحد المجهود ضد
قوى المغول فأوفد الملك زين خان كوكو « وأمه بالقائد أبى الفتح والراجا « يربول »
فلما كان مركز جيش المغول فى السهل كان بآمن إلا أنه حينما حاول اقتحام
الجبال العالية عاد ذلك بالوبال على الجيش فقد وقع فى كمين وانهار عليه المقاتلون
بالسهام والأحجار من الأماكن العالية فحسر الجيش ثمانية آلاف جندي وذبح
يربول ولم يستطع زين خان وأبو الفتح الرجوع إلى حصن أتوك إلا بعد فناء
الجيش وقد أزعجت هذه الأخبار الملك أكبر فأوفد راجا تودارمال ومان سنج
فلم يفلح ولكن الأمبراطور تولى الأمر بنفسه وكان كلما تقدم مسافة قصيرة بنى
استحكامات بها للاعتصام فيها والمحافظة على ما يكون استرده وبذلك استطاع أن
يعيد كابل ولم يقض على هذه الحركة الدينية إلا فى سنة ١٦٠١ حيث قتل زعيمها
فى مدينة غزنة وكانت جيوش أكبر خلال هذه الحروب موزعة فى عدة أماكن
فاحتلت ولاية كشمير وصار مولعاً فيها بعد بالاقامة فيها والتردد كثير أعليها لكثرة

الديكان

في جنوب الهند ساهمت ولايات الديكان في الثورة والخروج على أكبر فكاما كان شمال الهند وجنوبها على ميعاد إذ اضطر أن يبذل مجهوداً كبيراً في جنوب الهند أيضاً ويرجع السبب إلى اعتداء بعض أمراء الجنوب على مملكة برهان نظام شاه الثاني الذي طرده خصومه فالتجأ إلى الملك أكبر فأحسن مقابلته وساعده حتى استرد ملكه في سنة ١٥٩٠ وفي السنة التي تلتها أرسل الامبراطور أكبر سفراء من قبله إلى ملوك الجنوب في الديكان يطلب منهم الاعتراف له بالسلطة والسيادة عليهم ولكن عاد له السفراء برفض طلباته ما عدا السفير الذي توجه إلى ولاية كندس الذي كان واليها الراجا على خان وعلى أثر فشل مهمة السفراء أرسل أكبر الأمير مراد ابنه صحبة جيش تحت قيادة خان الخانات ابن بيرام فحاصر الاثنان مدينة أحمد ناجور ولكن قام بأمور الدفاع عن هذا المكان الأميرة المسلمة « شاندى بيبي » إحدى أميرات بيجابور والتي أثبتت بما أبدته من الشجاعة والمهارة أن المرأة المسلمة ليست أقل شأناً من المرأة الراجبوتية وقد ذكر أحد المؤرخين المسلمين وصف الموقعة التي جرت فقال إن الأمير مراد يؤيده صادق محمد خان كان يغار من خان الخانات فأمر الأول بالهجوم دون أن يخبر الأخير ليكون له فضل احتلال المكان بمفرده فأشعل خط الألغام الذي كان وضعه لنسف الحصن فانفجر من هذه الألغام ثلاثة فقط وأحدث انفجارها ثغرة في سور المدينة اتساعها ثمانين قدماً وانتظر المغول حتى تنفجر الألغام الباقية لكي تحدث أثراً كافياً ولكن من في المدينة من الحامية تمكنوا من افسادها قبل اشتعالها وتكاثروا حول الثغرة واستماتوا في الدفاع عنها وخرجت الأميرة « شاندى بيبي » ويغطي وجهها النقاب وأمرت بإطلاق المدافع وقذف الأحجار على رؤوس المهاجمين فصدهم في عدة كرات هجموا فيها وفي أثناء الليل وقفت بجانب العمال ولم تبرح مكانها حتى سدت الثغرة بالبناء والأخشاب والأحجار وجثث القتلى والتراب إلى أن صار ارتفاعها تسعة أقدام وبعد ارتداد جيش الأمير

فتحت المفاوضات للصلح وانتهت بأن يستبق الأمير مقاطعة بيدار الصغيرة التي سبق له اجتياحها على أن تستبق الأميرة « شاندى يبي » أحمد ناجور وعلى أثر ذلك أعفت الأميرة نفسها من الحكم وتنازلت لأخيها الصغير الأمير بهادر نظام شاه حفيد برهان نظام شاه الذي مات قبل وقوع هذه الحرب ولكن السلطة الحقيقية كانت في يد كبير وزرائه الذي سلك مسلكاً أثار الحرب من جديد وانتقضت بذلك أسباب الصلح واضطر عبد الرحيم خان الخانات أن يواجه جيشين في دفعة واحدة : أولهما من أحمد ناجور والثاني من بيجابور وخاض موقعة « أشنى » في سنة ١٥٩٧ وكانت من أشد الوقائع هولاً فان سهيل خان الذي كان يقود جيوش بيجابور أرغم الجيش الذي يواجهه تحت قيادة راجا على خان أمير كندس الى الفرار وكاد القائد يقع قتيلاً ولما أرخى الليل سدوله أوقد سهيل نورا فرأى خان الخانات جيش خصمه فامر بإطلاق المدفعية فاضطرب جيش سهيل من هذه المباغته وأدرك سهيل السر في ذلك فامر فوراً بإطفاء الأنوار وغير موقعة ليتفادى طلقات مدفعية الخصوم وشرع الجيشان المتقابلان يستعدان للقتال عند الفجر وافتتح سهيل الموقعة وخاضها باثني عشر ألف خيال وكانت موقعة على جانب عظيم من الشدة وقد اظهر فيها سهيل آيات الجلد والشجاعة ولما طال الأمد وكان قد أصيب بجروح متعددة انتابه ضعف شديد من نزيف الدماء فسقط من حصانه على الأرض وأدركه بعض أعوانه وحمله بعيداً وكما هي العادة تشتت جيشه بسبب انقطاعه عن الموقعة لاصابته فاستفاد خان الخانات وصار سيداً للموقف ولكنه لما كان في حالة لا تسمح له بمتابعة الفارين فقد عاد بجيشه الى شاه بور وتجدد القتال ثانية حينما حاصر المغول بهادر خان في قلعة عسير وهي ذات منعة شديدة وقد قاومت الخصوم سنة كاملة فلما امتد زمن حصارها جاء أكبر ليستنهضهم المقاتلين ولأنه ظن في بعض قواده تعمد التراخي ولم تسلم هذه القلعة إلا لما تجمعت فيها عوامل الخيانة وانتشرت بين حاميتها الأمراض الفتاكة ووقعت المجاعة بسبب نفاذ القوات وأخذ بهادر أسيراً في سنة ١٦٠٠

وأرسل الى سجن «جوالبور» وفي خلال هذه المدة عادت الأميرة المسلمة الشهيرة شاندى ييبى إلى الحكم في أحمد ناجور ولكن بكل أسف اتهمت بأنها على اتفاق سرى وأنها تواطأت مع المغول فقتلت ، ولما علم المغول بذلك عادوا الى محاصرة احمد ناجور فلم تثبت على الدفاع إلا قليلا وسلمت في سنة ١٦٠١ . ومن هذا العهد فقدت هذه المدينة كل ظل فى الاستقلال ولكن الولاية ثارت وبقيت فى ثورات متقطعة لمدة أربعين سنة وعين الملك ولديه مراد ودنيال على ولاية جوجيرات وولاية الديكان ولكنهما ماتا بعد مدة قصيرة من تعيينهما بعد أن فقد كل احترام يليق بمركزيهما ويعزى سبب وفاتهما الى افراطهما الزائد فى تعاطى المسكرات ولم يبق للملك غير ولد واحد اسمه سالم والأسباب التى دعت إلى تسميته بهذا الأسم ترجع الى أن أكبر قصى نحو أربعة عشر عاما لم يرزق فيها بولى عهد وكان قلقه شديدا من هذه الناحية وكانت جل أمانيه أن تسوق له العناية ولدا فان الأطفال الذين رزقهم ماتوا جميعا ومن أجل هذا كان يكثر الزيارات للاولياء والصالحين (توسلا وتبركا) واتفق أنه زار عند مدينة «سيكرى» شيخا اسمه سالم الشيشتى اشتهر بالتقى والورع ، وعاش عيشة التاسك يقيم هناك فى إحدى المغارات بمفرده فلما مر عليه الملك ورآه الشيخ بشره بغلام سيعمر طويلا ، فولدت له الأميرة الهندوسية غلاما سماه سالما وصار هذا الغلام امبراطورا للهند على أثر وفاة أبيه وهو المعروف بجهانجير ، وكانت ولادته سببا فى تعمير مدينة سيكرى وسميت «فتح بورسيكرى» وقد اعتاد الامبراطور أن يتردد عليها كثيرا وبني بها العظماء بيوتا وكانت أحسن مدن الهند بناء وحسن رونق وكانت بالنسبة للهند ما كانت عليه «يومى» أيام امبراطورية الرومان وما زالت هذه المدينة أن تنطق بأن هذا العالم كطيف خيال . ومحيط بنائها يبلغ سبعة أميال ولها سبع بوابات كبار وبها قصور على أكبر درجة من الدوق والتنميق فى حسن زخارفها وزينتها وبها مسجد عظيم بنى كله من الرخام النقى الناصع البياض وبجانبه معبد للشيخ سالم من نفس هذا الرخام ، وقد زارها سائح انجليزى بعد موت

مؤسسها بسنين قلائل فوجدها خرابا وأن من الخطر أن يمر بها انسان ليلاً
وما زالت مهجورة إلى وقتنا هذا وصارت تعتبر آثاراً ومع أنها في بهائها كانت
كقصور فرساي (بفرنسا) إلا أنه لم يحاول حاكم أن يسكنها بعده وكذلك لم
يخلق بعده من كان من طبقته من حيث عظمته وذوقه غير أن الزمن تنكر لهذا
الملك العظيم وجعل آخر عهده بالحياة أياما سودا حالكه حتى صار ينطبق عليه
قول الشاعر .

المرؤ يأمل أن يعيش	وطول عيش قد يضره
تفنى بشاشته ويبقى	بعد حلو العيش مره
وتخونه الأيام حتى	لا يرى شيئاً يسره

وكيف لا تكون أيامه الأخيرة جهداً وشقاء وقد رأى فيها انتقاضا عليه لم يره
في بدء حياته ثم أنه مات له ولدان وهما مراد ودينال ولم يعيش له غير ابنه الذي كان
دائم النفور منه وهو سالم وقد كان أكبر مغرماً جداً ببعض الشخصيات من
حاشيته وكان لا يرى العيش يطيب إلا بهم غير أنه فجع في أغلبهم وعاش بعدهم
ليحزن عليهم وعلى ولديه وفي مقدمة من رزى فيهم الملك الشيخ أبو الفضل
صاحب كتابي الأ أكبر ناما وعين الأخبار ونظر الغرابه قصة قتله وما يستخلص
منها من المعاني التي تفيد في شرح الأثر الذي تركته أعمال أكبر الدينيه
فسند كرها وهي كما يأتي :

كان الأمير سالم بن أكبر موضع سخط أبيه وكان يعتقد كل الاعتقاد أن
الكراهية والبغضاء التي يحملها والده له هي نتيجة تحريض الشيخ أبي الفضل
لدى والده وقد خشى سالم العواقب إن استمر الحال على ما هو عليه ففكر في قتله
خوفاً من أن ينجح لدى والده في إقناعه باسناد العرش إلى حفيده خسرو متعديا
لسالم فقرر أن يقتله ليكون بئامن من دسائسه فاتفق أن الملك أكبر أوفد الشيخ
أبا الفضل في مأمورية إلى ولايات الديكان في أثناء عودته كان الأمير سالم اتفق
مع أحد الأمراء الهندوسيين على أن يقتله فقام هذا الهندوسي بمأموريته دون تردد

وكان يجدر بمثله أن لا يطيع هوى الأمير ولا ينقاد له في هذه الأغراض الشيطانية خصوصاً إذا كان الذي سيقوم بقتله هو الشيخ أبو الفضل لأنه كان حر التفكير إلى درجة متطرفة جلبت عليه سخط كل مسلم بقي . علاوة على أنه كان أول المؤيدين بل ربما أول المحرضين لأكبر على انتهاج سياسة حسن التفاهم وحسن المعاملة للهندوس فكان قتله رداً مقنعاً على فساد نظرية أكبر لأنها إن دلت على شيء فأنما تدل على شيء فأنما تدل على أن كوا من الحقد في قلوب الهندوس لا يطفئوها حسن المعاملات ولا إسناد الوظائف اليهم ولا مساواتهم بالمسلمين ولولا ذلك ما قدم الهندوسي على قتل الشخصية التي كانت تعمل على انصافهم ووضعهم في مستوى أرفع في حياتهم .

الهند للهنود

قبل أن نختم حياة هذا الرجل العظيم يجب الاعتراف له بأنه كان أول شخصية في الهند شعارها الهند للهنود .

نعم أخفقت غايته الشريفة ولكن لم يكن الذنب ذنبه بل ذنب الهنود أنفسهم فالهندوس أساءوا استغلال ديمقراطيته والمسلمون أعمتهم عصبيتهم ومنعهم تعصبهم عن أن ينتهجوا طريقاً يوفقون فيه بين مركزهم الديني والطائفي وواجبهم الوطني كهنود ، وكفى أكبر نبلا وشرفاً أنه أول من جعل شعاره «الهند للهنود» حتى وإن لم يكن حقيقه وكفاه نغراً أنه كان سباقاً للخير عاملاً له جهده حتى كتب التاريخ عنه أن مغولياً قام وجلس على عرش الهند وصار هندي النزعة وشعاره «الهند للهنود»

جهانجير

١٦٠٥ - ١٦٢٧

في نهاية القرن السادس عشر ابتدأت السير والروايات تنتشر في أوروبا وغيرها عن ملك استطاع أن يخضع جميع أقطار الهند إلى سلطانه وأنه يسلك طريق العدل والحكمة في إدارته وأحكامه وأنه أظهر من الاعتدال والمساواة ما يسجل له بالمديح ولو أن حاكماً آخر قيس به لكان دونه وقد أكد الذين رووا هذه الاخبار في أوروبا لسامعيها أن المسيحيين إذا توجهوا اليه فانما يلاقون إكرامه وترحيبه وقد بلغ من حبه لهم أنه تزوج زوجة مسيحية . بمثل هذا وصف حكم الجالس على عرش الهند فنشأت في الكثيرين الرغبة في السفر الى تلك الأقطار النائية بعضهم بقصد التجارة وبعضهم للزيارة ونشر الدعاية للدين المسيحي وكان ضمن من ذهبوا فريق من الإنجليز وكان ماعرف عن الهند وقتئذ يكاد لا يذكر وكل ماعرف كان قاصراً على بعض معلومات خاصة ببعض الثغور يضاف اليها ماعرفه بعض المرسلين البرتغاليين في أوقات دعايتهم وكانت سيرة الملك الجذابة سببا في جلب الأوروبيين ونشطت حركتهم شيئا فشيئا حتى تكالبوا على هذه البلاد وتطورت غاياتهم من تجارية الى سياسية ترمى الى التهام هذه المناطق الواسعة الوفيرة الخيرات والاتجار ومشاركة أهلها في أرزاقهم فكانت فاتحة عهد جديد عهد غزو واعتداء ، عهد نهب واستنزاف ثروة وكانت أول بعثة أوفدت من إنجلترا في عهد أكبر يرأسها البحار المشهور هو كنز ولكنه وصل بعد موت الملك الموفد اليه بسنتين وكان يقود مركبا اسمها « هكتور » تابعة لشركة الهند الشرقية (البريطانية) ووجهتها سورات وكان القبطان يحمل خطابات من جيمس الأول ملك إنجلترا الى ملك كمباي الهندي فوجد أن ملك كمباي انتهى أمره وصارت ولايته تابعة للمغول جهانجير فلما رأى أن الرحلة ستأخذ وقتا طويلا ذهب بسفينته الى ميناء آخر يبيع المتاجر فقابلها أسطول برتغالي وأسرها

فلما تكلم القبطان الانجليزى باسم ملكه محتجا قوبل بالاحتقار والسخرية وقال له الضابط البرتغالى « ان صاحب الجلالة ملككم لم يكن إلا حاكما لبعض صائدى السمك فى جزيرة صغيرة لأهمية لها » ثم أعطى انذارا للانجليز بأن لا يعودوا للتجار فى هذه المنطقة من البحار مالم يكن لديهم رخصة من ملك البرتغال لأنها تابعة له . وهذه كانت أولى مقابلات هوكنز ولما دخل الهند لاداء رسالته الى امبراطورها قابله عدة مواطنين هنود من ذوى الاطماع فلم يستطع تنفيذ غرضه إلا بعد أن استعان بالهدايا الثمينة التى أعطاها الى الوالى الذى تقاهم معه بالتركية وكان يجيدها هوكنز ، وبعد سفر كله مشاق وأخطار وصل الى أجرا وقابل جهانبجير وكانت المقابلة ودية وحصل على الاذن للانجليز باقامة «فاوريقة» فى سورات وبالاتجار ولكن سرعان ما استطاع البرتغاليون التأثير على حاشية جهانبجير فجعلوه يلغى الاذن ولكن هوكنز بدوره وبوساطة الهدايا استطاع اكتساب مركز ممتاز لدى ملك الهند حتى أنه أبقاه عنده ومنحه لقب الخان الانجليزى وأعطاه قيادة أربعمئة فارس وجعل له مرتبا سنويا قدره ثلاثة آلاف ومئتان من الجنيهات ، ولم تكن هذه الزيارة ميمونة بل كانت فاشحة شر على الحكم المغولى فيما بعد فانه لم يمض إلا قرنان ونصف إلا وتغلب الانجليز على المغول وسلبوا عرشهم وقد كتب هوكنز مذكرات ربما كانت من أصدق ما كتب عن جهانبجير فقال إن ايراده يبلغ خمسين مليوناً من الجنيهات وجيشه ثلاثمئة الف مقاتل يصرف عليهم طبقة من الأشراف عينهم لقيادة جيشه وجعل لهم مرتبات واورادات يتناولونها للصرف منها على الجند وما يتبعهم من دواب وسلاح ومؤونة وكان فى بيت المال كثير من التحف الغالية ومن بينها خمسمئة قدح صنعت من حجر الياقوت وكان لديه من الخدم و « السياس » والبستانيين ما يقدر بستة وثلاثين ألف شخص ويقتنى اثنى عشر ألف فيل ومنها ثلاثمئة لركوبه الخاص وبلغت نفقات سراياته فى اليوم الواحد خمسين ألف روبية للرجال وثلاثين ألف روبية للحريم ويبلغ مقدار ذلك فى السنة مليوناً وسبعمئة وخمسين ألفاً من الجنيهات .

ومما ذكر هو كنز أن الملك لم يكن محبوبا بين رعاياه لقسوته الشديدة عليهم وكان الهندوس يتهمون به بأنه يؤثر مصالح المسلمين على مصالحهم على عكس ابنه فيما يتعلق بالوظائف والمعاملة . وكان مما يسر له جهانجير أن يرى تنفيذ حكم الاعدام ورؤيا الأفيال حينما تقطع من حكم عليهم إربا وكان مغرما بمنظر قتال الأفيال مع بعضها ويخصص أحيانا خمسة أيام في الأسبوع لذلك ويقال عنه أنه قتل سكرتيه لمجرد شك في إخلاصه دون تحقيق وأنه قتل خادما لأنه كسر آنية ، ومما كان يدخل السرور على قلبه إحضار بعض الرجال ثم يطلق عليهم في مكان محصور بعض الوحوش كالسبع ولا يبرح المكان حتى يظفر برؤية الرجل مقطعا إربا ويضاف إلى قسوته طمعه الزائد وشدة أحكامه فجنى بذلك ثمرة استيائهم منه إذ انتشر في أيامه اللصوص وقطاع الطرق واشتد الهياج في البلاد وكان يظهر في الصباح إلى رعاياه لكي يسموا عليه ثم ينام مدة ساعتين ويطلب بعدها الغداء ثم يعود إلى الحرم ويمكث إلى الساعة الثالثة ثم يخرج ليرى قتال الأفيال وبعض الألعاب الأخرى ، ثم يحيط به أشراف أجرا ويؤدون له فروض الاحترام ويسمع شكايه الساكنين ثم يصلي ويتناول عشاء من خمسة أصناف لا يأكل منها إلا قليلا ويفرط في الشراب المسكر ثم يدخل « صالونا » لا يصحبه إليه إلا من يعين اسمه وفي هذا الوقت يشرب خمسة كؤوس من الخمر وهو المقدار المصرح به من الطبيب . وكان هو كنز ممن يلازمونه ورآه فريسة للافيون إذ يتعاطى منه إلى درجة التخدير الشديد فيتركه من معه فينام وينبه بعد انقضاء ساعتين فيعود ثانية لتناول قليل من الطعام ولا يكون لديه وقتئذ القدرة على تناوله فيتولى ذلك أحد خاصته كما لو كان طفلا (فما أشد أثر المخدرات وما أشد عبثها) ويعود بعد ذلك فينام ثانية إلى الصباح وهكذا كانت حياة ابن أكبر ووارث عرشه وقد كان في مسدته يقاسى مستخدموا شركة الهند كل إهانة ولم ترع لهم كرامة وفي كثير من الأحوال كان يطردهم البوابون دون أن تنظر شكواهم إذا رفعوها للملك وكثيرا ما كانت تسرق بضائعهم

وأمتعتهم بل وكان بعضهم يسجن ويجلد ولما رأت الشركة سوء الحال انتدبت عنها السير توماس رو للدفاع عن حقوقها وجاءه تصديق ملك الانجليز على تعيينه وكان على جانب عظيم من العلم والكفاءة وحسن التربية وذا شخصية بارزة تفرض احترامها في أشد المواقف فلما توجه الى سراى المغول لأول مرة أثار شكوي الشركة بلهجة ا كتسبت احترام سامعها وقال إنه جاء يمثل ملك انجلترا وهو ملك قوى وحر لا يقبل لأحد من رعاياه هضما ولا ظلما وسمع كلامه من الوزير بشيء من الاحترام والاصغاء . وهذه أول مرة استعملت فيها لغة شديدة من أوروبى وقبلتها حكومة الهند . واتفق له مرة أخرى أن نزل بمدينة سورات ومعه حاشيته وأمتعته فأوعز الحاكم لرجال الجمر ك تفتيش هذه الأشياء فقامت قيامته واعتراض أشد الاعتراض على تفتيشه لكونه ممثلا للملك ولهذا يجب أن يكون معفيا من التفتيش عملا بالتقاليد ولما كانت هذه إهانة فإنه لا يقبلها ولو أدى الأمر للموت واستطاع أن يخيف الهنود لأنه أخرج صندوقا به مسدسات وقال إنه لا يتردد في استعمالها إذا اضطر لذلك مما جعل رجال الجمر ك يتساهلون معه وتلك أمور لو صح وقوعها في ذاك الوقت مع ما كانت عليه حكومة الهند من القوة التي تستطيع بها دفع مثل هؤلاء الأجانب بسهولة فإنها تكون قد مهدت السبيل لهم في ا كتساب مراكز ومعاملات ممتازة مما ساعدهم فيما بعد على التغفل في الهند وا كتساب السيادة فيها . ومما كان يحاوله السير توماس رو سعيه لدى حكومة الهند في كسب امتيازات مثل التي أعطتها تركيا للأجانب الذين تزحوا ببلادها للتجارة . فكانت كالغل في عنق الأتراك بعد عهد سليمان القانونى ونشأ عنها ضرر شديد حينما ابتدأ الضعف ينتاب تركيا . وقد امتدت مضار هذه الامتيازات إلى مصر ولا زالت ترزح تحت أثرها السئ وإن كانت ألغيت بمعاهدة منترو التي عقدت بين مصر والدول الأجنبية بواسطة صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا في عهد صاحب الجلالة الملك فاروق .

لم ينجح السير توماس رغما عن سعيه في كسب هذه الامتيازات لأن الهنود

كانوا وقتها قليل الاختلاط بالأجانب ولذا اتقوا التورط معهم في مثل هذه المعاهدات الضارة لكنه عرف أن يستعيض عن ذلك بوسائل أخرى فأوجد بينه وبين حكام الهند مودة ومجاملات قامت مقام المعاهدات التي كانوا يخشونها كثيرا ولهذا كان يلجأ الى استصدار أوامر مؤقتة ومحدودة المدة في مسائل التجارة .

ومما نجح فيه أنه صار يعامل معاملة البرتغاليين الذين كانوا يتمتعون بشيء من الرعاية الخاصة وفي مذكرات للسير توماس رو مديح كثير لجهانجير لما طبع عليه من الرقة وحسن المعاملة رغما عن بعض الحماقات التي كانت تصدر من بعض الموظفين عن جهل أو طمع . ومما أشار اليه أيضاً أن والى سورات حافظ دائماً على وعوده مع الانجليز وشهد أن معاملة الأجانب كانت حسنة على العموم ولم تكن تقسو معاملة الهنود لهم إلا في بعض الحالات التي كانوا يتوسمون فيها استخراج الهدايا بالخشونة . ومما لفت اليه السير توماس رجال الشركة ملاحظته أن البحارة الانجليز وبعض عمال الفاوريقات كانوا يكثرون الشجار والصخب وانتقد مثل هذا السلوك وقال عنه إن التجارة بوسائل العراك والعنف لا تسود ولا تخطو إلى الأمام كثيراً وهي خطة تتناقض مع حسن السعي والنجاح ، ومما دلل به على صدق ملاحظاته سوء العلاقة الواقعة بين الهنود والبرتغاليين والهولنديين لمحاولتهم ممارسة التجارة والزراعة بالسيف وقال أنهم وإن كانت مكاسبهم كثيرة إلا أنه في النهاية تستنزف وسائل العنف هذه المكاسب ومما نصح به السير توماس الاعتماد على الاتجار في البحار والسواحل وبطريق مسلم هادى ، هذا إذا أريد الكسب والربح الصحيح وإن من الغلط التورط في داخلية البلاد والاحتياج الى جيش من الحرس ، وللسير توماس مذكرات لم تتعرض لذكر داخلية البلاد بل كان أغلبها يتعلق بالملك وحاشيته ومما جاء فيها أن جهانجير لم يكن يعرف جيداً الفرق بين سفير دولة وبين قرصان المراكب وكان كثير المرح مع تطرف في المزاح يكاد لا يحتمل وكان السير توماس يضطر أن يشرب من مشروباته الروحية الشديدة ولم يكن اعتادها ولا ألفها فيضطر

لشربها احتراماً فيسكر ويسقط نائماً فيضحك الملك ومن معه مما حصل ويطفؤن
الأنوار ويخرجون ويتركونه بمفرده فلما يستيقظ يضطر أن يتلمس طريقه في
الظلام ومما رواه أيضاً أنه كان مغرماً بالفنون والصور والتماثيل وكان يقتنى منها
الكثير وكان مما زين به حجراته صورة الملكة ماري والأميرة اليصابات وكثيراً
من أشرف الانجليز وصورة لمدير شركة الهند الشرقية ، وقد أحضر فناناً من
الهنود وجعله يقلد صورة كان أبرزها السير توماس له فجاء التقليد كالأصل تماماً
ومن عاداته كثرة الأسئلة والاستمرار فيها فيقول ، كم كأساً تشرب ؟ ثم كم
ساعة تنام ؟ وما نوع ما تشرب ؟ وكم ؟ وكم ؟ . وقد دعاني من نومي
مرة فتوجهت الى السراى فوجدته جالسا ضاماً رجليه على عرش مكلل كله بالأماس
والجواهر وأمامه مائدة من الذهب عليها نحو خمسين آنية مرصعة بالأحجار
الكريمة وحوله الأشراف على أحسن هندام فيأمرهم جميعاً بالشرب ويشرب معهم
واستمروا على ذلك مما سر السير توماس أكثر من أى شيء آخر مضحك رآه
في حياته وكان جهانجير يترك شهواته قليلاً ويقلب مجلسه إلى مباحث نافعة ويناقش
في قوانين الشرائع المختلفة ، وفي مرة أثناء شربه التفت إلى السير توماس
وقال له يجب أن تعتبر نفسك منا فان عندى المسيحي والمسلم والهندي والعربي سواء
وأنا أحب الجميع ولا أبغض أحداً وفي بعض حالات شربه كان ينقلب مرحة
إلى بكاء طويل فنضطر إلى البقاء معه حتى يبارحه الدور وفي مرة رآه السير توماس
يأتى برجل فقير ويشركه معه في طعامه حتى إذا ما فرغ احتضنه وقبله
ثلاث مرات ووضع يده على قلبه احتراماً وخاطبه بلفظه « يا والدى » (الفقراء
طبقة من صلحاء الهنود يعتقد البعض فيهم الولاية) واعتبر السيد توماس هذا
نوعاً من التخريف ومن أعظم وأعجب الحفلات التي رآها عند جهانجير
(الاحتفال بميزان المغول) يوم عيد ميلاده وهى عادة خاصة بالهنود نحو ملكهم
فادخلت في حديقة يجرى فيها الماء وتكثر فيها الزهور والرياحين والأشجار
ورأيت ميزاناً منصوباً وكانت نفس الميزان مكحلة بالجواهر ومحيط بها الأعيان

والأشراف من كل نواحيها انتظاراً للملك وكان كأنه قد من أحجار كريمة لكثرة ما أزين به منها وعلى بغيته جلس القرفصاء في إحدى كفتي الميزان ووضع في الكفة المقابلة ، بعض الموازين لمعرفة ميزانه وكان في جانبها أكياس مملوءة بالذهب والفضة وأشياء أخرى ثمينة كالحرير ثم يليها الجبوب والزبد ، فبعد ميزانه يزنون من كل الأصناف مقدار وزن الملك ثم تقدم له كهديّة في هذا العيد ، ومما أشار إليه السير توماس المكاسب الباهظة التي جناها الولاة وضرب مثلاً بوالى بتنا فقال « إنه كان ضابطاً لقيادة خمسة آلاف خيال ويتناول من خزينة الحكومة مليوناً من الروبيات ولكن لا يتحتم عليه فعلاً إلا إيجاد ألف وخمسمئة خيال نفقها ثلثمائة ألف روبية فيكون صافي ربحه من الخزينة سبعمائة ألف روبية هذا بجانب ما كان يناله من ربح في عملية تحصيل الضرائب وبالأجمال فإن صافي ربحه لم يكن يقل عن ثمن ثمانين ألف جنيه وهو ما يقول عنه مؤرخ انجليزى حديث أنه يعادل أربعة أضعاف مرتب والى الهند البريطانى .

نور جهان

« وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسور المحراب ، إذ دخلوا على داود ففرع منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط وأهدنا إلى سواء السراط ، إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة فقال ا كفّلنيها وعزنى فى الخطاب قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه وإن كثيراً من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم وظن داود دائماً فتنة فاستغفر ربه وخر راكعاً وأتاب فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب . . . » (قرآن كريم) .

لما أتت النبی داود الشکوى القائمة بین الخصمین وقال أحدهما إن أخاه له تسع وتسعون نعجة وله واحدة يريد أخوه أن یغتصبها منه أدرك أنه المقصود تعريضاً بذلك لأنه طمع فى زوجة أورياه (فشر بختیئته وخر ساجداً وأتاب ولكن

جهانجير لم يجد على نفسه حرجا من أن يطمع في زوجات غيره رغما عما عنده من زوجات شرعيات وغير شرعيات فطمع في زوجة أحد من رعاياه إذ أعجبه شكلها أثناء سيره في طريق واستفهم من بعض من حوله فدلّه عليها واتضح له أنها ابنة رجل فارسي هاجر من بلاده وأقام بالهند ، ثم التحق بخدمة أكبر خان وكان مديراً لخدمة السراي وتزوجت ابنته بضابط اسمه على كولي بج الملقب بأسد الأفغان وكان ملتحقا بجيش المغول وفي وقت جلوس جهانجير على العرش أرسل الى البنغال وشاءت إرادة الملك أن تحقق شهوات نفسه فكلف واليه في البنغال أن يحاول إنجاز هذه الرغبة ، وذلك باقناع زوجها أن يطلقها فلما فوِّت في هذا الأمر ثار ورفض ولما أعاد حاكم البنغال الكلام معه طعنه الضابط فتكاثر عليه حرس الوالي وقتلوه وهكذا في سبيل شهوة الملك يحرم رجل شهم من زوجته ويضطر أن يقتل وأن يقتل فياليت جهانجير أخذ بأداب القرآن وانتهى بنواهيهِ ووعى تعاليمه فيكون بذلك قد تجنب الوقوع في شرك الشيطان وتجنب شقاء العائلات وإيلا من كل من سمع هذه القصة أو سمع عنها قصة هذه الزوجة التي ساقها بعض حشمه الى مدينة أجرا لتدخل ضمن الحرم ولكن وفاء لزوجها السابق رفضت رغبة الملك واعتبرته قاتلا لشير أفغان ولكن بعد استعمال كثير من التأثيرات رضخت لحكم القضاء وانحنت إرادتها أمام زخارف الحياة البائدة ونسيت عهد شير وتزوجت بجهانجير فكانت المرأة الوحيدة التي صار لها السلطان الأكبر عليه وسماها أولا « نور المحل » ثم أشركها في الملك وأباح لها التصرف حيث شاءت وسماها نور جهان (أي نور العالم) وأصبحت لها ولأهلها الكلمة العليا في تصريف أمور الدولة وامتلات بهم الوظائف السامية ، وفي بعض الأحوال كانت تجلس الملكة نور جهان في شرفة السراي وتطل منها ويقدم لها الأعيان والأشراف فروض الاحترام ويتلقون عنها الأوامر التي كانت تملها عليهم وضربت العملة باسمها ولقبها وكان كل فرمان لا يصدر إلا إذا أمضاه الملك والملكة معا ، وانتهى الحال بسبب ممارستها لكل الشؤون أن صارت هي الملك الحقيقي بينما كان جهانجير ملكا

بالاسم وكان شديد الإعجاب بها حتى أنه كان يقول إن من المستحيل استطاعة وصف جمال نورجهان وحكمتها وفي الواقع أنها كانت تفك المعقد من الأمور وتحل المضلات وما التجأ إليها مستجير إلا ظللته بحمايتها من كل ظلم أو ضغط وكثيرا ما عنيت بشأن البنات الأيتام الذين لا عائل لهم فاحضرتهم لديها وزوجتهم من مالها الخاص وكفلت لهم وسائل العيش وقد أسدت هذا المعروف لمئات منهم ونال والدها لقب اعتماد الدولة وصار رئيسا للوزراء ونال أخوها أصاف لقب اعتماد خان وصار رئيسا لتشريفات الامبراطور وبالرغم عما نالته هذه الملكة من الثقة وما كيل لها من المدح إلا أن أقاربها تعدد منهم أمور مخلة بعدالة الأحكام ووضع الأشياء في نصابها ولهذا صار نفوذها سيئا وضاراً وصارت الأمور توزن بميزان الغرض وفشت الرشوة مما أدى الى استياء كثير من النبلاء وعاد الزمن وتنكر لهم حتى انه في هذه الظروف انتشر الوباء بشدة وصار يتنقل من مكان الى مكان ويفتك بالناس ، ومن لطف الله على الهند في هذا الحين أن وسائل النقل السريع لم تكن وجدت ولذا قل انتشار العدوى وظهرت في جانب الأمراض ثورات وفتن في جهات متعددة ومنها ماوقع في البنغال وخروج بعض العائلات الافغانية وتكرر ذلك منهم ولكن الذي أخذ دوراً خطراً حروب رانا أوداي بور التي استمرت عدة سنين ولم تنته الا بعد جهد طويل ولم يتم النصر قبل تحملهم صدمات متعددة ومنها أن الأمير ابرويز ابن الملك الأكبر كاد يقع هو وجيشه في أسر الخصوم لولا فراره واسراع أخيه كرام بالحضور لنجده وتخليص الجيش وقد نجح في مهمته ومما جاء في مذكرات جهانبجير عن ابنه الثاني :

وصلتنا أخبار سارة تفيد أن الثائر العنيد رانا سنج عزم على التوبة والخضوع وتحقق هذا بوساطة ابننا السعيد كرام وقد وطد سلطتنا وأوجد قوى كافية لحراسة الاستحكامات الموجودة بمملكة رانا سنج والتي ظننا في أول الأمر أن من العسير احتلالها بسبب قلة الماء والأقوات وجذب أرضها ووعورة مسالكها

ولكن جلد كرام وثباته على المكاره وتحميل الخصوم (وخصوصا الأمراء منهم) الخسائر في أموالهم وأولادهم ونسائهم اضطرهم الى الرضوخ ثم إن الرانا سنج أرسل لابنه كرام يؤكده أنه مقابل العفو عنه سيكون مستعدا لتقديم فروض الطاعة وإرسال ابنه (كرهينة) في خدمة الإمبراطور غير إن رانا طلب راجيا أن يعفى من الحضور شخصيا لضعفه بسبب تقدمه في الشيخوخة ولقد أشار الملك الى شدة فرحه من هذه الأخبار خصوصا وأن خضوع الراجبوت لم يسبق أن كان تاما إلا في عهد حكمه — وانتهى الأمر بالصلح وجاء كرام حفيد الرانا وزار الإمبراطور ممثلا لجده ووالده وقد قوبل وعومل بكل احترام وبهذه المناسبة قدم جزية من أفبال وخيل وجواهر ولكن الإمبراطور رد له هدية تعادها ولم تعد تقم للراجبوت بعد ذلك قائمة وكان قبل هذه الحرب بمدة طويلة مات مان سنج وخلف ألف وخمسمئة زوجة وكان من أعظم الراجبوتين الذين حاربوا نفس الراجبوت محبة خان الذي ترك دينه واعتنق الدين الاسلامي وقد أظهر أعظم كفاءة في حروبه بجيش المغول في الديكان ولما انتهى البرنس كرام من حروب الراجبوت توجه الى إحدى جهات الديكان لقيام ثورة بها وأصر على أن يأخذ معه ابرويز أخاه الأكبر ولكنه عند وصوله الى كرام لم يعش إلا قليلا إذ أصيب بحمى ومات على أثرها وقد أشيع أن كرام تخلص منه ليصفوا له الجو في مسألة العرش ولكن لم يوجد دليل يؤيد هذه الاشاعة .

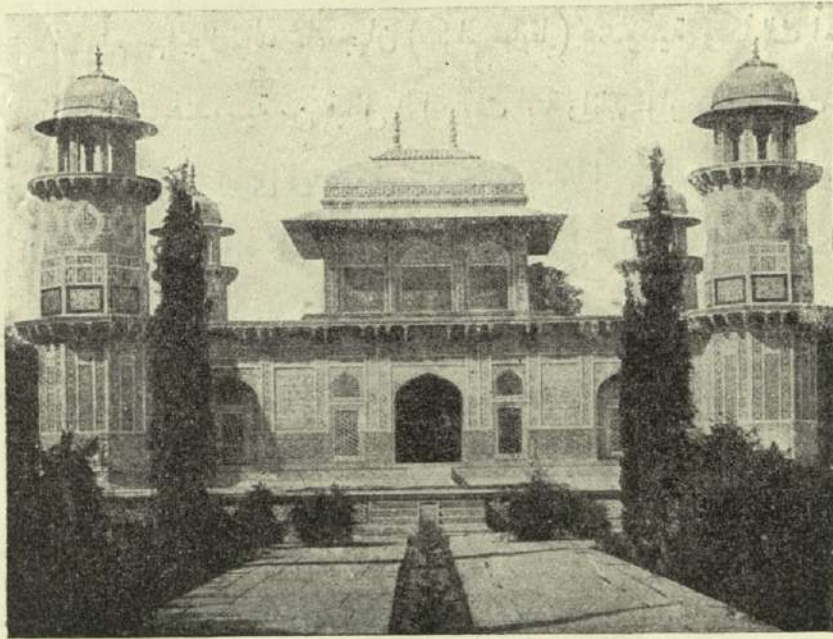
وقامت فتنة في مدينة قندهار في سنة ١٦٢٢ واحتلها شاه العجم في نفس هذه السنة غير أنها لم تمكث طويلا في حكم الفرس بل رجعت الى ملك شاه جهان امبراطور الهند ووارث عرش جهانبجير وكان استيلاؤه على المدينة المشار اليها في سنة ١٦٣٧

وقد بدأ مركز الأمير كرام يأخذ أهمية كبرى وكان يطمع الى العرش إذ صار أكبر قائد في الامبراطورية بحكم غزواته وأكبر ابن فقد انتصر على الراجبوت في أودات بور وعلى كثير من الرؤساء المشهورين بالديكان وقد كتب عنه السير

توماس » أنه لم ير شخصية أثبت ولا أشد رزانة من شخصية الأمير كرام وكان دائماً عابس الوجه ولم يشاهد مرة مبتسماً ولم يكن من المستطاع قراءة وجهه وقد صارت العلاقات بينه وبين نور جهان في المدة الأخيرة سيئة وقد صارحها العداء خصوصاً بعد أن تزوج ابنة شقيقها أضاف المسماة بتاج ويرجع سبب سوء العلاقة الى رغبة نور جهان في أن يختار زوجها جهانجير لولاية العهد ابنه الأصغر من زوجة أخرى المسمى بشهريار الذي كان متزوجاً من ابنة نور جهان من زوجها الأول شير أفغان وكانت أيضاً ترمى الى ابعاد كرام (فيما بعد شاه جهان) من تولى العرش لأنها كانت تخاف بأسه ولكنها لم تنجح في مسعاها إذ كانت رغبة جهانجير تولية ابنه الثالث الذي كان على طبع أبيه في كثرة الشرب فأدى الأمر الى قيام الحروب الداخلية في الهند وثار كرام على أبيه وبعد عدة محاولات لاستقلاله بولايتي بيهار والبنغال انهزم في سنة ١٦٢٤ ولجأ الى خصمه السابق مالك عنبر الحبشى ليحميه ثم توجه أخيراً وقدم خضوعه لوالده وسلمه ما بقي تحت يده من قلاع وحصون وسلمه ولديه داراً وأورنك ذائب (أورانج زيب) « كما ينطقها الانجليز » كرهائن في أجرا واضطربت الأمور لكثرة الدسائس حول الملك حتى أصبح لا حول له فعلى أثر ذلك حاولت الملكة نور كسب ولاء الجيش لناحيتها إلا أن محبت خان لم يقبل أن ينحاز اليها لأنه رأى أن مركزه في القيادة بل وحياته ستكون في خطر منها وفي الحال لجأ الى أجرا طريق بأن أسر الملك جهانجير بينما كان يسير بمفرده على مسافة من حرسه الخاص وذلك عند ما كان يعبر كوبريا على نهر أثناء سيره الى كابل لاختضاع ثورة بها سنة ١٦٢٦ ولكن زوجته نور جهان لم يستول عليها أى جزع أو ارتباك من هذه المفاجأة غير المنتظرة ولم تفقد شيئاً من ذكائها ولا من شجاعتها بل ذهبت سرّاً الى حرس الملك وتوجهت

على رأسهم لمصادمة الفيلق الذى كان تحت قيادة أسرته وركبت أثناء سيرها على
فيلها وتسلحت بالقوس والنشاب ولافساد خططها بادر الراجبوت الذين تحت قيادة
محبب خان الى احراق الكوبرى غير أنها أسرعت وعبرت فى مقدمة الذين
استطاعوا العبور لمقاتلة محبب خان وكان المنظر مرعبا يسوده الاضطراب العظيم
لكثرة الخيل والأفيال التى وقعت فى الماء والتى ديست بالأقدام من شدة
الازدحام وكانت موقعة تشبه موقعة الجمل من وجوه متعددة إذ مات كثير من
حرسها حول فيلها فى سبيل تفانيهم فى الدفاع عنها وكثر تساقط الكرات النارية
والسهام حول هودجها حتى أن سهما أصاب ابنة طفلة من بنات شهربار كانت
معهما وأخيرا قتل سائق فيلها ثم ان نفس الفيل الذى تركبه أصيب فجمح بها ونزل
فى النهر وغاص ثم خرج الى الشاطئ فأحيطت الملكة بكثيرات من النساء
اللاتى هرعن اليها صارخات يعلو وجوههن الحزن فوجدنها ملطخة بالدماء وتخلص
السهم من الطفلة وتربط جرحها وفى نهاية الأمر شعرت الملكة بنحيبتها فى التجائم
الى الحرب المكشوفة فلجأت الى الحيلة وفى الخفاء اتصلت بزوجها الأسير
وأقامت معه واستطاعت أن تؤثر خلال ذلك على كبار ضباط الجيش فأنحازوا الى
ناحياتها ولما شعر بذلك محبب خان وأن وحدات الجيش تخاذلت عنه تركه وفر
الى الأمير كرام . ووجد جهانبجير نفسه طليقا مرة أخرى فتوجه الى كابل وأخضعها
وعاد الى مدينة كشمير التى كان مغرما بها والتى كان يصرف فيها فصل الصيف
فأصيب هناك بمرض قاتل ومات قبل أن يدرك الستين من عمره فى نهاية
سنة ١٦٢٧ ولم تكن هناك فائدة للذين يحاولون اغتصاب الملك من يد كرام
الذى انضم اليه أقوى قائد وهو محبب خان والجيش بأكملة وقد أيد أيضا أضاف
خان رئيس الوزراء الأمير كرام وهزم الأمير شهربار ثم قتله وطلعت الملكة

نور جهان الحياة العامة ولجأت الى عيشة خاصة هادئة ولبست الثوب الأبيض
حزناً على زوجها المحبوب وعوملت معاملة ممتازة وأعطيت معاشاً كبيراً
ولكنها لازمت عزلتها وماتت في سنة ١٦٤٦ ودفنت بجانب زوجها في
مدينة لاهور



مقبرة الملكة نور جهان

شاه جهان

العظيم

١٦٢٨ — ١٦٥٨

كانت أم جهانجيز والد شاه جهان (كرام سابقا) هندوسية وكذلك أم شاه جهان فانها كانت هندوسية من قبائل الراجبوت ابنة رانا مروار وعلى ذلك فان أكثر الدم الذي كان يجري في عروق شاه جهان هندية أكثر منه مغوليا وكان رأى السير توماس فيه أنه كان رجلا متحفظا عاى الطبع مغمورا في الدسائس السياسية ولا تهمه العقائد الدينية غير أنه كان يحابى جنس والدته — كان هذا رأى الذى قاله السير توماس فيه أيام أن كان أميرا ولم يكن جلس على العرش بعد ولكن يظهر أن تنبؤات كل من كتبوا عنه كذبها المستقبل إذ أنه بعد أن ولى العرش وأمن شر خصومه بالقضاء عليهم اختفت منه طباعه السيئة وظهرت طباع جديدة على جانب كبير من الرقة والتواضع وهو أول مغولى ألغى عادة ركوع الناس وسجودهم له في أوقات المقابلات وأسدى معروفات كثيرة للمحتاجين وحافظ على مظاهر الملك الخلافة التى كان يهتم بها ويميل إليها الهنود وكان أحب مغولى لديهم وإن لم يكن المثل الأعلى لدى الهندوس وكان فيه نزعة لعدم مساواة الهندوس بالمسلمين ، وأول من زكى هذه الروح عنده زوجته ممتاز محل (أى المصطفاة فى الحل) وقد ولدت له زوجته هذه أربعة عشر من البنين والبنات والبناء الذى دفنت فيه بأجرا يشهد بمقدار تفانيه وحبها فانه ليس بالهند بناء أحسن منه وليس فى الهند بل ربما كان أحسن بناء فى الوجود ومع اهتمامه بشؤون دينه فانه كان دائما يتحاشى جهد الطاقة أن يركب الدين السياسة فيتسلطن عليها

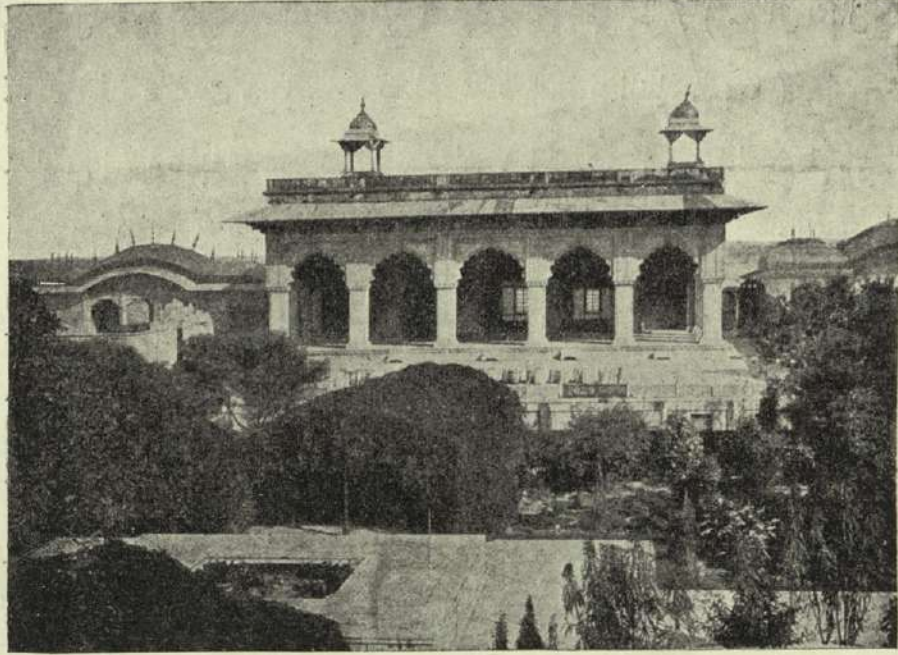


شاه مهراڻ

هو كان كثير من قواده هندوسا وكان سعد الله رئيس وزارته هندوسيا مولدا غير
أنه اعتنق الدين الاسلامي وكان يحسن معاملة المسيحيين من كل الأمم إلا أن
حسن معاملته هذه لم تمتد إلى البرتغاليين بسبب ما طبعوا عليه وقتلوا من قرصنة
في البحار الهندية كرهته فيهم وقد هدم الجاهير في غضبة دينية لهم كنيسة
برتغالية وكان عهده أسعد عهد رآه الهنود وكتب عنه أحد الفرنسيين الذين

زاروا الهند أن موقف الملك بين رعيته كموقف والد بين أولاده وكان يشهد له بالعدالة في الأحكام وانتشار الأمن والطمأنينة في وقته ، أما ما سجله عنه بعض المعاصرين له من مؤرخي الهندوس فقد فاق كل مديح من مؤرخين أورو بين كانوا أو مسلمين ومما قاله الهندوس عنه أن عدالته وحسن عنايته بالفلاحين وعقله الراجح الذي استخدمه في تحسين حال رعاياه وكرمه واعتدال الحياة في زمنه قد توج الهند بالسعادة ولقد كانت فخامة المظهر الذي يحيط بالعرش وسخاء الملك مما جذب اليه القلوب وكان دائما يبدى شفقتة ما لم يضر ذلك بالصالح العام أو يسبب له تعبا شخصيا غير أن الملك بعد زمن تغيرت أطواره فاندفع في كثرة الصرف على فخامة العرش وعلى من حوله وزادت فيه هذه الصفة ونشأ معها عادة أخرى استنزفت أموالا كثيرة فانه بنى في الهند ما لم يبن مثله أحد وغالى في ذلك كثيرا حتى رفع درجة المباني العامة الى أعلى مقياس في الفخامة وحسن الرونق ، ومن أشهر مبانيه مسجد ومقبرة تاج محل الشهيرة بأجرا وبنى سرايات تطأطأ لها رؤوس الفنانين في فن المباني احتراماً من حيث علو ذوقه في البناء ، وكل هذه المشروعات كلفت الخزينة العامة فوق طاقتها ولكن مما يقتفر له ذلك أن مدة حكمه خلت من الحروب الكثيرة التي كانت تقضى على الحرث والنسل ، ولم تسكن أخلاق هذا الملك ثابتة فبعد ما أبداه من سخاء انقلب هذا السخاء شحاً وجشعاً حتى كاد يحتضن أكياس الذهب والجواهر التي كدسها طول حكمه من شدة تعلقه بالمال وانقبضت يده عن العطاء .

وما يذكر له بالمديح مطاردته البرتغاليين من الهند مطاردة عنيفة هدمت آمالهم وقضت على أحلامهم التي كانوا يريدون من ورائها انشاء امبراطورية برتغالية هناك وحسنا فعل وليت سياسته من ناحية الاستغلال الأوروبي كانت

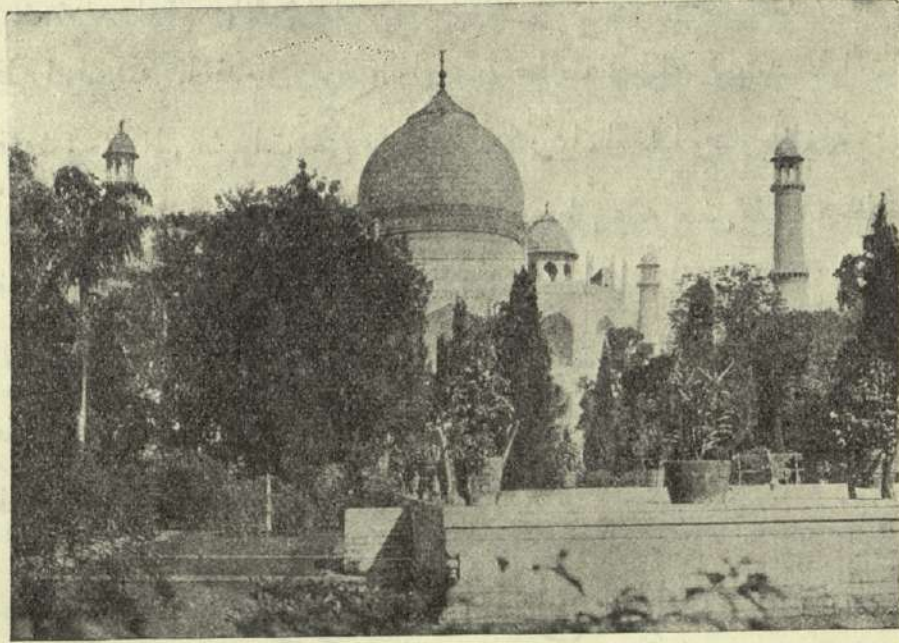


سراية شاه مهران بمدينة امرا

شاملة لجميع الأجانب لأن غرض القوم لم يكن محض الاتجار بل جاءوا يأترون
على امتلاك البلاد واستعباد ساكنيها .

وجاء في مذكرات كتبها مندليس وهو سائح أوروبي وصفا عن بعض
الحالات والجهات في الهند قال « ان السفر في جوجيرات لم يكن مأمون العاقبة
والسير بين الراجبوت ويجعل الانسان دائما أمام قطاع الطرق فلم يكن الانسان
يستطيع أن يسافر إلا اذا كان مع قافلة كبيرة ومع ذلك فانه كثيرا ما كانت
تضطره الظروف للدفاع عن حياته . » وما رواه عن والي أحمد آباد أنه كان
يتوخى العدل في القضايا التي يفصل فيها وكان حسن الفهم إلا أنه من ناحية
أخرى كان متسرعاً قاسياً فانه استدعى بعض بنات من الراقصات ليرقصن في
حفلة كان معه فيها رئيسان لفاوريقتين أجنبيتين فلما لم تمتثل الراقصات للحضور

أحضرهن قسرا وقطع رؤوسهن أمام ضيوفه وقال لزواره إني أؤكد لكم أنى اذا لم أعامل القوم بمثل هذه المعاملة فلن أستطيع أن أبقي حاكما (مع أن أمثال هذه المعاملة الجائرة كانت من أسباب ضياع الهند فعاقبة الظلم وخيمة) . ووصف مندليس أجرا بأنها أحسن مدن هندستان (لم تكن دلهى الحديثة بنيت) وأشار الى اتساع شوارعها وأن بعضها كان مغطى وفيه كثير من محال التجارة وكان لكل صنف من المتاجر شارع خاص به وكانت توجد خانات لأجل اقامة ثمانين قافلة أجنبية وأغلبها ذى ثلاثة أدوار يتبعها مخازن وخزائن واصطبلات ولقد أحصى هناك سبعين جامعا كبيرا وثمانمئة حمام عام بها الماء البارد والساخن ورأى داخل البلد وفي خارجها سرايات للراجات والأعيان وأعظمها السرايات الامبراطورية التى كانت محصنة ويحيط بها خندق عليه كوبرى متحرك وكان بها ثلثمائة مليون من الجنيهات وكانت الثروة يوميا تزايد لأن الضرائب كانت تجبى من كل الممالك ويتوفر منها الكثير سنويا . ومعظم الألقاب تأتى من طريق الكفاءة لا المولد وكانت أجرا مأهولة بكثير من السكان حتى كان من الممكن تجديد مئتى ألف مقاتل منها وكان أغلبية سكانها مسلمين وكانت ضرائبهم تبلغ عشرين البضاعة وكان جيش شاه جهان الراكب يتكون من مئة وأربع وأربعين ألف حصان خلاف الجمال والأفيال وسلاحهم القوس والسهم والخطاف والخنجر والمدى والدروع للوقاية وبعضهم كان يحمل البنادقات ويجيد اطلاقها وكان من أحسن وسائلهم فى الحروب الأفيال ، إلا أن استعمال النار والبارود كان يخيفها فتحدث الكثير من الفوضى والأذى وكان لديهم قوة مدفعية كبيرة ويصنعون نوعا من البارود ولكنهم كان أقل جودة من بارود أوربا وكان يعين الملك فى مهام الدولة من ذوى الكفاءة أصاف خان . ولقد شيد الملك دلهى الجديدة أو شاه جهان آباد وأوجد بها أحسن سراى فى الشرق حيث استمر فيها البناء



تاج المحل بمدينة امرا

عشر سنوات وهى فى وسط بناء قلعة محيطها ميل ونصف ويرتفع حائطها ستين قدما عن جسر النهر وبه برجان ارتفاعهما مئة وعشرة من الأقدام ويشرفان على المدخل الأسمى ، وتوجد بوابتان كبيرتان تطلان على نهر جمنا . وفى الداخل عدة مبانى ومنافع متعددة كحمامات ومخازن وغيرها . ويشق القلعة مجرى ماء مصنوع من الرخام يصب فيه ماء النهر النقى وتاريخ تشييد الجامع سنة ١٦٥٨ أى فى السنة التى صار فيها خلع شاه جهان . وهو مشيد على ربوة صخرية تعلوه ثلاث قباب وبرجان عالين إرتفاعهما مئة وثلاثون قدما ومساحة فناء الجامع الخارجى تبلغ ألفا وأربعمئة ياردة مربعة والبناء الداخلى مبلط بالرخام الأبيض والأسود ويسع تسعمئة من المصلين وفى هذا البناء الفخم صرف الملك آخر أيامه المفعمة بالرفاهية وكانت حفلاته العامة وعيشته على جانب عظيم من الأبهة والبذخ ولقد انغمس الملك وحاشيته فى رفاهية زائدة فقل فيهم النشاط وألفوا الراحة ، مع أن

شاه جهان كان في شبابه جنديا شجاعا وقائدا ماهرا ومستشارا حازما وحاكما قديرا ولكنه كما تقدم في عمره تنازل عن صفات رجولته وابتعد عنها شيئا فشيئا وجنح الى الشهوات حتى نالت منه أكثر مما نال منها وصار العوبة في يد أولاده وقد صارت أعباء الملك حملا ثقيلا عليه يعطل عليه بعض ملاذنه وحظوظه فلما يوفّر على نفسه عناء العمل بدأ في توزيع أعمال المملكة على أولاده الأربعة فأعطى لكل منهم إقليما من الأقاليم البعيدة لإدارة شؤونه وكانت هذه طريقة جوفاء أراد بها الراحة فجرت عليه المتاعب واكتسحته وذهبت بعرشه فيما بعد .

ثورة الأبناء على الآباء

كان أول من ثار على شاه جهان عقب اسناد حكم بعض الولايات لأولاده - ابنه شوجاه الذي غزا في طريقه الى أن وصل الى مدينة بنارس ولكن صده هناك سليمان شيكوه الابن الأكبر لدارا شيكوه وكان معه جيش راجبوتي يرأسه الراجا جاي سنج فأخذ شوجاه بغتة وتشتت جيشه واضطر الى التقهقر نحو البنغال وكان في وسع الراجا القبض على هذا الأمير إلا أنه خشي تقلبات الأيام فحفظ لنفسه خط الرجعة ولقد كال له العذر في ذلك لأنه إذا سلمه لدارا قتله ومن أجل هذا لا يأمن غضب الأب ولقد سلك كل القواد الذين ساهموا في هذه الحركة بتحفظ الى أن تنجلي الحالة الغامضة التي كانوا فيها .

وجاء دور الأمير مراد وكان معه جيش من جوجيرات فحاصر به مدينة سورات وبعد طويل احتلها ووجد فيها مقادير من الأموال كافية للصرف على جيشه ووقعت عبارة من المضحكات فقد كان « مير جملا » الذي يلازم الأمير أورنگ زائب وترجمتها زينة العرش (وهو الذي صار فيما بعد معروفا بالامبراطور

عالم جبر — سيد العالم) فقد كان الأول أغنى أهل زمانه وكان الجيش الذي يقوده يمتاز على غيره بحسن النظام وكان تضامنه مع أورنك مسألة حيوية لهذا الأمير اذ لم يكن يأمن أنه اذا ترك مير وتقدم ضد أخيه دارا فربما طارده مير جملا من الخلف خصوصا وعائلته كانت متروكة عند الملك كرهائن فاقترح عليه أورنك أن يتظاهر بالعصيان وأنه يقبض عليه في هذه الحالة لكيلا تلتهمهم حكومة شاه جهان بمآلاته للأمير وكذلك دارا لا يشك فيه فلما وافق وأدخل السجن ثار جند مير جملا انتقاما لقائدهم وتمردوا أمام السجن شروعا في اخراجه ولما رأى أورنك أنه لا يمكنه اخضاعهم دخل السجن وأطلع مير على حقيقة المسئلة وكلفه استدعاء ضباطه وافهامهم حقيقة الأمر المتفق عليه سرا لصالح الطرفين فلما سمع ضباطه منه ذلك أقنعوا جنودهم بترك التمرد فورا وفي الوقت نفسه اتصل الأمير أورنك بأخيه مراد وكتب له قائلا « ليس لدى أقل ميل أو أى رغبة في أن أساهم أو أعمل بأى حكومة في هذا العالم الضال المزعزع وكل مطمع لى في الوجود الحجج الى بيت الله ولكن كل اجراء تتخذة أنت لمقاومة دارا الملطخ بالعار والذي لا يصلح لشيء » اعتبرنى لك عوننا فيه وحليفا وبما أن والدنا مازال على قيد الحياة فيجب أن يبقى كلانا في خدمته ويجب أن نعاقب دارا على غروره وجبروته فاذا تحقق غرضنا وصار من الامكان مقابلة والدنا فيمكننا أن نرجو منه طلب العفو عن دارا الذي تورط في موقفه هذا وبعد ما نعيد الحكم الى نصابه ونعاقب خصوم العرش فسنعود الى اصلاح عوج أخينا ونأخذه الى زيارة الكعبة المقدسة ومن المهم أن لا تضيع لحظة بل يجب أن تقوم فوراً الى مهاجمة « جزوانت سنج » الكافر ويجب أن تعتبرنى واقفا جنبك على نهر (نربدا) ويجب أن تعتبر جيشى الكبير ومدفعيتى القوية ضمن الوسائل التى تضمن انتصارك واعلم أننى أجعل كلمة الله عهدا بينى وبينك لتنفى وتخرج كل شك نحوى من رأسك »

وهذه الرسالة التي أرسلها أورنك لأخيه كان كافية لانضمامهما وتضامنها واتصلا
معا في برهان بور وزحفا شمالا ولم يصادفهما أحد لمدة شهر ولكن بعد ذلك تقابلا
مع جيش دارا و كان يقوده قاسم خان وراجا جزونت سنج ولم يكن القائد الأول
يحب دارا وقد فتح أورنك مفاوضة سرية بواسطة أحد البراهمة وأخبره أنه يكره
الحرب وأن غرضه زيارة والده والمطلوب إما أن تحضر لمصاحبتى أو تتجنب
التعرض لى حقنا للدماء ومنعاً للشر ولكنه لم يفلح فى مفاوضته واستعد الطرفان
للحرب ولا شك أن قاسم خان سلك مسلكا رديئا بينما حارب الراجا وجيشه
بمنتهى الشدة والحماسة الا أن الجيش تحطم ولم ينج منه غير خمسمئة أو ستمئة
مقاتل وكان من بينهم الراجا الذى حينما وصل الى بيته رفضت زوجته قبوله
عندها ورفضت أن تصدق أنه بذل كل ما فى وسعه وقالت أن الراجا بوى خصوصا
من كان يفتسب الى عائلة كهائلة زوجها يجب أن ينتصر أو يموت وقامت بجزاة
ومرت بها فى المدينة وفرضت أن زوجها قد مات فعلا ومضت أيام طويلة قبل
أن تغفر له غلطته ووقعت معركة الاخوه فى أوجين سنة ١٥٥٨ ورغمما عن شدة
الحرارة التى كانت فى الجهات المجاورة لأجرا استمرت جيوش الأخوين فى السير
الى أن وصلت الى شمبال وهناك تقابلت مع جزء من جيوش الامبراطورية تحت
قيادة خليل الله خان ولم يكن وصل باقى جيش دارا الذى كان مشتبكا مع الأمير
شوجاه وتوجه دارا الى شاه جهان وتكلم معه فى شأن قمع حركة أخويه مع
إظهار الاصرار على هذه النية فدعا له والده بالبركة والتوفيق وقال له « مادمت
مصمما على السير طبقا لارادتك فتذكر جيدا هذه الكلمات القليلة : وهى أنك
إذا خسرت الموقعة فضع فى ذهنك أن لا تحضر أمامى مرة ثانية »

وعاد دارا وبدأ القتال بينه وبين أورنك وامتازت هذه المعركة بوجود
عناصر أوروبية مختلفة فى الجيشين خصوصا فى قسم الطوبجية . وهجم رستم خان

من ضباط الديكان القدماء المدربين على مدفعية أورنك ولكنه رد بعد قتال
عنيف . وهجم جيش من الراجبوت على الجناح الذى كان فيه الأمير مراد ولكن
الأمير مراد أصاب قائدهم الراجا رام سنج بسهم فى جبهته فقتله ففر أغلب الراجبوت
الذين كانوا معه وأما فيما يتعلق بالهجوم على قسم أورنك فان دارا هاجمه بشدة
واستمر فى تقدمه حتى ظن أنه هزم أخاه وتراجعت عساكر أورنك خطوة
بعد خطوة وهجم الراجبوت هجوما عنيفا لم يبد بعده أمل لنجاة أورنك ولا زال
النصر فى جانب دارا خصوصا وان الأمير مراد فر من الموقعة فلما رأى أورنك
الخطر داهما أمر أن تربط الأفيال ببعضها فى السلاسل وذلك تصميما منه على
الانتصار أو الموت وقرب نهاية الموقعة اقترب منه ضابط متملق أو خائن ونصح
له بالنزول عن الفيل وأن يركب حصانا حيث يعتبر أنه كسب الموقعة وذلك
استعدادا لمطاردة المنهزمين ولكيلا يصير هدفا نزل أورنك عن الفيل وارتفعت
أصوات عالية بان دارا قتل فاستولى الذعر على جيشه وتفرق يمينا وشمالا وفى وقت
قصير تحول الجيش المنصور الى شرادم من الهاربين وعلى أثر ذلك كسب أورنك
الموقعة وهرب دارا الى أجرا وبعد اقامته بها بضعة ساعات قليلة فر الى دهلى وترك
شاه جهان بحصن أجرا وطلب الامبراطور الى ابنه أورنك ذائب أن يحضر اليه فى
قسم الحريم ولكن الابن لم يأمن على نفسه من الأب وقد منعه عن الحضور
إيعاز من إحدى شقيقاته تحذره من الحضور فلن يخرج حيا فاحتل أورنك البلد
أولا وصار مركزه فيها آمنا وأرسل ابنه محمد ليحتل الحصن الذى يقيم به جده
بقوة من الجند ففعل ما أمر به . ولما توثقت له الأمور وهدأت حالة الاضطراب
أعلن أنه سيتخلى عن العرش الى أخيه مراد الا أنه طلب منه أولا أن يصحبه فى
اقتفاء أثر دارا وكثيرا ما نصح عباس الأغا باشا كبير أغوات مراد له بان يكون على
حذر من الأمير أورنك لأنه ينوى القدر به ولكن مراد الطائش لم يصغ لنصائحه

وفي مدينة مترا أقيم احتفال كبير في خيام أورنك ودعى اليه الأمير مراد وبمجرد
حضوره اذ كانوا في انتظاره رتب أورنك كل شئ مع ميرخان وأربعة من أخلص
ضباطه الذين حينما أقبل الأمير مراد عليهم تسابقوا الى تقديم تحياتهم له مع اظهار
علامات الخضوع والعبودية وتغالوا في ذلك حتى صاروا يمسحون عرق وجه
الأمير بمناديهم ويتولون تنظيف ثيابه بأيديهم مما علق بها من غبار ويخاطبونه
بلغة الملوك ويقولون له « يا صاحب الجلالة ». وفي خلال ذلك جرى بطعام العشاء
فجلس الأميران وحاشيتهما المعينتين وبدأوا حديثهم الودى وصاروا يتبادلون
التكلم في مسائل متعددة كسابق اعتيادهم وفي النهاية أحضرت زجاجة ضخمة
من نبيذ شيراز و بعض زجاجات من أصناف أخرى جيدة وفي هذه اللحظة
انسحب أكثر المدعوين ليتاح للضيف حريته وكان ضمن من انسحبوا الأمير
أورنك وخرج مبتسما بعد أن قال لهم سأترككم الى شرابكم لتناولوا منه حظكم
حيث لا شأن لي به وكرر على الأمير مراد أن يغتنم فرصة اللذة بالشراب كما يشاء
هو ومير والضباط ومع أن مراد كان مغرما بالشراب فإنه صمم أن لا يتعاطى منه
بافراط غير أنه بعد تناول اليسير منه غلب عليه النعاس فنام وكان ذلك ما ينبغي
المتآتمرون وفي هذه الحالة تخلى كل الخدم ليتاح للأمير أن يأخذ سنة من النوم
وأمرؤا بالذهاب بعيداً لكيلا يحدث أحد ضوضاء تقلق راحة الأمير أثناء رقاذه
ولم يغف الأمير أورنك طويلاً بل عاد حيث يوجد الأمير مراد وركله برجله
بشدة فاستيقظ ووبخه على ذلك واستفهم منه مراد عن معنى هذه المعاملة الشاذة
فقال له أورنك « يا للعار والحطة وأى ملك يكون مثلك اذ كيف تنحط أخلاقك
لدرجة أن تبيح لنفسك أن تكون سكيراً؟ وماذا يقوله الناس عنك دعنى اذا
رأوا مثل ذلك؟ » وأمر بعض رجاله بصوت عال قائلاً « خذوا هذا السكير
العرييد وقيدوه في يديه ورجليه وأطرحوه في حجرة حتى يفيق من سكره ورغما

عن رجاء مراد وتضرعه أن لا يعامل مثل ذلك فإن الذين تلقوا الأمر نفذوه فيه فوراً وفي خلال الليل كله انبث دعاة أورنك لنشر الدعاية لصالحه بين ضباط مراد وعند طلوع الصباح كان كل الجيش بصوت واحد ودون أن يدخل عليه أى اضطراب يهتف وينادى بأورنك ملكاً . وأرسلت فصيلة من الأفيال عليها هودج مغطاة ووزعت في جهات مختلفة لتضليل الباحثين عن مراد فيما لو قام فريق من أتباعه للبحث عنه وتخليصه بينما كان هو مأخوذاً إلى دلهي وأودع في السجن حيث نفذ فيه الإعدام دون محاكمة وقيل في رواية أخرى أن تهمة من بعض أبناء الأشراف وجهت إليه في قتل والدهم حينما كان في جوجيرات وربما كانت التهمة صحيحة ، ولكن لم يكن أحد يستطيع توجيهها أو محاكمته من أجلها لو لم يوعز أورنك بذلك وقد ثبتت التهمة بعد محاكمة صحيحة وحكم عليه بالإعدام فجاءوا له بحجة ولدغته وهذه من إحدى وسائل التنفيذ لدى المغول وتقدم بعد ذلك أورنك بجيش نحو دلهي وعسكر في حديقة خارج سور المدينة ، وفي اليوم السادس عشر من يوليو سنة ١٦٥٨ جلس على العرش دون ضوضاء أو احتفال حسب التقاليد التي كانت تتبع حين جلوس ملك على عرشه ولا زالت الخطبة تتلى باسم والده وكذلك بقيت عملة النقود على حالها باسم شاه جهان ولم يبق دارا بدلهي بل حينما دخلها أخوه كان هو في مدينة لاهور ولم يرق له البقاء فيها لأن أورنك أوفد جيشاً إلى لاهور وكانت قوة دارا منهوكة غير منظمة فلما علم بقدوم الجيش أسرع وأخلى المدينة وجعل وجهته ملتان في نفس الطريق الذي سلكه همايون من مئة عام مضت وكان ذلك سبباً في فشله النهائي إذ أنه لو ترك هذا الطريق لكثرة ما يعترضه فيه من المشاق وقصد كابل عاصمة الأفغان وتوجه إليها مباشرة لكانت النتيجة خيراً له إذ كان سيجد هناك محبت خان وهو من خيرة قواد أبيه ولا شك أنه كان يؤيده من أجله وكان إخلاص

محبت خان للملك مشهورا من يوم نشأته ولو أن دارا كان من حظه مقابلة محبت خان لوجد عنده أموالا بالخزينة ووجد من يجهز له من الأفغانين جيشاً أصح للقتال وأشجع في النزال من جيوش الهند الضعيفة ولكن أيام دارا أقبل شرها وأدبر خيرها فاذا كان الخير في اليمين اتجه دارا نحو الشمال لسوء حظه ولو لم يكن سىء الحظ لذهب لغوره الى كابل حيث كان والده أرسل خطابا الى محبت خان يوصيه بمعاونة دارا ولكن دارا الذى شعر بمتابعة أخيه له التجأ الى قلعة ثاتا التى كان احتلها سابقا وعين فيها أحد أغواته كما وأودع فيها أمواله ثم انه ترك هذه القلعة وعبر الحصراء واحتل احمد آباد وكان واليها صهر الأورنگ لكنه وجد من الحزم التسليم وفي ظرف شهر كان دارا جعل وجهته الشمال لأنه اخذ وعدا وثيقاً من راجا جزونت سنج بانضمامه اليه ضد أورنگ الذى كان يعتبره متعصبا ولكن كان دارا من هذه الناحية غير موفق أيضا لأن جزونت الذى كان قلعا من ناحية اورنگ صدر له منه عفو حصل عليه بمساعى الراجا جاى سنج ومقابل ذلك تعهد بمقاطعة دارا ونسى وعده السابق له وبذلك شذ عن تقاليد جنسه المشهور بنبل الطباع والرجولة التى تأبى الاخلال بالعهد ولقد وصلت أخبار انتقاض هذا الراجا الهندوسى لدارا فى اجمير وانه نكث عهده وانقلب عليه فصار فى احر ج المواقف والآن ماذا يعمل دارا المسكين وقد اصبح مهجور وخابت آماله لاسيما وانه وجد ان رجوعه الى الله اباد يكاد يكون مستحيلا لأن طول الطريق يحتاج الى خمسة وثلاثين يوما وكان ذلك فى منتصف فصل الصيف حيث الحر كالسعير والحصول على الماء عسير واجتيازه يكون وسط عشائر موالية لأخيه مما يجعل مطاردته بواسطة اورنگ امرا سهلا خصوصا وان جيشه تمتع بالراحة زمنا طويلا ولذلك صمم دارا على ان يبقى مكانه ويخوض المعركة وإن كان فيها هلاكه وقد ذكر كافى خان المؤرخ ان هذه الموقعة استمرت ثلاثة ايام حاول فيها اورنگ عبثا

أن يقتحم خطوط استحكامات أخيه ولكن في اليوم الرابع وصلت إليه إمدادات كبيرة من الراجبوت فهجم بها وتراجع دارا عن أجير ثم فر مع قليل من أتباعه ونسائه نحو مدينة أحمد آباد ولما وصل إليها وجد بواباتها مغلقة في وجهه فتوجه إلى قلعة ثاتا فوجد حاميته هناك على آخر رمق من الحياة فبدلاً من أن يقيم بها أو يفر إلى بلاد فارس حيث كان ذلك مستطاعاً صمم تحت تأثير زوجه وإلحاحها أن يستمر في الكفاح في سبيل المطالبة بالتاج وجعل يقول « إما إلى التخت أو التختة » (التخت لفظة أعجمية معناها العرش والتختة يقصد بها النعش الخشبي) واستمر في سيره شمالاً إلى أن وصل إلى مقاطعة يقيم بها مالك جيوان الزمندار وفي هذا المكان ماتت زوجه وبذلك انهالت جبال من الحزن على قلب دارا وتجمعت جبال فوق جبال ، واختلط الحزن بالأسف والأسف بالحزن حتى أصبح عقله فاقداً لتوازنه ومن غير تفكير في العاقبة أرسل غول محمد وكان أكبر مخلص له في أيامه السوداء ليدفن جثة زوجه بمدينة لاهور ولم يبق مع دارا غير بعض الأغوات وقليل من الخدم فانتهز هذه الفرصة مالك جيوان الذي خان قانون الضيافة ووضعه وحفيده في الأغلال وأركبهما على فيل ومر بهما على قلعة ثاتا التي سلمت بعد ذلك ثم توجه بهما إلى مدينة دلهي وكان من رأى أورنك ومستشاريه أن يطاف بهما على الجماهير فأدخل دارا وحفيده فلم يتقدم أحد من أعوانه السابقين الكثيرين لنجدته ولكن الطواف بهما في الشارع وهما في الأغلال أثار سخط الجماهير وسمع الكثير من عبارات الأسف وبدأ الحزن على وجوه الناظرين حيث كان الأمير محبوباً جداً ودخل على أثره مالك جيوان الذي صار فيما بعد بها درخان فتألبت عليه الجموع وانهالت على رأسه الأشجار والقاذورات وصار مركزه حرجاً حتى كادت تقتله الجماهير لولا اسراع حاكم المدينة العسكري لنجدته ورفعت الدروع فوق رأسه حماية له من القذوفات وقتل في أثناء

ذلك بعض الأفراد وكادت المظاهرة العدائية التي قوبل بهما تأخذ شكل ثورة لولا اقترابه من السراى الملكية التي دخلها بعد مجهود شديد ، واجتمع العلماء في سراى الملك وأفتوا بكفر دارا لخروجه على أخيه الحاكم الشرعى وحكم باعدامه وقطعت رأسه وحملت فوراً الى أورنك ووضعت أمامه في طبق فأمر ففسات بالماء وأعيدت له فلما تأكد أنها رأس دارا انحدرت الدموع من عينيه وقال « ما أتعسك أيها المسكين . خذوا الرأس وادفنوه في مدفن همايون » ووقع ذلك في سنة ١٦٥٩ ، واستمرت الحروب بين الأخوين ستة عشر شهراً ، أما ابن دارا فقد أسره والى سير نجار وأرسله الى عمه أورنك الذي اعتقله في سجن جواليور ولم يعيش هناك بطبيعة الحال طويلاً اذ كان يرغم على تعاطى كميات كبيرة من الأفيون قبل الطعام كل صباح مما عاد على صحته بالوبال وأورده موارد المنون في وقت قصير وبقي من اخوة أورنك على قيد الحياة الأمير شوجاه الذي سبق أن هزمه سليمان بن دارا فلما علم بانقضاء أمر أخيه الأكبر عاد ثانية واحتل مدينتى الله أباد وبنارس مما اضطر أورنك الى أن يعود الى ملتان وقابل شوجاه في موقعة بمدينة كورا ولعب جزونت سنج دوره في الخيانة كسابق عهده مع دارا الا أنه في هذه المرة انقلب على أورنك وانكب على معسكره ينهب كل ما فيه من متاع وسلاح ولما قام بما ظن أن فيه الكفاية قصد نحو أجرا دون أن يتحذ أى احتياط ولما وصل اليها أشاع هناك أن أورنك هزم وعلى ذلك قامت الاضطرابات هناك بناء على اشاعته ولكن حقيقة الأمر وصلت لأجرا فهدأ كل شىء وكانت الموقعة التي جرت بين الأخوين على جانب عظيم من الشدة غير أن شوجاه اضطر الى التراجع نحو البنغال فلم يتعقبه أورنك بل تركه وذهب الى أجرا وأرسل ابنه محمد سلطان ومعه ميرخان لطرده شوجاه من البنغال ولكنهما قاسياً الأهوال على أثر الفيضانات التي وقعت هناك ثم ان محمد سلطان انضم

الى عمه شوجاه وتزوج ابنته ولم يحصل وفاق وعاد واستغفر لأبيه عن ذنبه بعد ما ترك عمه ولكن والده لم يستثنه من نوع المعاملة التي عامل بها الخوارج عليه بل أرسل الى سجن جواليور حيث مات هناك . وأما شوجاه فقد انهزم جيشه نهائيا وفر من البنغال لاجئا الى أمير أراكان الهندوسي واستطاع أن ينال عطفه ولكن نشأ بعد قليل بينهما خلاف لأن الأمير الهندوسي أراد الزواج من إحدى بنات شوجاه المسلم وهي اهانة لا تغتفر خصوصا عند شخص في مركز شوجاه وفكر أعوانه في التآمر على قتل هذا الراجا الهندوسي واحتلال مملكته ولكن النتيجة أدت الى فشل أعوانه وذبح أغلبهم واضطر شوجاه أن يفر في وسط الأحرش والغابات وانقطع كل خبر عنه واختفى كلية ويقال أنه مات اما من الحشرات أو الوحوش الضارية ولم يظهر عنه خبر الى سنة ١٦٦٠ وبذلك تم تحرير أورنگ من خصومه ولقد توج لثاني مرة في سنة ١٦٥٩ والمدة التي قضاه والده شاهجهان المخلوع امتدت الى سنة ١٦٦٦ وكان فيها موضع عناية ابنه فانه لم يترك شيئا في نفس أبيه الشهواني الا وقدمه له ولقد أحاطه بكل أنواع السرور والطرب وهيا له جوا يلائمه في مأكله ولبسه ولم يكن ينقصه شيء مما كانت تتوق اليه نفسه وكل الذي رفض الابن هو اطلاق حريره في الخروج وهذا هو الشيء الوحيد الذي لم يكن يسمح به وقد عفا الوالد عن ابنه وغفر له غلطاته ودعاه بالتوفيق وكثيرا ما كان يستشير الأب الابن في مهام الدولة

عالم جير

أورنج زيب - اسمه عند الأورنج

ولد هذا الملك العظيم سنة ١٦١٨ واعتلى عرش الهند سنة ١٦٥٩ بعد أن عزل والده شاه جهان ولم يكن الذي حمله على ذلك مناهضة أبيه أو الرغبة في الملك والمطالبة بالتاج بل كان عالم جير شخصية نادرة من حيث الأخلاق فلم يكن في موقفه مع أبيه أو اخوته مدفوعاً بدنيا يطلبها إنما حمله على المطالبة بالعرش ملاحظه على والده من التهمك والاستهتار بالدين الذي كانت غيرته عليه إن لم تزد فلا تقل عن غيره صلاح الدين الأيوبي أو نور الدين الشهيد وكانت نيته دائماً منصرفة الى نشر الروح الاسلامية . لذلك كانت نار حماسه دائمة الاشتعال ولم يكن إبعاده لوالده ومحاربة اخوته والقضاء عليهم إلا لاعتقاده في عدم صلاحيتهم لإدارة شؤون الحكم لا عتسكافهم على شرب الخمر والمجاهرة بارتكاب المعاصي والذي يعرف أخلاق هذا الملك وأنه هو الذي أحيا عهد عمر في عدله وزهده وكان لا يأخذه في الحق لومة لائم بل لم تعرف لهذا الملك شهوة من أى نوع تحول بينه وبين واجبه الديني أو تجعله ينحرف قيد شعرة عن تعاليم الاسلام الذي أوقف جل همته على نشرها ومحاربة الهندوس ، ولم يكن الباعث على ذلك تعصب في طبعه فحاشا أن يتسرب اليه هذا التعصب الذي يجيء من طريق السكر والبغضاء فهو أعلا طبعاً وأسمى نفساً من ذلك . وكل ما في الأمر أنه كان يعتقد في الدين الاسلامي أنه الدين الحق الذي يضمن للهندوسى اذا اعتنقه وعمل بتعاليمه سعادة في الدارين ويطهره من اعتقادات تقيده بعبادة الأحجار وتقديس الأبقار وتضحى بالمرأة اذا مات زوجها وتلقيها في نار مضطربة وهي حية ، وتجهز زواج الأطفال الى غير ذلك من العادات والمعتقدات الفاسدة التي تنزه عن مثلها الاسلام



الساه عالم مير

علاوة على ما فيه من سمو التعاليم التي تربط الرجل بأخيه بروابط وواجبات كلها
خير ورحمة ، فهو دين مساواة بين الناس ، دين بر باليتيم والسائل والمحروم
والمریض ، دين ينهى عن الفحشاء والمنكر فهو يحرم الخمر والميسر ، وينذر
المرايين بحرب من الله ورسوله وهو دين الاخاء والشورى والمساواة فاذا كانت

الطريقة التي اتبعها هذا الملك العظيم لا تروق في عين بعض المؤرخين من الأفرنج
فليس لديهم حجة يبررون بها رميهم إياه بالتعصب الديني ولم يكن هذا التعصب
هو الذي حمّله على كثرة حروبه مع الهندوس ، ولم تكن هذه الحروب عن بغض
لهم بل عن شدة رغبة في تخليصهم من براثن الوثنية ، ومن نظر الى الحكم الانجليزي
في حالته الحاضرة اليوم في الهند وقد تعرض للهندوس في بعض معتقداتهم فلن
ينسب ذلك الى التعصب ولم يقل أحد نصرانيا كان أو مسلماً أنهم « يثيرون حملة دينية
على معتقدات الهندوس بل رأوا أن الاستمرار على العمل بمقتضى هذه المعتقدات
فيه منافاة للعقل وخروج على الرحمة فعملوا على ازالتها ، كذلك كان أورنك
(عالم جير) . وكانت خطته التي سلكها مع الهندوس يلابسها شيء من القسوة
ولكنها كانت غلطة القرن السادس عشر اذ كانت معاملة الحكام لرعاياهم مقرونة
بالشدة ومن نظر الى الطريقة الانجليزية ورآها الآن في ظاهرها أقل عنفا فسبب
ذلك أن الدنيا بأجمعها تتطور والمعاملات تهذب وتجرى بخطوات واسعة نحو الرقة
في المعاملة أما الذي يتعمق في البحث و يقارن عهد عالم جير بالحكم الانجليزي في
يومنا هذا يجد العهد الأول رحمة وإخاء والثاني قسوة وشتاء ، وهندوس اليوم
مهما انقادوا الى الانجيز في كل شيء حتى يصبحوا انجليزا سمرا أو انجليزا أسويين
فلن يكسبوا من وراء ذلك شيئاً بل يبقون هنوداً منبوذين من الانجليز مستعبدين
بجنودهم مستغلين بحكامهم ينقلون أرزاقهم من بلادهم ويشاطرونهم فيها ويحتمون
على الهنود أن يقاتلوا من أجلهم وأن يقتلوا في سبيل مجدهم ويصير الهنود من بعد
هذا قاتلين لأبناء جنسهم ، فالراجبوتى يقاتل في الهملايا والسيك تحارب في الهند
والهندوسى يقاتل المسلم وفي بعض الأحوال يساق الجميع الى أوروبا يقاتلون من
أجل انجلترا وفي سبيلها وبعد أن يقتل منهم مئات الآلاف يعود الأحياء للهند عبيداً
وهم غزاة ، كل هذا لأنهم يحاربون عن الانجليز اذا شاء الانجليز أما مركزهم في

الهند فقد فرض عليهم قبول الحال الذي به يرضون أن يموتوا دون أن يقاتلوا عن عزتهم وبلادهم، تلك هي طريقة انجلترا المتمدينة وأما طريقة «عالم جير» فكانت عكس ذلك بالمرّة إذ كان الهندوسى الذى يتخلى عن دينه بسبب دعاية أو حرب يصبح مسلما والمسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ويصير له ما المسلمين وعليه ما عليهم فإذا كان يدفع جزية رفعت عنه هذه الجزية وجاز له تولى أى عمل عام متى كان صالحا له وها هي الخلافة وقد كانت أكبر مركز في الاسلام نشأت عربية ثم انتقلت فصارت تركية ومغربية والاسلام وهو دين المساواة لا يحول دون جعل الملوك ملوكا ، وكيف يكون عالم جير متعصبا وروح كتاباته للولاء والملوك الآخرين تنطق بالصلاح والتقوى والترفع عما يسىء الى العدالة والمساواة وتدل أن وجهته لا تحترم الا الحق ولا تحابى فيه حتى الأبناء وقد افتتح عهده بأمر واجراءات تدل على أنه سيتبع سياسة تناقض كل المناقضة لسياسة جده الملك أكبر وهو الذى أراد أن يقوى مركزه بأن يكسب مودة الهندوس فلغى الجزية المفروضة عليهم ولفى الضرائب التى كانت تجبى منهم في أيام أعيادهم ومواسمهم الخاصة فجذبت هذه السياسة كثيرا منهم اليه وغالى في ذلك حتى أدخل في خدمته كثيرا من أمراء وغير أمراء هندوسيين وتقلبوا في أسمى الوظائف أيام حكمه ولم يكن يرمى إلا الى تقوية مركزه الخاص إذ رأى أن أغلبية الامبراطورية الهندية ليست من المسلمين فاذا بقيت هذه الأغلبية على عداوتها للجالس على عرش دلهى يجعله كالقائم على فوهة بركان فاذا قذف حممه طار ما عليه ولم يدخر وسعا في الوصول الى أمنيته هذه حتى أنه عقد مؤتمرا دينيا أفرد له مكانا خاصا سماه دار العبادات وجمع فيها فريقا اختارهم من قساوسة المسيحيين وكهنة الهندوس وعلماء المسلمين وباقي الأديان وأراد منهم اقتباس دين من مجموعة أديانهم يسميه دين الله ليوحد به العبادات في الهند وهذه الطريقة مع ما فيها من المضار المستقبلية

أفادته شخصيا وأبعدت عنه عداوة الطوائف غير الإسلامية بل زد على ذلك أنه استفاد من تحسين العلاقة فوق اطمئنانه على العرش استخدامه لهم في الجيش كما لو كانوا مسلمين وبذلك استقرت الأحوال حينما طويلا وقلت الاضطرابات أيام حكمه أما حفيده عالم جير فكان يرى الخطر على مركز المسلمين كبيرا لعظم الفرق بينهم وبين الهندوس في العدد اذ كانوا في وقته بنسبة ثمانية من الهندوس لكل مسلم واحد وبما أنه لم يكن بين الطائفتين ائتلاف أو مودة بل ضعائن وأحقاد بسبب أن الفريق الأكبر كان يعتبر أغلب المسلمين أجانب جاءوا الى الهند فاعتصبوها وفرضوا عليها سلطتهم وتحكموا فيها لذلك لم يكن من المحقق أن تمتزج طائفتان ببعضهما كرجبة أكبر وتطرحان الأحقاد المشتعلة بينهما بسبب من قتل من الهندوس خصوصا في الحروب الأولى التي كانت دينية حتى كان كل بيت من عائلات الهندوس يعتبر نفسه موتورا فالاطمئنان على مركز المسلمين دون السعى لزيادتهم قوة ومنعة وهو الأمر الذي لا يمكن تحقيقه الا بزيادة نسبتهم العددية اذ أن طريقة أكبر مع ما كان فيها من الانصاف والانسانية تمهد للاكثرية السبيل الى الازدياد في القوة والجاه وهذا يهدد المسلمين بالابادة خصوصا وأن أكبر أسند الى الهندوس وظائف كثيرة في الجيش والحكومة فلو أنهم قاموا بثورة اذا جاءت لهم فرصة مناسبة لقضوا بها على كل شيء اسلامي وأزالوه من الهند فعالم جير كان متيقظا لهذه الأخطار لذلك فانه لما اعتلى العرش صار يعيد للحكم رونقه الاسلامي وفرض الجزية على الهندوس وجعل حساب التوقيت طبقا للطريقة الهجرية بعد أن كانت الطريقة السابقة هي الشمسية وكانت هذه علامة على أنه سيسلك خطة تغاير خطة أكبر لذلك ابتداء عداؤه مع الهندوس وصار يهدم معابدهم وألقى ضريبة المواسم والأعياد الهندوسية مع عدم السماح باقامة الحفلات الدينية مما سبب عجزا كبيرا لخزينته فلم يبال بهذه الحال لأن وجهته لم

تسكن للمال بل لتأييد الدين وتفضيله على الدنيا وما كان يهمه أى تضحية مادية في سبيله ولقد توسع في سياسته الدينية فلم يكتف بعداء الهندوس بل عادى فريق الشيعة من المسلمين اذ كان يريد أن يكون المسلم سنى المذهب فقام بعدة حروب في الديكان حيث يكثر فيها العنصر الشيعى ، ولقد كان سلطان الدين مستحوذا على كل مشاعر هذا الملك حتى طلق ملاذ الحياة كما لو كان زاهدا أو فقيراً وقد شاء مرة أن يكون فقيراً (هنديا) ، ومن شدة تقشفه ما كان يذوق اللحم حتى على شفتيه ولا يشرب غير الماء ويطيل الصوم مما أضعف بنيته وفي شهر رمضان كان طعامه قاصراً على خبز الذرة والماء وكان لا ينام الا على الأرض وعمل بما حض عليه الرسول أتباعه من تعلم حرفة ، ولما كانت صنعة فى اليد أمان من الفقر فقد تعلم صنع الطواقي وكان يتسابق على شرائها الكثيرون كما تسابق نساء روسيا على مشتري الجزم التى صنعها الفيلسوف تولستوى وكان يعرف اللغة العربية ويجيد حفظ القرآن وكتب بخطه الجيد نسختين وأهدى احدهما لمكة والأخرى للمدينة .

ولا شك أن عالم جبر كانت وجهته سبيل الله ولم يكن ممن غرته الدنيا بنعيمها وزخارفها اذ لو شاءها لكانت هينة عليه اذ كان فى وسعه أن يطرح مسائل الدين ظهرياً ويسلك كما سلك أكبر فيجنى ثمرة الراحة والهدوء ويعيش مع الهندوس وغيرهم على صفاء فلا يحاربهم ولا يحاربونه كما كان شأن جهانجير وشاه جهان اذ عاشوا فى راحة باظهار عدم الاهتمام بشؤون الدين الاسلامي وكثير من سلك طريق الدنيا ففاتها ولم يمنعه شئ من التمتع بالمال والخمر والنساء وكافة الملاذ غير ضميره الثائر وما كانت فلسفة أكبر الطبيعية ولا رفاهية جهانجير ولا الابهة ولا الفخامة التى أحاطت بشخص شاه جهان لتصرفه عن نزعته الدينية الخالصة للحق وكان الهندوس يفضلون كل نوع من الحكام على الحاكم الذى

يتعرض لدينهم وهذه أول مرة جلس امبراطور مغولى امتاز بروحه الدينية وقيد نفسه كما قيد الهندوس غير أنه لم يكن يجهل أن التساهل والترضية هما أساس الحكم الأسهل والأسلم عاقبة في بلاد جمعت عناصر مختلفة من الأديان والاجناس ولم يكن بالشاب الطائش حين اعتلى العرش ولكن كان ناضجاً في سن الأربعين وعلى جانب عظيم من الخبرة السياسية والملم تام بعوائد وخصال الشعوب المختلفة التى تقطن الهند ولم يكن يغيب عن باله الأخطار التى كانت تستتفه بسبب الخطة التى سار عليها . بل كان على بينة من وعورة الطريق الذى يسير فيه وهياج الشعور الهندى الذى صدمه وابعاد عطف رعاياه الفرس المعتنقين لمذاهب الشيعة وكانت منهم زهرة حاشيته بتعمده مصادمة عقائدهم . كما أن خطة الزهد والتقشف التى اتصف بها ضايقت طبقة الأعيان والأشراف الذين لم يألفوا هذه الحالة بل كانوا منغمسين فى الترف والملاذ وكل هذه الأسباب تجمعت فأثارت عليه الثورات الا أنه رحب بالطريق الوعر ولم ينثن عن وجهته فى مدة التحسين عاما التى حكمها وكان لهيب الايمان دأماً الاشتعال فى قلبه وروحه الى آخر لحظة كان يحتضر فيها ويسلم نفسه لخالقها فى وقت لم يطلق فيه العمل بحكم الشيخوخة وهى سن النسك والراحة بل بقيت روحه فتية وشيخوخته قوية كما كان أيام شبابه حينما حارب فى الديكان وقد طرح ملابس العرش البهية المزركشية ولبس بردة الفقراء المعزقة ولم تكن خطته هذه خدعة يحاول أن ينال بها من خصومه بل كان طبعاً صريحاً فيه نتيجة تشبع بالعقيدة الحققة وما كان لنا أن نقول شيئاً عن شجاعته فليس ذلك بغريب على أمير من سلالة المغول انما كان يعتبر فى المقدمة لأشجع شجعانهم فقد حارب مرة فى مدينة بلخ فلما أحاط به العدو من كل ناحية كالجراد والنمل وضغط عليه فى كل نقطة وصار لا يسمع الا وقعقة الحديد وصيل السيوف والدماء تجرى بين المتقاتلين وغربت على هذا المنظر شمس النهار

فلم يثنه هذا الخطر الدائم من أن ينزل عن حصانه ويقف أمام خالقه ليؤدي صلاة الغروب ويسجد لله في عجاج الموقعة وهو في غاية الثبات مما جعل ملك الأزبك حين رآه على هذه الحال يقول ان محاربة رجل كهذا هي الهلاك بعينه ، ويمكن لمن يقرأ بعض كتبه للولادة أن يستخلص منها شروط الملكية الصحيحة الحالية من الشوائب فقد أرسل لوال من ولاته العبارة الآتية :

« انى بعثت بواسطة العناية الالهية لأعيش وأعمل لا لنفسى بل لغيرى وليس من واجبى التفكير فى سعادتى الشخصية الا بقدر ما يكون ذلك متصلا غير منفصل عن سعادة قومى ولما كانت راحتهم وسعادتهم هى التى أنشد فلا يمكن تضحية شىء منها الا بقدر ما تقضى العدالة ويتطلبه تثبيت سلطة الحكم وتوطيد السلام فى الامبراطورية ولم يخطئ فيلسوفنا السعدى حينما قال « تنحوا عن الحكم والا فاعقدوا العزم على أن لا يحكم ملككم غير أنفسكم »

وبنفس هذه الروح كتب الى شاه جهان خان : — « ان الله القادر يضع أمانته فيمن يتولى شؤون عباده ويحمى خلقه ومن الواضح الجلى للعاقل أن الذئب لا يصلح راعيا ، لا ، ولا الرجل الضعيف يصلح حاكما ، والملكية هى ولاية أمر العباد لا الانهماك فى الملاذ والشهوات »

لم تكن عبارات هذا الملك كلمات ينمقها بل قواعد ينفذها ويحكم بها ولم يعرف عنه طول حكمه الطويل أنه خالف مرة واحدة أمرا من أوامر دينه ولم يثبت عليه أنه اقترف أمرا جائرا يناقض تعاليم الاسلام ، ومما شهد به الانجليز المقيمون فى أيامه بسورات وبومباي أن هذا الامبراطور كان محيط العدالة ومنبعها فهو يتصرف بالعدل والمساواة التامة وكان يتساوى عنده الأمراء والسوقة وكان يصغى الى الصغير فى شكايته كما لو كان يصغى الى أكبر الأمراء مما جعل الأشراف والأعيان يحكمون أنفسهم فلا يخرجون على نظام أو قانون خشية عقابه

ومما رواه عنه بعض مؤرخي الهند أنه كان معتدل المزاج ويجهد نفسه في فحص الشكايات وكان الوصول اليه سهلا مع رقة في المقابلة وكان ولاته يخشونه فلا ينحرفون عن العدالة الا أنه مع ذلك لم يكن كثير الوثوق بأمانتهم أو كفاءتهم ولم يكن يؤمن بالسلطة اللامركزية وكان دائم الاتصال بكل أجزاء الامبراطورية بواسطة مخابرين يقدون عليه ويرفعون اليه التقارير عن أخبار الجهات المختصة بها وكان يعامل أولاده معاملة قاسية فسجن ابنه الأكبر طول حياته وأبقى ابنه الثاني في أسره لمدة ست سنوات لأنه ظن فيه الخروج عليه وكانت عادة سوء الظن بالناس من صفات عالم جير فأساءت كثيرا السمعة ومركزه وان كان كثيرا من المسلمين اعتبره متوجا بالفضيلة الا أن أغلب الحاشية ورجال الحكم عاشوا في رعب منه مصحوبا بالاستياء ومع ما كان يتمتع به من الاحترام فلم يكن محبوبا ، وكان يعيش عيش البساطة والزهد الا أنه في المواقب العامة كان يقتفي مظهر أسلافه فيحيطها بالفخفخة والعظمة إذ كان الهنود من عباد المناظر والمواكب التي تتحلى فيها العربات والدواب بالماس والجواهر وتحف بها الفرسان وكان يتردد في عيشه بين دلهي وأجرا ، ولم يظهر ميلا الى البلد الثانية لأن جوها لم يكن يوافقه فكان يقضى أكثر الوقت بمدينة دلهي الحديثة التي أنشأها شاه جهان والتي لا زالت أثارها القديمة تشهد بما كان عليه هذا المكان من عظمة ، وقد وصفها برتيير الفرنسي فقال « ان هذه المدينة تقع على الضفة اليمنى من نهر جمنا على شكل هلال وأمامها كوبرى من القوارب ومحيط بها سهل به كثير من حدائق الفاكهة والأشجار الخشبية ومحيط سورها سبعة أميال وفي خارجها كثير من المباني الشاهقة التي يسكنها الأمراء والأعيان والتجار ويتخلل المدينة بعض شوارع ضيقة تتصل بميادين فسيحة وبها أكواخ مبنية من الطين والخيزران يسكن فيها الجنود والطبقات

الفقيرة ، أما الشارعان الكبيران بها فاتساع الواحد منها ثلاثون قدما ، وبها ميادين تنصب فيها الجند الراجبوتى خيامهم حين حضورهم للمدينة ، اذ كان من عادتهم عدم الاقامة فى المساكن ، ومما يستلفت النظر وجود بعض حجر فى السراى الامبراطورية تبلغ منها الحجرة مساحة سراى باجمعها ، وكان يقيم بدلهى طائفة من مهرة العمال فى الفنون والصنائع ، ويرجع الفضل فى ذلك الى التشجيعات الملكية لكثرة المباني التى كانوا يشيدونها ، ومما برزت فيه هذه الطائفة الرسم والنقش وقد أظهرت فيهما آيات النبوغ ، ومما أعان على تقدم هذين الفنين كثرة اقتناء المغول للصور والنقوش الأوروبية الشهيرة ، ومن أحسن ما بنى فى المدينة الديوان العام وحجرة الاستقبال التى وصفها الواصفون بقولهم اذا وجدت جنة على وجه الارض فانما تكون هى (حجرة الاستقبال) .

والطريقة التى كان يعتمد عليها عالم جبر فى تأليف جيشه تخصيصه اقطاعات من الأراضى فى سائر أنحاء الامبراطورية يوزعها على بعض الأمراء وكبار العائلات لاستغلالها لمصلحتهم ، ويفرض عليهم فى الوقت نفسه فى مقابلها تجهيز عدد معين من الجند والخيول والصرف عليها من ريع هذه الأطنان على شرط أن يدفعوا خمس ايرادها لخزينته العامة (مثل طريقة الحكر) وكان لهذه الطريقة مزايا وعيوب فأما ميزاتها فانها تخلى الميزانية العامة من القيام بأغلب نفقات الجند فلا تشعب أوجه الصرف ويزول عن عاتق الحكومة مبلغ باهظ كان يفرض عليها دائما الاحتياط له فاذا قدر وارتبكت مالىتها يوما وصعب عليها دفع مرتبات أو نفقات الجند فتعرض لانتقاضهم واضطراباتهم ، أما عيوبها الأساسية فيأتى من احتمال تقصير هؤلاء المتعهدين فى أداء التزاماتهم نحو الجند أو الاقلال من عددهم أو اهمال تعليمهم وعدم العناية بدواب الجيش الا أن هذه المسألة يمكن علاج عيوبها

بشدة الرقابة والدقة في التفتيش وفرض العقوبات الصارمة مالية أو غيرها اذا حصل تقصير .

وكان لهذا الملك أسماء متعددة منها « محي الدين » و « زينة العرش » ، « أورنك ذائب » و « عالم جير » وهو الاسم الذي اضطلع عليه المؤرخون الشرقيون ، و « أورنك عالم » واسمه وجد منقوشا على العملة وقليل جدا من الملوك من حكم مدة طويلة مثله وكانت له شقيقة اسمها « روشا نارا » ذات تأثير عليه في بعض تصرفاته وقد عاونته كثيرا في أوقات الشدائد . ولم يطل أمد نفوذها في الدوائر الحكومية . أما أخته الكبرى « بيجام صاحبة » فقد عاشت مع والده الى أن مات ولم تسكن على وفاق مع أخيها ولكن في المدة الأخيرة تحسنت العلائق بينهما وشفعت لديه أكثر من مرة وكان لبعض السيدات تأثير عليه منهن : « فخر النساء » (ابنته الكبرى) والاولديورية وهي زوجته المسيحية وكانت من ولاية جورجيا وكان نفوذها عليه محدودا جدا ولما اعتلى عالم جير عرشه استهل حكمه بتخفيض الضرائب ورفع الكثير من المتأخرات على الفلاحين والغاء عوائد المرور عند الحدود وكان إيرادها وافرا وأبطل الضرائب التي كانت تفرض على المنازل ودكاكين التجار من بقال الى جزار الى بائع أقمشة الى بنسكير وغير ذلك ، وألغى ضرائب الموالد والأعياد على كل الطوائف وعلى العموم فقد ألغى ضرائب عديدة متنوعة لا يقل عددها عن ثمانين ومن أهمها عشورية الغلال ليقفل بذلك نفقات الانتاج على المزارعين ، وقد استغل كثير من الجباة غفلة دافعي الضرائب الذين لم يعلموا بالغائها واستغلوا ذلك لصالحهم ولكن حين علم الملك بذلك أوقع عقوبات صارمة على الجباة الذين عرف عنهم مخالفة الأوامر وقال أحد المؤرخين الانجليز (البيوت) تعليقا على ذلك : أن الأوامر شيء وتنفيذها في الهندوس شيء آخر حتى أنه في هذه الأقاليم الواسعة

لا زالت عادة مخالفة الموظفين للتعليمات التي عندهم فاشية حتى في زمن الانجليز ويقول ان الرشوة وان كانت انقطعت عن كبار الموظفين في الحكومة فان صغارهم مازالوا يمارسون هذه العادة وانها وان لم تكن شائعة عند العموم فانها مازالت طبعاً ثانياً عند الكثير منهم فانه الى يومنا هذا قد يتوجه مثلاً تاجر الى ناظر محطة صغيرة ويريد أن يشحن بضاعة الى جهة أخرى فان عمله غالباً لا يصير تنجيذه على وجه يرضيه الا اذا تقدم الهدية وكذلك ربما احتاج غيرها لبعض رجال البوليس .

ولقد أعاد الملك عالم جبر فرض الضرائب التي سبق الغاؤها بمناسبة جلوسه على العرش وكان من عادته أن يطل على الجماهير لتقدم له تحيتها في أوقات معينة ولكنه عدل عنها بعد زمن وقيل أن سبب ذلك كان دينياً ولكنه الأرجح كان صحته بسبب ضعف انتابها في السنين الأولى من مدة حكمه وكثيراً ما اضطر الى الظهور للرعية ليبطل اشاعات سيئة اعتادوا نشرها وقت احتجاجه ويذكرون وفاته وبذلك تحدث بعض الاضطرابات فيظهر لهم على مضض منه للقليل والقال ولقد كان عادة احتجاجه خالية من الحكمة اذ انقطع بها الاتصال الوثيق الذي كان قائماً بينه وبين رعيته وعلى أثر جلوس «عالم جبر» تقاطرت اليه البعثات من فارس وماوراء النهر ومن حكومة المستعمرات الشرقية الهولندية وشریف مكة وأمير البصرة وملك الحبشة وكانت البعثة الأخيرة مكونة من رجل من تجار الرقيق وتاجر أرمني وقدموا للملك هدايا تتكون من عدد من الأرقاء — ليصير بعضهم فيما بعد أغوات — وخيول وحر وحشية وأسنان من العاج مجوفة ومملوءة بالمسك ولكنه معظم هذه الهدية فقد بالطريق اذ مات كثير من الأرقاء والخيول في الطريق وقد قدم باقى الثياب التي وفدت الى دلهي ولم يكن فيها ما يستلفت النظر أما هدية ماوراء النهر فكانت تتكون من كثير من الجمال

ذات الشعر الطويل وخيول من الصنف الجيد وكانت الجمال تحمل كثيرا من أصناف
الفاكهة المجففة وغيرها من تحف هذه البلاد وقد سر الملك كثيرا بها وطلب تبليغ
الخانات شكره على كرمهم الزائد كما أنه أظهر إعجابه بالخيول والجمال ، وتحدث
طويلا مع رجال البعثة عن سمرقند وحالتها وخصوبة أرضها وكثرة خيراتها النادرة
الجيدة للغاية وقد أضاف الملك رجال هذه البعثة مدة طويلة من قبيل التحية ورعاية
العوائد المغولية ، أما البعثة الفارسية - فنظراً لعظم مركز من تمثله - اذ كان يعتبر
من أكبر ملوك العالم - فقد قوبلت بكل تبجيل واحترام وزينت لها كل الشوارع
التي مرت بها واصطفيت الفرسان على الناحيتين ولازم موكبهم كثير من أمراء
الهنود بموسيقاهم وطبولهم وأطلقت لهم المدافع تحية عند قدومهم وقابلهم الملك
بالاحترام واستلم رسائلهم بيده ، وقدموا هديتهم وهي عبارة عن خمسة وعشرين
حصانا منقطعة النظير في حسنها وعشرين جملا يكاد يبلغ الواحد منها حجم
الفيل وصناديق مملوءة بماء الورد وكميات من الأقمشة المطرزة وبعض مشروبات
من أرق صنف وأربعة سيوف وأسلحة أخرى مكللة بالجواهر وستة أغطية للخيل
تزينها اللاآلىء الثمينة ونالت إعجاب الملك الشديد فكرر شكره العظيم للشاه على
سخائه الزائد وأظهر احتراماً شديداً لسفير فارس وأطال معه الحديث قبل انصرافه
وطلب منه أن يأتيه يومياً ومما رواه برتير الفرنسي أن الشاه أرسل رسالة يعاتب
فيها ملك الهند على حجزه والده ومعاملته لاختوته وعلى تلقيب نفسه عالم جبر
(أى ملك العالم) . ولكن وصف المقابلة ينطق بعدم صدق هذه الرواية اذ هذا
لا يكون الا عند ما يريد حرباً لا عند تقديم هدايا ثم قبولها بالسرور . وكانت
علاقات عالم جبر بالدول الأجنبية قليلة الأهمية اذ كان كل انهماكه منحصر في
هندستان ومن أهمها تنظيم الحكم في الولايات وقد اختار « مير جملا » واليا لبنگال
وقائدا لجيشها ولكنه أبقى ابنه ضمن حاشيته ليكون كرهينة فان الملك من عادته شدة

لحذر وقد أنعم على جملا بلقب « خان الخانات » ولكنه لم يعيش طويلا بل مات سنة ١٦٦٢ وهو الذى غزا ولايات أسام وكانت هذه أول مرة يدخل مسلمو الهند فى هذا الاقليم وهو يقع الى الشمال الشرقى من هندستان ويخترقه نهر عظيم ، وبها غابات كثيفة وأمطارها شديدة ومواصلاتها سيئة وأهلها هندوس تختلف طقوسهم الدينية عن اخوانهم فى الهند ومما قاله كافى خان المؤرخ إنه متى مات أمير من أمراءهم أو كبير من كبرائهم فتحوا مقبرة متسعة تتكون من عدة أقسام ثم لا يسكتون بدفن الميت بها بل يثدنون زوجاته وجواريه ليدفنوا معه ، وكذلك يدفنون خيوله وكثيرا من أمتعته كالأواني الفضية والذهبية والمجوهرات والمفروشات والحبوب وكثيرا من الأشياء التى كان يستعملها فى حياته وكانوا يضعون عنده فاكهة وأقوات بمقادير تكفيه عدة أيام وهى المدة التى يقولون انه سينتقل فيها الى الدار الآخرة وروى المؤرخ أن « خان الخانات » فتح بعض هذه المقابر وعثر فيها على أشياء ذات قيمة ثمينة ، وعادة وضع الأشياء الثمينة فى المقابر كانت شائعة فى بلاد كثيرة ومنها القطر المصرى ، وفى أحوال متعددة فتحت هذه المقابر فى بلادنا وعثر فيها على كنوز غالية وأهمها ما اهتدى اليه اللورد كارنارفون فى مقبرة الملك توت عنخ آمون كما عثر الأستاذ الشهير سليم حسن بك على مقابر ذات آثار قيمة تاريخية بجوار الاهرام

لم تكن غزوة أسام صعبة بل دخلها المسلمون دون كبير مقاومة إنما الذى عجز عنه السكان قامت به الطبيعة بالنيابة إذ تدفقت الأمطار والسيول التى لم يألف احتمال مثلها جيش الأمير جملا فلجأ الى بعض المدن وأقام بها الجند فى جو لم يلائم أجسامهم ففتكت بهم الأمراض القتالة وقد أضر بهم أيضا نفاذ القوات وعدم توفره لديهم فتذمر الجند وفسكروا فى الترد على قائدهم وتركه هناك فلما علم بذلك وجد أن التسليم فى الظروف القهرية فضيلة وخضع لارادتهم

وأمرهم بالانسحاب فاتتهز أهالى أسام هذه الفرصة وهاجموا الجيوش الهندية ولم تكن ضعيفة بالدرجة التى تعجزها عن المقاومة وقتلهم مير جملا وصد الأساميين فاضطر الراجا رئيسهم أن يطلب الصلح من المسلمين وقبل أن يتنازل لعالم جير عن عدة بلاد واقعة على حدود أملا كه مع دفعه جزية فادحة كما تعهد بتقديم خمسين فيلا وأن يقدم أيضاً واحدة من احدى بناته (القبيحات كما يقول كافي خان) الى الملك . وقد مات الأمير جملا فى الطريق أثناء عودته الى الهند فى حدود كوج بيهار .

وكان وقتئذ لا يزال محبت خان واليا على كابل وطالب بحسن معاملة شاه جهان الذى كان محجوزا عند ابنه الملك وكان الاحتجاج سببا فى تخفيف وطأة العزلة على سيده السابق وبعد وفاة مير جملا عين ابنه أمين خان واليا لحكومة كابل ولكنه ما وصل الى ممر خيبر حتى تلقفته القبائل القاطنة هناك وكادت تفتك به لولا تمكنه من الهرب وتخليه عن جيشه هناك ، ولم يمت محبت خان الا قبل ملكه بمدة قصيرة ومات بموته آخر رجل عظيم من عهد شاه جهان وكان موته وموت مير جملا خسارة لا تعوض على الامبراطورية إذ كانا من أقوى الحكام وأكفأ القواد الذين حفظوا للمغول صولة حكمهم

حروب عالم جير

وقع فى عهد عالم جير ثلاثة حروب كبيرة ذات معارك متعددة وهى :

١ — حرب قبائل الراجبوت

٢ — حرب الولايات الاسلامية ببيجا بور وجولكندا

٣ — حروب قبائل الماهراتا

أما ما يختص بالحرب الأولى فكانا سببا يرجع الى رغبة عالم جير فى نشر

الديانة الاسلامية ببلادهم ، والثانية وقعت بينه وبين الحكام المسلمين بولايتي
بيجاپور وجولكندا وقد انتصر فيهما وأخضع هاتين الولايتين ، أما الثالثة وهى
حرب الماهراتا فقد بدأت فى حكمه وظلت مشتتة بينهم وبين المسلمين بعد موته
الى سنة ١٧٦١ حيث سحقهم الأفغان فى سهل بانيبات بعد ما كانوا يطمعون
فى سلب العرش من المغول وتأسيس امبراطورية ما هراتية على انقاضه وقد ذكر
المؤرخ كافى خان وصفالزعيمهم « سيفاجى » فقال انه يقيم فى بلاد بها جبال
تناطق السماء ارتفاعا وغابات كثيفة بالأشجار والنباتات وبلاد هذه طبيعتها تجعل
العنصر الذى ينشأ فيها حريبا إذ أن العيشة القاسية تنمى فيهم الروح الحربية
لتنعودهم على احتمال الشدائد وقد التحق فريق كبير منهم بولايات الديكان ومنها
الولايتان الاسلاميتان بيجاپور وجولكندا وقد كان سيفاجى زعيمهم ابن
رجل من « أودايبور » راجبوتى واتصل بامرأة من طبقة دون طبقة وعلى أثر
ذلك هاجر من مسقط رأسه الى الديكان وكان جده ربي له مركزا بها من
قبله فقد التحق فى خدمة ملك احمد ناجور قبل أن تحتل هذه الولاية بجيش
الملك أكبر وهناك كون جده ثروة ويقال انه كان معتقيا لمذهب مهاريو
(مذهب هندوسى) وجاء فى قصة رواها رجل من الماهراتا أن زوجته كانت عاقرا
لم تلد لمدة سنين طويلة فذهب الى رجل من أولياء المسلمين ورجاه أن يدعو له
أن يرزق ولدا فولد له ابنان فسمى الأول « شاهجى » وهو لقب تشريف
باللغة الهندوسية فزوجه والده وهو فى سن الخامسة من طفلة لأحد أعيان أحمد
ناجور وقيل أن أحدى (وليات) الهندوس قالت لوالده إنه سيعثر على ثروة
كبيرة وانه سيكون من نسله من سيعين ملكا حيث يقيم العدل فى بلاد الماهراتا
ويزيل كل من يقف فى طريقه من البراهمة وإنه سيعتدى على بيوت الله وان
حكمه سيعود بالسعادة على شعبه وسيحكم سبعة وعشرين عاما ، وقد ذاع صيت

شاهجى فى أحمد ناجور بعد موت مالك عنبر الحبشى وصار يلعب بدسائسه بين ملكى أحمد ناجور وبيجاپور وأحيانا لدى الامبراطور وأخيراً نجح وعين قائداً ثانياً لرحلة ضد ولاية السكارنتك وفى نهايتها حصل هناك على أملاك واسعة وأقام بها الجزء الأكبر من حياته . وقبل أن يتوجه الى هناك سبق أن تزوج مرة ثانية ، وكان قد رزق بولدين من زوجته الأولى وهما سمهاجى وسيفاجى فأخذ الأول معه وترك الثانى مع والدته وكان بينه وبينها نزاع ولهذا نشأ سيفاجى لا يعرف والده لأنه عاش بعيداً عنه وقد ولد سنة ١٦٢٧ ، ومن سنة ١٦٣٠ الى سنة ١٦٣٦ أقامت أمه مع والدها إلا أنها فى السنة الأخيرة قابلت والد سيفاجى ليحضر معها زواج ابنه الذى تم وهو طفل وبعد ذلك عادت لمنزلها وتوجه سيفاجى حيث أقام مع والدته فى أملاك والده الواسعة وكان يقيم معهم رئيس طائفة شاهجى فعلم سيفاجى حمل السلاح واستعماله وحفظه لدينه ونشأ سيفاجى محارباً شهيراً وبدأ فى ممارسة أعماله وهو لم يزل صغير السن واتصل بطبقة من الأشقياء واحتل بمعاونتهم بعض الحصون التى لم يكن لها شهرة ولكنه حصن بعضها تحصيناً تاماً حتى صارت عقبة من أشد العقبات فى وجه من يحاول اقتحامها وأشهرها قلعة « تورنا » واستولى بعدها على قلاع أخرى وكان معظم وسائله فى تحقيق ذلك الرشوة والخيانة وعلا مركزه حتى صار رئيسه يحسب له حساباً وخشى أن لا يستطيع حكمه فى المستقبل إلا أن هذا الوالى شعر بدنو أجله فدعا سيفاجى وأوصاه أن يحافظ على حقوق المهدوس وأن يدافع عن معابدهم وكرامتهم وأن لا يضيع المستقبل الزاهر الذى ينتظمه ثم انه وصله خطاب من والده يطلب إيراد الأملاك التى يديرها فلم يجب مطلبه وكان سنه فى هذا الوقت عشرين عاماً إلا أن جسمه نما بسرعة ، ولم يكن حاكماً بيجاپور يفكر فى شأن هذا الشاب الخطر الناشئة وحصر اهتمامه فى

اقامة المباني والانغماس في اللهو والشهوات ، أما شؤون الحكم فقد أهملها بينما كان سيفاجي يقوى نفوذه في أطراف المملكة شيئا فشيئا واستخدم بعض حاشية الملك بطريق الرشوة في التستر على أعماله مع موافاته بما يهيمه من الأخبار وقد وصفه كافي خان فقال انه كان في المكر والخداع كأبناء الشياطين وكان رأس الغش والدهاء فقد استطاع الاستحواذ على ثلاثة ضياع كانت ملك رجل عربي غائبا لزيارة شاه جهان وكانت هذه المسئلة بدأ سلسلة اجراماته التي استولى بها هو وسلالته على كثير من أملاك الغير حتى انتشرت سطوتهم وخافهم كل من في الديكان والكونكان وكان كلما سمع على بلد رائجة اغتصبها واستولى على ما بها وكان قبل أن يتقدم أصحاب الأملاك بالشكوى يسبقهم هو بالرشوة مشفوعة بأضاليه فيعود الشاكون بالخيبة وزاد نفوذه ولم تقف مطامعه عند حد واستفحل ضرره واستمر في طغيانه والموظفون يؤيدونه لدى الحاكم وفضلوا مصالحهم الآجلة وبذلك وضعوا في يده باطلة استطاع أن يقتلع بها نفس الموظفين وغيرهم من أساسهم وذهبت أملاكهم وكل شيء لهم في مهب الرياح اذا انتقلت السلطة في يده وصار أكبر الثوار في الأمبراطورية وقد استتر أمره طويلا عن الهيئات الحاكمة لوسائله الخادعة وأهمها الرشوة ولبعده عن مقر الحكم ولكن لم يدم الحال على هذا المنوال الى النهاية ، ولما شرع في وضع يده على بعض الثغور البحرية وجدت حكومة بيجابور أن لا مناص من القضاء عليه فقبضت على والده وأحضر الى الملك حيث أمره أن يخبر ابنه في العدول عن تمرده فاعتذر مؤكدا أن ولده لم يثر على العرش فقط بل ثار عليه أيضا واغتصب أملاكه فلم تصدق روايته ولما حاول الاتصال بابنه ليعدل عن خطته لم يفلح فاعتقل الوالد في السجن ولم يكن به غير نافذة صغيرة وأفهم أنه اذا استمر ابنه في عصيانه الى وقت معين فسيسدون عليه النافذة ويترك من

غير طعام ليموت جوعاً ولما علم سيفاجى بما حصل لوالده لم يكثر بل استمر في طريقه وذهب الى شاه جهان الذى لم تكن علاقته مع بيجابور والتحق بخدمته وأطلقت حكومة بيجابور سراح ابيه وبقي هناك شبه أسير وبعد قليل أطلق سراحه ورجع الى الكارنتك حيث كان بها اضطرابات قتل فيها ابنه الأكبر سمهاجى ولما تخلص شاهجى من حكومة بيجابور عاد سيفاجى ثانية للتمرد وأول خطوة جريئة كانت ضد راجا سندراو التابع لمملكة بيجابور وكان دعاه سيفاجى لى يتعاون معه فى الثورة فرفض فأرسل بعض أعوانه فذبجه جزاء رفضه كما أنه طعن أخاه وفى حالة الاضطراب الذى وقع أثناء الاعتداء على الأخوين هوجمت مقاطعتهما فتحرك عالم جير قاصدا مملكة بيجابور وكان سيفاجى ملتحقاً بالجيش المغولى فهجم على مدينة جونير ليقصد بذلك خدمة المغول بل صالحه الخاص كما أنه هاجم أحمد ناجور دون جدوى ولكن اشتداد الحروب فى ذاك الوقت بهندوستان الشمالية اضطر عالم جير الى ترك الديكان والزحف شمالاً وكان يحكم ولاية بيجابور فتى قاصر فوقعت فيها نزعات وانقسامات بين الذين يدعون دفة الحكم وفى سنة ١٦٥٨ كانت الفرصة سانحة لسيفاجى لاستبقاء ما وضع يده عليه أثناء هذه الحروب ووجه نظره بعد ذلك لامتلاك الكونكان والثغور الواقعة على سواحلها وبالأخص ميناء جنجيرى وكان يملكها رجل أفريقى الجنس اسمه سيدى فتح خان فأوقع على سيفاجى أول هزيمة صادفها من يوم أن ظهرت شخصيته وكانت الهزيمة شديدة ولم يجرأ أن يعاود مهاجمة هذا الثغر الا بعد مدة طويلة وانتظم الحكم فى مملكة بيجابور ورأت حكومتها أن سيفاجى استفحل أمره وأن الوقت قد حان لتأديبه فاختروا لهذه المهمة ضابطاً جريئاً يسمى أفضل خان ولكنه كان مستهترا بمثل سيفاجى وكان يفخر بأنه سيأتى بهذا الثأر الحقير مقيداً فى الاغلال

ويرميه تحت أرجل العرش وقد نجح أفضل أولا في مطاردة بعض جنود سيفاجي ولكن كان الوصول الى هذا الزعيم الثائر عسيرا بسبب طبيعة المكان المقيم فيه كما أن بعض رجال الماهراتا ضلل أفضل وأفهمه كذبا وخداعا بأن سيفاجي سيقدم خضوعه فأرسل أفضل كاهنا برهميا لمفاوضته واقناعه بالتسليم ولكنه في صميم الليل زار سرا هذا الكاهن البرهمي وأطلععه على حقيقة نواياه وأنه يريد بهذه الثورة خدمة قضيه الهندوس وخدمة دينهم وان نفس النبي بهواني الهندوسي هي التي أوحى اليه بهذه الأوامر لكي يعاقب المعتدين على معابد البراهمة وآلهتهم وأن ينتقم من خصوم دينهم لذلك يدعوه للتعاون معه على هذا الواجب الديني والوطني حتى تستطيع طائفتهم أن تعيش في سعة وسعادة ولم يكتف بترغيب الكاهن من الناحية الدينية بل أثار فيه روح الجشع المادي بوعده إياه بمقاطعة يعطيها له ملكا اذ أحسن التعاون معه ولذلك مهد هذا الكاهن الطريق لمقابلة سيفاجي لأفضل سرا كي يتفاهما على شروط التسليم والضمانات التي ينالها الأول مقابل خضوعه وقد وقع أفضل في الشرك الذي نصب له اذ توجه لسيفاجي ولم يكن في صحبته غير جندي واحد ودون أن يكون معه سلاح خلاف السيف الذي كان من عادة كل مسلم حمله أثناء سيره في الطريق وترك جيشه المكون من ألف وخمسمئة جندي في مكان بعيد ، وكان سيفاجي قد رسم خطته من قبل للقضاء عليه وتقابل الاثنان وكان سيفاجي يخفي في كهة خنجرا وسلاح أصابعه بسلاح ماهراتي اسمه واجناك وهو عبارة عن عدة مشارط صغيرة حادة تحيط بأصابع اليد فيستعملها عند ما يريد اقتراس أحد ، وأحاط مكان المقابلة بجنوده وأمرهم بالهجوم متى نفخ في بوق معه ، وبمجرد أن دخل أفضل انقض عليه وأنشب أظافره في مكان قاتل وابتدره أفضل بالسيف ولكنه لم يؤثر حيث كان لابسا درعا وسقط أفضل وتحول بعد ذلك على

الجندي وأطاح رأسه ثم نفخ في النفير فخرج جيشه وانقض على رجال أفضل بغتة ولم يكن لهم قيمة لغياب قائدهم وكان جمعهم مضطربا فقتل منهم الكثير وفر فريق منهم مشتتا في كل الجهات ولجأ البعض الى سيفاجي طلبا للرحمة فناها وعلى أثر هذا الغدر المنظم ارتفع صيته بين الماهراتا ، وكتب بعض المؤرخين الانجليز عن هذا الملك يعجبون بسيفاجي ويلتمسون له الأعذار في غدره معتبرينه كحيلة تبررها الحروب وهل الخيانة إلا حيلة ؟! واستشهدوا بالتاريخ وقالوا إنه مملوء بمثل هذه الحيل ، وعلى العموم فان الانجليز لم يشاءوا أن يجدوا في غدر سيفاجي وحقارة وسائله سببا مبررا لنقده (لأنه وأمثاله مهدوا السبيل لهم فيما بعد لامتلاك الهند) .

ودامت بعد ذلك الحرب بين بيجابور وسيفاجي لمدة ثلاث سنوات وكانت بوادرها في صالحه اذ هزم جيش بيجابور الذي كان يقوده رستم خان وأحتل سيفاجي على أثر ذلك بعض الحصون وقال كافي خان ان الحظ لازم هذا الخائن فازداد قوة وابتاعا يوما بعد يوم وبني كثيرا من الاستحكامات وعكف على مناوئة بيجابور وصار يهاجم القوافل ويغتصب ما فيها حتى النساء ولكنه جعلها قاعدة وأمرها محتما أن لا يتعرض جنده لكتب المسلمين ولا مساجدهم ولا نسائهم وكان كلما وقعت نسخة من القرآن في يده أعطاها لأحد رعاياه من المسلمين ، وكان كلما أسر امرأة هندوسية أو مسلمة أبقاها عنده حتى يحضر أحد أهلها لاستلامها بعد دفع فديتها ، وعند نهب أي مدينة كان يجعل كل شيء من نحاس حصاة لجنده وأما الفضة والذهب والمجوهرات فكان يخصص جانبا منها لضباطه والباقي له ، وكان النهب عنده له قوانين وقواعد يراها أعوانه لأن هذا النهب جعله الدعامة الأساسية لسياسته وظل سيفاجي موقفا في حروبه الى أن توجه الى محاربة سيدي جوهر وكذلك ابن أفضل خان

فضل محمد وقد طوق الأول سيفاجى وحصره لمدة أربعة أشهر فلجأ الى الحيلة
كهادته وقابل سيدى جوهر ليفهمه أنه يقصد التسليم ، ولما أزال الشك من
عنده انسرق ليلاً من وسط المحاصرين وفر الى حصن له ولكن عرف مكانه
الذى قصده قبل أن يصله فتحاشاه وقصد الراجا الخائن الذى سلم أباه للحكومة
وقتله انتقاماً فسر أبوه واصططح معه ومشى عدة أميال للتحية والتسليم على أبيه
وتوسط والده فيما بعد للصلح مع الحكومة فقبلت أن تعطيه البلاد الواقعة ما بين
كونكان وجوا وكان هذا الصلح مفيداً لسيفاجى إذ بدأ المغول فى مطاردته
واحتلوا بعض بلاد الماهراتا فتفرغ لهم وانقض بجنده على كل شىء يقابله فى
الطريق من مؤون وأمتعة وذخائر تابعة لأمير الأمراء الذى لما سمع بذلك أرسل
أربعة آلاف خيال للمحافظة على هذه الأشياء ولكن مباغتات جند سيفاجى من
حين الى آخر كانت ناجحة و بعد مشاق شديدة تجمعت قوى مغولية وتوجهت الى
بونا وعسكرت فيها ولما تم عقد الصلح بين سيفاجى وبيجاور تفرغ الى المغول
وكان كدأ به يعول على الحيلة أكثر من تعويله على القوة ، وكان مما احتال به
للتنكيل بخصمه أن دس جموعاً كبيرة من أعوانه بعد أن ألبسوا غلاما لبس
عروس وأخذوا تصريحاً بالدخول الى بونا على مقربة من المعسكر للاحتفال بفرح
هذه العروس المزعومة ولا زالت جموعهم تتقاطر عزلاً عن السلاح الذى كان قد
خبأه قبل ذلك فى مكان بالمدينة ولما انتصف الليل ذهبوا الى المكان المتفق
عليه وتسلسلوا واختاروا منفذا للوصول الى السراى التى يقيم بها أمير الأمراء
فنبهوا نقباً فى حائط ودخلوا منه ، فوجدوا أنفسهم فى المطبخ صدفة وكان
الطباخون يشتغلون ليلاً حيث كان شهر رمضان فصاحوا ولكن تكاثر عليهم
أعوان سيفاجى وقتلوهم وتوغلوا داخل المكان يذبجون كل من قابلهم وعلا الصياح
من بعض الجوارى واستيقظ أمير الأمراء وأخبروه بما حصل فتسلح وأقبل

عليه ثلاثة سقط اثنان منهم في خزان كان في طريقهما وضرب الثالث ولكنّه
انقض قائماً وقطع ابهام الأمير فعاد وطعنه فخر قتيلاً وتحول على من بالخزان وقتل
الذي بقي على قيد الحياة بحربة ولما رأى خصومه تشكّاثراً فر إلى مكان أمين
ووصل فيما بعد جند سيفاجي وباغتوا الحرس الذي كان يقيم في فناء كبير
وأبادوا جميع رجاله وكانوا يسخرون من السكيفية التي يحرس بها الجند سيدهم إذ
كانوا نائمين حيث تجب اليقظة وتنبيهه بعد ذلك أبو الفتح ابن الأمير وقتل بعض
المهاجرين ولكنهم تشكّاثروا عليه وقتلوه وفر بعد ذلك أعوان سيفاجي قبل أن
تدرّكهم القوة الكبيرة التي بالمعسكر وكانوا قد قتلوا زوجة لأمر الأُمراء وأحدثوا
في زوجة أخرى ثلاثين جرحاً ولم يسكنها لم تمت وعلى أثر هذا الحادث نصّح
جزونت سنج لأمر الأُمراء بالتفاهم مع سيفاجي فلما علم بذلك عالم جير سحب
القائدین وعاد فأبقى جزونت في الديكان ونقل أمير الأُمراء إلى البنغال واستلم
قيادة الديكان الأمير معظم خان ابن الملك وعاونهُ « جاي سنج » و « ديليرخان »
وكان سيفاجي قد اشتبك ثانية في حرب مع بيجابور وصار يعبت في بلادها
فساداً ، وبلغ من جرأته أن ركب سفينة وهاجم أحد ثغور الشاطئ الغربي
ولاقى أهوالاً شديدة في الحرب إذ هاجت عليه العواصف وكاد اليم يبتلعهُ ، وفي
سنة ١٦٦٤ احتل ميناء سورات وكانت تابعة للمغول ، وباغتها ونهب ما بها
ولم يقاومه فيها غير الانجليز والهولنديين وسلموا من أذاه وأرسل مراكباً
فاعتدت على حجاج المسلمين المسافرين بحراً إلى الحجاز فأسخط بذلك عالم جير
ولما علم قائد المغول الهندوسي جاي سنج باعتدائه على الحجاج تحول عن محاربة
بيجابور وذهب لقتال الماهراتا واحتل عدة حصون ثم توجه إلى سيفابور التي
شيدها سيفاجي فسلمت وسلم أكثر الحصون وإن كان قاسى في ذلك جيش
المغول أشد الأهوال إلا أن النصر حاله وانتقل جاي سنج وطرق

بارندهور وبها يعسكر سيفاجى ويقيم معه أولاده ونساؤه فعرض التسليم
الى جاى سنج ولم يكن ليصدق له لسابق الأعيه ولكنه قبل على حذر
واحاط بالجند ضد أى مباغته أو خيانه وقبل مقابلة سيفاجى عرفه جاى سنج
الشروط التى سيعاملونه بمقتضاها وكانت تسليم كل الحصون التى فى يده
والتوجه لتقديم فروض الطاعة للامبراطور وفى الوقت نفسه قطع له
عهدا على تأمينه على نفسه وأن لا يصيبه بسوء فى شخصه أو حرته وعند
المقابلة قبل الراجا جاى سنج سيفاجى وأظهر له البشاشة التامة التى تنفق مع
الطبع الراجبوتى وصافح سيفاجى يد جاى سنج وقال له « إني جئت مقرا
باجرامى طالبا منك الصفح عنه ولك أنت اذا شئت أن تقتلني بذنبي أو تعفو
عني بفضل منك ، وأنا على استعداد لتسليم قلاعى بالسكونكان الى ضباط
الامبراطور وأن أرسل ابني ليلتحق بخدمته كما واني أرجو بعد مضي عام أن
يرخص لي أن أحتفظ بقلعة أو اثنين لأقيم مع أولادي وزوجتي وباقي عائلتي ،
وكما طلب مني تأدية خدمة سألني الطلب باخلاص متى صدر الي أي أمر »
واستقر الأمر على أن يسلم ثلاثة وعشرين حصنا من التى تحت يده ويستبقى
اثني عشرة ، ويصحب ابنه البالغ سنه ثمانية أعوام الى الامبراطور حيث
تكون إقامة الأب مؤقتة وإقامة الابن مستديمة ويوضع فى مصاف الأشراف
ضمن حاشية الملك فى سنة ١٦٦٦ ذهب سيفاجى وابنه ومعهما حاشية صغيرة
الى دلهى وبدلا أن يقابله شخص من ذوى المراكز العالية وقع الاختيار على
رام سنج بن جاى سنج ومخلص خان وهو مغولى فى الدرجة الثانية وعين سيفاجى
فى مركز دون مقامه فعند ذلك اهانة لشخصه ، ثم انه لما قدم للامبراطور لم ينل
منه أى التفات ووضع بين طبقة دون طبقة ولم يكتف سيفاجى غيظه بل أظهره
بصوت عال وخرج حائقا ولم تسلب حرته عملا بالوعد السابق لكنه كان تحت

مراقبة شديدة فصار يفكر في الرجوع الى الماهراتا ولجأ الى الحيلة كهادته فادعى أنه مريض ولم يبارح فراشه لمدة طويلة ثم ادعى أنه نقه وعمل سلالا كبيرة ليضع فيها هدايا الشكر على النقاهاة وهى عادة شائعة في الهند فلم يثر ذلك أى شك أو ملاحظة وأحضر شخصا ووضعته تحت الغطاء فى الفراش حتى اذا ثار شك وجاء أحد ووجده فى فراشه زال شكه ، ثم جرى بسلتين ووضع سيفاجى فى واحدة وابنه فى الأخرى وحملا على عربة الى خارج دلهى كما لو كانا هدايا الى النقطة التى انتظره فيها بعض أعوانه ، ولما شاع أمر هربهما أعدت الخيل السريعة لتتبعهما ولكنهما كانا وصلا الى مكان بعيد ، واتخذ سيفاجى مظهر الفقراء المسلمين تضليلا لمن يقتفى أثره ووصل الى بنارس وزار فيها الأماكن المقدسة وبعد مضى شهر من هروبه وصل الى جبال الماهراتا وترك ابنه وديعة فى الله أباد عند أحد كهنة البراهمة وحافظ الرجل على أمانته الى أن سلم الأبْن الى الأب ...

وبفرار سيفاجى فقد عالم جير أحسن الوسائل المؤدية الى تهدئة الديكان ولو كان عالم جير على بينة تامة من حقيقة مركز هذا الرجل لما أحجم عن ارضائه حينما ذهب اليه فمثله لو ذهب فى صحبة أمير مغولى على رأس جيش لاختضاع الديكان تم ذلك بسهولة ، ولكن الترضية لم تحصل ، وعلى هذا توجه سيفاجى الى بلاده وأعلن استقلاله فيها ومن هذا الموقف تبدو أخطاء عالم جير السياسية فانه سلك مسلكا من الخطر بمكان اذا أنه تغالى فى خطته الدينية دون تقدير للعواقب ولم يكتف بمحاربة الهندوس مع أنهم كانوا قوة لا يستهان بها وكيف لا يحسب لمثل هؤلاء حساب مع أن نسبتهم للمسلمين كانت ثمانية الى واحد ، ومما زاد فى حرج عالم جير وخلق له المتاعب التى لم تنتهى حتى بعد وفاته بل كان لها أثر سىء امتد الى من حكم بعده من سلالته فانه فتح على نفسه

بركان حرب باثارة الهندوس وكان في وسعه وقتئذ أن يعتبر الشيعة إخوانه في الدين وإن انحرفوا عنه قليلا فيكسب معاوتهم ويأمن عداوتهم لكنه لم يفعل ذلك بل أغضب هؤلاء وهؤلاء شيعة وهندوسا وكان يجدر بمثله أن لا تقوته هذه الملاحظة إذ كانت السبب الأساسي لتوسيع الخلاف بين مذهبي الأخوين في الدين فألحق بهما مضار زائدة في الهند وخارج الهند وحبذا لو تدارك عقلاء المسلمين وهيئاتهم الحاكمة علاج هذه المسئلة التي تعتبر في مقدمة الأمراض للمجتمع الاسلامي والتي يجب الفصل فيها بحزم وعزم وهل يوجد أحزم من أن يكونوا يدا واحدة ؟ والمؤمن المؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا وحبذا لو أن بوادر التفاهم التي بدت من مقابلة الشيخ الأجل رئيس علماء النجف وفضيلة الشيخ المراغي شيخ الجامع الأزهر تتبعها مجهودات أخرى حتى لا تنام هذه الفكرة المباركة فإن من ينجح فيها يؤدي خدمة للعالم الاسلامي لا تقل قيمة عن أي خدمة قام بها أكبر خدامه اذ يكون أول من يضع أساس عصبة أمم اسلامية تتصل بعضها ببعض وتتعاون على فعل الخير لهذا العالم الاسلامي المغلوب على أمره المحكوم لغيره المسخر لارادة الأجانب فها هي فرنسا واسبانيا تزجان بجنودهما من المسلمين في وجوه المدافع عند وقوع أي حرب فيكون نصيبهم الفناء وها هي انجلترا تنكل بالعرب جنوباً وتجليهم عن أوطانهم شمالاً وتخلي بلادهم منهم ليحل مكانهم العنصر الصهيوني البغيض وهي التي أباحت دم الهنود في حرب البوكسر في الصين وفي مقاتلة اخوانهم المسلمين بتركيا وفي حرب المانيا بأوروبا ولم كانت خسارتهم بليغة حتى قتل منهم مئات الآلاف ولا نظن أن قراء التاريخ ينسون ما وقع بين الترك والفرس من حروب دينية لم تقم على أسباب يقرها عقل عاقل ولا قلب مؤمن ولا تميزها ذمة إذ كيف يساق مسلم ليحارب مسلماً ودم المسلم على المسلم حرام وقتاله كفر ، فلعل القائلين

بفكرة المؤتمرات الإسلامية التي ظهرت بواورها بالمؤتمر الإسلامي الذي عقد في القاهرة للنظر في مسألة فلسطين يتلوه مؤتمر للنظر في هذه المسألة الهامة حتى يقضى عليها باعتبارها خرافة من خرافات الأجيال السابقة ومن حسن الحظ أن مصاهرة أمبراطور إيران لملك مصر تساعد على انجاح هذه الفكرة ، وإن كان الإسلام أجل وأعظم من أن يحتاج إلى مصاهرة ملوك في ربط طوائفه ببعضها ، والاختاء الإسلامي وهو معجزة من معجزات المجتمع يعتبر خير وسيلة من وسائل السلام لما يزرعه من المحبة والمودة بين الشعوب الإسلامية وهو السفير الذي لا يفشل في إيجاد الروابط المتينة التي تصير أمتين أو أكثر كأمة واحدة . من أجل ذلك يتضح أن عالم جبر أساء إلى قضيته كل الاساءة لما لم يستخدم الاختاء الإسلامي بينه وبين المسلمين الشيعة بل حاربهم فأضعفهم وشتت شملهم وأضعف نفسه وأعطى فرصة للماهرات أن تتقوى به عليه إلى أن صارت من القوى التي ساهمت أكبر مساهمة في هدم الحكم الإسلامي بالهند وكيف لا يكون الأمر كذلك وكان في الوقت الذي يضم فيه سيفاجي شتات الهندوس ويخلق منهم قوة كان جاي سنج الهندوسي قائداً في الجيش المغولي الذي يقاتل به المغول مسلمين آخرين في بيجابور وجولكندا حتى أنه وصل إلى عاصمة المملكة الأولى بينما قواد هذه المملكة صاروا يحتلون أرضاً مغولية ويتلفون كل شيء بها حتى صيروها خراباً بينما تحول فريق منهم إلى محاربة الراجا والقضاء على أمتعته ومؤنثته وتسميم الآبار وقطع الأشجار وهدم المباني التي يعسكر بها حتى لم يبق منزل ولا حديقة الا وتناولتها النفوس بالهدم وحولتها إلى أنقاض مجاورة للقلعة ومما زاد الموقف حرجاً أن أحد الأغوات من جيش الملك عادل (حاكم بيجابور) عاد بستة آلاف فارس بينما أمده قطب الملك بخمسة وعشرين ألف جندي ، فلما خرج بعض الجنود المغولية للاحتطاب وجمع الأعشاب للدواب قابلتهم هذه الامدادات واسرتهم وبدأ جيش

المغول يشعر بالمجاعة بسبب ما يحيط به من خراب وتدمير مما اضطر جاي سنج الى التقهقر واستدعى الامبراطور هذا القائد ومساعدته ويلد خان بسبب فشلها وأرسل ابنه معظم ليكون واليا على الديكان ، وجزونت سنج مساعداً له وكان هذا التغيير في صالح سيفاجى الذى بدأ يظهر ثانيا وقد ادعى أنه يحارب باسم ملك جولكندا الذى لغفلته أمدته بالأسلحة والمدافع بينما كان فى الواقع يعمل لحسابه الخاص مستغلا الخلافات الواقعة بين الملكين المسلمين ووجود حرب طاحنة بينهما وكانت عواطف جزونت سنج معه سرا بخلاف جاي سنج الذى سلك طريقا مستقيما فى خدمة المغول ، ورأى معظم خان أن يسترضى سيفاجى فمنحه رتبة راجا ووهب ابنه أملاكاً فى بيرار ، وقد فهم سيفاجى الغرض من هذه المعاملة ورجح أنهم يريدون ايقاعه فى الفخ فالتخذ حذره ولذا نشط فى بناء القلاع وزيادة الجند ولما تم استعداداه قفل الطرق الموصلة لقلعته ولم يترك الا طريقا واحدا ، ثم بدأ حروبه بمهاجمة سورات واغتصب كل ما فيها حتى متاع أمير من أمراء ما وراء النهر كان عائدا من الحج بمكة ، وكانت هذه نقطة حساسة جدا عند عالم جير اذ الاساءة الى أتباعه فى أداء فريضة الحج أمر لا يحتمل عنده وظهر غضبه فى جزونت سنج قائده هناك إذ عزله (لأنه هندوسى) وعين بعده خان جهان بهادر وكان فى هذا الوقت احتل سيفاجى جنجيرا إذ حوصر هناك فتح خان ولم تصله مساعدة من جيرانه من مملكة بيجابور اذ كان ملكها مات وقتئذ ، وترك على العرش ولده الصغير اسكندر وسنه خمس سنوات وانقسمت الأحزاب هناك على بعضها فزادت المملكة ضعفا حتى قربت من آخر أيامها .

وفى الشمال أغلق عالم جير المعاهد الدينية الهندوسية فى بنارس وهدم معبد شناه فى سنة ١٦٦٩ وعلى أنقاضه بنى مسجد أورنك وصارت واجهة المدينة لا يظهر فيها إلا مساجد المسلمين لا معابد الهندوس ، ثم إنه هدم فيما بعد معبد

مترا فأساءت هذه الخطة الى راجاوات الهندوس وتولدت من يومها روح الانتقام لدينهم والتنكر للحكم الاسلامي ، ومما زاد في سخطهم على عالم جير إرغامهم على دفع الجزية وكان لهم من هذه الناحية عذر قوى اذ أن الوقت الذي كان فيه يفرض الحكام الجزية على غير المسلمين كانت له مبرراته اذ أن جيشهم كان قاصرا على العنصر الاسلامي فقط ، أما وقد أصبحت العناصر الاخرى تندمج في صفوف المسلمين وتحارب حربهم وتسالم سلمهم فانه لم يعد يوجد مبرر لفرض الجزية خصوصا وقد صار كفا جزاء وأكبر جزء في جيش المغول من عساكر الراجبوت .

وفي اليوم الذي أعلن فيه إعادة الجزية والبدء في تحصيلها قامت قيامة الهندوس واحتشدت جموعهم في الفضاء الواقع بين السراي والجامع وصاروا يتظلمون ويطلبون من الملك انصافهم وكانوا خليطا من التجار والصناع والعمال حتى غصى بهم السكان وتعسر المرور رغما عن الأوامر التي صدرت لهم بالتفرق وصار من المستحيل على عالم جير أن يصل الى المسجد وفي كل لحظة صار العدد يتزايد حتى تعطلت أداة نظام الحكم وصار الجند لا يستطيع تنفيذ الأوامر وفي النهاية صدر الأمر باخراج فرقة من الأفيال لتوجيهها ضد الجموع المحتشدة وتساقط الكثيرون تحت الأفيال فدهستهم واستمر الهندوس عدة أيام على هذا المنوال يتجمعون أمام السراي ويحتجون إلا أنهم تحت ضغط القوة اضطروا في النهاية الى دفع الجزية فزادت في استيائهم ومما جعل الاستياء يصل الى قمته اتفاق موت جزونت في هذا الوقت (جزونت والى كابل) فظن الهندوس أن الملك دس له السم وصارت بيئاتهم في هم وحزن ودخل عليهم بسبب عجزهم عن الدفاع عن معتقداتهم الدينية وأسكتت أجراس معابدهم وطبولها ، وكثير منهم اعتنق الدين الاسلامي تحت تأثير الضغط وتاريخ صدور الأمر بإعادة الجزية كان

سنة ١٦٨٠ ، وكان سيفاجى على رأس المناوئين لعالم جير وأخطروهم شأننا ، وكان بعد دخوله ميناء جنجيرا قد ناوأه فيها بعض الأشراف ولكن ظهر له خصم أقوى وأخطر فى شخص والى بمباى والذى انتقلت مدينته من حكم البرتغال الى حكم الانجليز حيث أخذوها كمهر لسكاترين أميرة براجنزا بمناسبة زواجها لشارل الثانى وقد احتج هذا الوالى الانجليزى لاعتدائها على أملاك الفاورىقات الانجليزية وأصر على أن تقدم له تعويضات عن الخسائر بالرغم من أن سيفاجى أنكر هذا الاعتداء إلا أنه رضى فى النهاية ودفع التعويض المتفق عليه وقد جلس سيفاجى على عرش راججار وصار يحمل لقب راجا ، وحضر الاحتفال بجلوسه بعض الانجليز الذين كان يهمهم توسيع هوة الخلاف بين الهندوس والمسلمين ليستفيدوا من هذا الظرف وعند تولى سيفاجى الحكم بدأ يمنح ألقابا لأعوانه تقليدا لحكومة دلهى ولكى يظهر لنفسه شأننا كبيرا ، ومضى سيفاجى الستة السنين الباقية من عمره فى حروب مستمرة ، وكان ينافس حكومة المغول فى مملكة بيجابور اذ كان يحاول امتلاكها مثل عالم جير والذى أطال دفاع بيجابور متانة حصون عاصمتها وكانت جولاكندا فى هذا الوقت أقوى قليلا من جارتها بيجابور وقد عقد سيفاجى معها محالفة ضد عالم جير وكان من الزعماء المجاورين لسيفاجى أمير هندوسى اسمه قنسكاجى ، وهذا الأخير اعتدى على بعض رجال الزعيم وسلبهم فأرسل اليه سيفاجى خطاب عتاب بين له فيه خطاه وكيف أنه جعل الهندوس يتنازعون مع اخوانهم فى الدين ويسلبون متاعهم ، فأثرت فيه المسكاتبة وأسف على ما كان منه ورد كل ما اعتصبه سابقا مما كان دليلا على ما صار لسيفاجى من المكانة التى صارت تنمو شيئا فشيئا الى أن بدأ يرفع السيف للمطالبة بحقوق الهندوس ويحض طائفتهم على بذل التضحية فى سبيل قضيتهم العامة ولقد أرسل خطابا ، الى أحد أصدقائه يستطيع

الانسان أن يفهم من خلاله شعوره نحو قضية الهندوس وقد قال فيه ، « لم تصلني أخبارك لمدة طويلة ، لذلك أجد نفسي مشغول البال وقد أخبرني أحد أصدقائك أنه يشاهد أنك صرت كسيف البال لا تهتم بشؤون نفسك ولا تقيم أى الخفلات الدينية وقد أصبح جندك عاطلا ولا توجه أى التفات الى مصالحك العامة حتى كدت تصبح ناسكا ولا تفكر الا فى الانقطاع الى أبعد الأماكن المقدسة وتجعل وقتك يقطعك وبما أن حالتك تهمنى كثيرا ، لذلك أراى فى دهشة من أنك لا تتخذ والدى قدوة وتتذكر كيف أنه صادم وتغلب على كل المتاعب وقام بأعمال عظيمة وتلا فى كل الأخطار الداهية بروح وعزم وأحرز شهرة استطاع أن يحافظ عليها لآخر أيامه وكل ما عمله فهو معروف لديك وقد اختلطت به كثيرا واستفدت من حكمته وقدرته ولعلك تذكر أيضا موقفى الذى أنا فيه الآن وكيف خضت الأخطار وكونت مملكة فهل بعد كل هذه الأمثلة يجوز أن تسلك مسلك المتقاعد وتطلق أمور الدنيا وتنقلب زاهدا فتتنحى عن ادارة أملاكك لأشخاص يبتلعونها فتسبىء الى نفسك وأى حكمة أو عقل فى خطتك هذه والى أى نهاية تسوقك فخذ نصيحتى وانتفع بها ولا تصبح زاهدا واترك التواكل ونظم وقتك جيدا وباشر أمور دينك ولا تهمل ما يؤدى الى راحتك وأنظر الى أعمال قومك والى نظام جيشك والتفت الى الأمور العامة فى موقفك الحالى وأفرض على من حولك واجبات يؤدونها وأجر وراء ما فيه حسن سمعتك وشهرتك ، وكما أكون سعيدا لو سمعت الثناء عنك قريبا وبجانبك بنديت وهو ليس غريبا عنك فاستشره فى كل ما غمض عليك من الأمور وستجده كشخصى وقد وضعت كل ثقى فيه فضع أنت كل ثقتك فيه أيضا ولا تكن مترددا ولا تدع الفرصة تفلت منك دون الاستفادة من كل ماحولك وخصوصا جيشك وهذا وقت التقدم الى الأعمال العظيمة فلم إليها قبل أن تصيبك الشيخوخة وهى سن

التقاعد والزهد فتيقظ — وتحرك — ودعنى أرى ما ستفعل — ولماذا أطيل الكتابة لك وأنت رجل عاقل ؟ » .

ولا يمكن أن يقرأ أحد هذا الكتاب الا ويمجد فيه ما يدل على روح عالية وحكمة سامية . وقد مات سيفاجى بعد كتابة هذا بزمان قصير . ولا يمكن لرجل آخر أن يصعد بأمة الماهر اتا بنفس الصفات البارزة في تاريخ سيفاجى اذ كانت كلها سلسلة من المباغئات والسطو والسلب والنهب والهجوم والفرار المقرون بأعمال شيطانية وشجاعة جنونية وغدر فظيع ولو كان سيفاجى متصفا بهذه الصفات فقط ما استطاع النهوض بشعبه معها ساعده الزمن والظروف اذ أن هذا لا يكفي ولا ينفع لتكوين رجل عظيم بل لابد من وجود صفات وكفاءات نادرة حتى يصل الى ما وصل اليه والذي يريد أن يفهم حقيقة هذا الرجل فعليه معرفة الوسائل التي اتبعها في حكمه فقد كانت سرا من أسرار عظمتة وقد كان أهم ما اتصف به العدل التام بين أعوانه .

أما في الخارج فكان سيفاجى أسوأ مثل في طباعه بينما كان في داخل بلاده المثل الأعلى في العدل والتنظيم وكان جيشه مدربا خيرا وتدريب وكل جندي مثالا للطاعة والأمانة والاخلاص لرئيسه وكان قلم مخابراته السرية لا تخفى عليه خافية ولم يسمح للنساء بالاختلاط مع الجند خلافا للمعول وكان أول اهتمام لسيفاجى منحصر في جيشه فقد أعطى لكل واحد منهم أرضا بجانب الحصن أو الجهة التي يدافع عنها أو يقيم بها ، وذلك ليعيش منها أبناء الجند ونساءهم ومنع اعطاء أى قرية التزاما لموظف اذ كان يعتبر هذا النظام شديد الضرر والخطر على الفلاحين فكان يصرف المهاييا نقدا وكان يحصل خمس الايرادات كضرائب ويعرف بذلك الفلاح تماما ما سيدفع وكان من ايراداته الثابتة ما يأتي من ضياعه الخاصة والسطو على جيرانه وعلى القوافل في الطرق العامة اذ كان

يعتدى على كل عابر طريق غير ماهراتى ولقد كان المؤرخون المسلمون يكرهون سيفاجى الا أنهم اعترفوا له بمحافظته على شرف كل من حكمهم وكان يثابر على السطوع على القوافل لكنه لم يسيء الى النساء والأطفال الذين يقعون فى أسرهم وكان كل من خالفه فى ذلك ينزل به عقابا صارما وصدور هذا المسلك من مثله يعتبر عجيبا لما اشتهر به من الصفات السيئة .

أما المؤرخون الهندوس فقد نسبوا غلطاته الى الزمن إذ قالوا ان هذه العيوب كانت شائعة بين الجميع فى زمنه ، وسيفاجى أول من سلك الطريق الذى أنهك به قوى المغول وأضعفهم وسيبقى اسمه خالدا ومشهورا فى الشرق ولو أن مثله عاش فى عهد الملك أكبر لاستغل مواهبه كضابط عظيم أو ادارى خبير وبدل أن يكون آفة فى بلدة يصبح نعمة لها (وقد يكون بعض الظن إنمّا)

وقد صار هذا الرجل آفة لحكومة دلهى فى حياته وبعد مماته عاشت مبادئه . وقام بعده ابنه سمبهاجى وكان شابا طائشا لم يرث من صفات أبيه غير شجاعة جنونية مما أعاد الراحة الى حكومة دلهى وجعلها تسترد مكائنها وتعيد سلطتها على الديكان ومكئنها من أن تتفرغ مؤقتا الى الهندستان الشمالية التى كان يعتبر جزونتها من أكبر الشخصيات الحاكمة بها وكان يقيم بكابل ، فلما مات بقرب حصن آتوك صممت زوجته أن تحرق نفسها يوم وفاته عملا بعوائد الهندوس ولكنها كانت حاملا بسبعة أشهر فمنعت عن ذلك بالقوة وتقدمت زوجته الأخرى وسبع من جواريه وحرقن أنفسهن ، ولما ولدت زوجته الأولى غلاما لم ترد أن تبقى بعد زوجها رغما عن وجود رضيع لديها مفروض عليها العناية به فحرقت نفسها ، ولما قام بعض رجال أبيه بارسال المولود (واسمه آجت سنج) الى الراجبوت كانت قد صدرت أوامر الى الحرس بمنعهم من نقل الطفل لكنهم توصلوا الى غايتهم بمساعدة بعض المخلصين لأبيه من المسلمين واعترضهم الحرس مرة أخرى عند

دلهي ولكنه هرب في سلة بعد ماجرت الدماء في شوارع دلهي بين جنود
الراجبوت والمغول من أجل تهريبه ووصلوا بالطفل الى تلال راجبوتانا التي كان
من الصعب الوصول اليها وربي هناك ، ورفض عالم جير الاعتراف بهذا الطفل
كابن شرعي لأبيه ولكن الراجبوت فيما بينهم اعترفوا بصحة المولد وزوجوه فيما
بعد لأميرة أودايبور الصغيرة ، وكان عالم جير يود أن يستبقه عنده رهينة لينع
عشيرته من الثورة اذا فكروا فيها ، فلما تحذوه في ذلك أخذ العدة لاختصاصهم
له نهائياً فجمع جيشاً كبيراً من كل أنحاء الامبراطورية ليقضى على خصومتهم
العنيدة وكان راج سنج زعيماً لميوار التي كانت تعتبر مركز قوى الراجبوت وحضر
جيش عالم جير واشتبك معه قسم من الراجبوت من الذين عقدوا النية
في سبيل الدفاع عن بلادهم ولكنهم انهزموا وكانت الموقعة في سهل ، فدخل
بعدها الأمير أكبر مع قائد آخر من خلال التلال الى سهل آخر توجد فيه
مدينة ميوار فلم يتعرض أى شخص للجيش كما أن كل الأهالى بقيت في أماكنها
حتى أنه لم ير أحدا منهم فمسكراً كبير هناك ولسكن على حين فجأة وفي يوم عيد
وكان بعض جنده يصلى والبعض الآخر يتزاور ويلهو بأشياء متنوعة باغته ولى
عهد ميوار قتشتت جيش المغول ، ولم يتمكن أن يشق له طريقاً لوعورة الجبال
ولم يسمح له بالخروج الا بعد أن أعطى وعداً بأن لا يعود الى محاربة الراجبوت
وفي الوقت نفسه تشتت جيش مغولى آخر كان اخترق المرتفعات ونزل الى السهل
نجدة لأكبر وتخليصا له من ورطته وهذا الانتصار بعث في الراجبوت حماساً
جعلهم يهاجمون جيش عالم جير نفسه ، وبعد قتال شديد اضطره أيضاً أن
يتقهقر وأخذوا علماء امبراطوريا وفيلة ومركبات ملكية كثيرة وفي الوقت ذاته
سيطرت جيوش الراجبوت على ولايتى راجبوتانا وملوا وأخذوا قضاة المسلمين
وحلقوا ذقونهم وجمعوا نسخ القرآن ورموها في الآبار مما اضطر عالم جير الى

استدعاء جيش معظم خان من الديكان ولكن هذا الجيش لم ينقذ الموقف ولم يثبت أمام الراجبوت فغرم انتصارهم وفكروا أن الوقت قد حان للذهاب الى دلهى وامتلاكها وكانت مثل هذه الافكار تساور الراجبوت وفكروا في تنفيذها أيام بابر شاه وأن يضعوا أميراً هندوسياً فوق عرشها ، أما الآن فكانوا يفكرون في أن يختاروا للعرش أميراً مسلماً غير متعصب ، وعرضوا هذا على معظم خان ورفضه وقد خامر والده الشك فيه وأرسل يستدعيه فحضر طائعا فذهب عنه شكه ، ولكن ابنه أكبر كان بعكس أخيه ووقع تحت غواية الراجبوت وسار في نفس الخطة واندفع وراء نفس الغرض الذى كان عند الوالد نحو أبيه شاه جهان ، وعلى أثر ذلك هجراً كبير جيش أبيه ووضع نفسه قائداً على جيوش الراجبوت وذكر كافى خان أن الأمير أكبر انتدب طهاور خان وهو من أتباعه للتوجه الى عالم جير بمطالب من قبله فذهب ومعه بعض حرسه قاصداً خيام الملك فلما وصلها طلب معه أن يتجرد عن سلاحه فلما رفض اشتعل الملك غيظاً ومسك سيفه فى يده وأمر بادخاله واتفق أن أحد الحاشية تجاسر ووضع يده على جسم طهاور تعرضاً له فعد هذا إهانة وضرب هذا الموظف فى وجهه بقبضته وتراجع الى الوراء فتعثرت فى حبل من حبال الخيام ووقع فعلاً الصياح من كل ناحية بضربه وذبحه فانكب عليه الكشيرون وقتلوه ووجد بعد قتله أنه كان لابساً درعا تحت ثيابه .

لم يكن لدى الأمير أكبر مهارة والده أودهاء وقد ابتكر عالم جير طريقة خداع فى افساد خطته فأرسل اليه خطاباً يفهم القارىء من عبارته أنه على وئام مع والده وكلف أحد السعاة أن يتوجه بالخطاب اليه وأن يثير فى طريقه شكوك الراجبوت نحوه فيفتشونه حتى اذا وجدوا الخطاب وقرأوه استنتجوا من عبارته تواطؤاً كبيراً مع أبيه عليهم ولما سار الساعى فى طريقه وقابله أحد الضباط الراجبوت اشتبه فى أمره وقتشه

فغثر على الخطاب وقرأه وقامت قيامة الراجبوت على أكبر الذى صار يتنصل من
أى اتفاق فلم يصدقه الا القليل وانقسمت القوة على نفسها ورأى أكبر أن قضيته
أصبحت خاسرة فركب سفينة انجليزية وفر الى مسقط ومنها الى بلاد ايران حيث
أقام هناك ومات قبل أبيه بمدة قصيرة ، ولم يشأ عالم جبر أن يحاول مالم ينجح فيه
ملك آخر قبله وهو اخضاع الراجبوت تماما فعقد محالفة بموجبها أعاد لهم مدينة
شيتور والأماكن الأخرى التى احتلها . وتعهد أن لا يهدم معابدهم على أن ماهدم
منها لا يجوز لهم تجديدده وأهمل ذكر الجزية وهم أيضا لم يدفعوها فيما بعد للمعاهدة
وحينما انتهى من الراجبوت حول وجهه نحو جولاكندا وبيجاپور فى سنة ١٧٨١
ومما دفعه نحو هذه الجهة ثقته أن ابنه أكبر اتجه الى هناك وثانيا لأن سمبهاجى بن
سيفاجى اعتدى على بعض أملاك الامبراطورية عند مدينة برهان پور وكان قائد
الغول فى الديكان هوجهان خان واشتهر بالرشوة والضعف فلما ذهب ليقطع على
سمبهاجى خط الرجعة تباطأ ، ولما حانت له الفرصة لم يشأ انتهازها مما أنزل عليه
غضب عالم جبر حتى أنه جرده من رتبته ووصل الملك الى مدينة برهان پور سنة
١٦٨٢ ومن هذا التاريخ الى نهاية حياته كان يصرف وقته خارج المدن فى معسكرات
وكان معسكره متسع المساحة لا يقل فى حجمه عن مدينة متوسطة ، وكان يقيم فيه
الامبراطور وحرمة الأشراف الذين يلازمونه وعائلاتهم وبطانة الامبراطور وحرسه
وعليه فقد أقام الامبراطور وقتا أعاد الى ولاته فى الديكان نشاطهم فبعد تباطئهم
فى تحصيل الضرائب تغيرت أطوارهم وصاروا يعملون بنشاط وهمة ، ثم وجه
الامبراطور نظره الى حصن سالير فى كونكان على مقربة من البحر وهذه المنطقة
لم تكن بها الأقوات الكافية فمات الكثير من الخيل وجمال الجيش ، حتى ان
الأمير أعظم اضطر أن يمشى على رجله ، وصارت حياة الجند هناك لا تطاق مما
اضطرهم الى الانسحاب وذهبت قوة وجاءت قوات لاحتلال هذا الحصن واخضاعه

فلم تنجح ، ولكن حيث فشلت الجيوش نجحت المفاوضات وسلمت ساليرومن
المسائل الجديرة بالذكر ما قام به سمبهاجي من مهاجمة الانجليز والبرتغال في
أملأهم ومحاولة البرتغاليين مهاجمته ثم اضطرارهم الى التراجع بخسائر فادحة ،
حيث تركوا كل مدافعهم ومستودعاتهم وخيامهم غنيمة في يد سمبهاجي ودامت
الحروب بينه وبينهم عدة سنين وكانت الغلبة له غالبا عليهم ، وكثيراً ما هاجم
أملأهم ولكن قوته لم تكن كافية لاجلائهم جلاء تاماً واستمر عالم حير يعد العدة
لاحتلال بيجابور وجولكندا لاعتيادهما مساعدة الماهراتا ضده ، وقبل أن يبدأ في
قتال ملك جولكندا أرسل له رسالة طلب بها متأخرات الضرائب الباقية عليه
وفي حالة عدم القدرة على دفعها يرسل بدلها ماستين لها شهرة عنده ، وجاء الرد
بالرفض فزحفت جيوش المغول على هذه المملكة وتولى القيادة الأمير معظم
وجهان خان ولم يتقدم الجيش الا تقدماً جزئياً ، وطلب القائدان مدداً فلم يصلها
ففاوضا حكومة جولكندا في ايقاف الحرب مقابل تسليمها لبعض أملأها الواقعة
على الشاطئ الشرقي ، فجاء الرد بأن هذه الأملاك أخذت بحمد السيف وأسنه الرماح
ولا زالت جولكندا على استعداد للدفاع عنها بنفس السيوف والرماح فاشتعلت
الحرب ثانية وتراجعت جنود هذه المملكة الى مدينة جولكندا وكان ملكها
يسىء الظن في اخلاص قائد جيشه محمد ابراهيم فحاول القبض عليه فانضم الى
جيش الامبراطور ، ولما علم ملكه بخبره فر الى القلعة وحينما اشتهر هذا الأمر
هجمت جيوش المغول والجاهير على مخازن أبي الحسن الملك وعلى أمتعته وأمتعة بعض
رعاياه وكان شقاء السكان عظيماً ، حيث هرب الكثيرون بنسائهم ولم يتمكنوا
من أخذ أرزاقهم معهم . وقبل طلوع الفجر وصل جيش المغول الى القلعة وهاجمها
ويقول المؤرخ ان مصاب هذا المكان يجلب عن الوصف فكثير من أملاك أبي
الحسن وجواهره وفرشه وكل ثمين لديه ذهب نهبا وأما شقاء نساء المسلمين

وأطفالهم فكان يدمى القلوب ولما رأى ذلك الأمير شاه عالم بن عالم جير أمر ضباطه
بإيقافها فوراً فعملوا كل ما في وسعهم ولكنهم لم يستطيعوا أحداث التأثير المطلوب
ورجا الملك المهزوم في عقد الصلح حيث تم في سنة ١٦٨٦ وكانت شروطه قاسية
إذ سلم أراضي الساحل الشرقي وفرضت عليه غرامة مالية فادحة وطلب منه
تسليم وزرائه الهندوس كما فرض عليه أن يتوجه إلى عالم جير ويطلب عفوه
وصفحه ، واتضح أن الشرط الخاص بتسليم الوزراء الهندوس لم يكن لازماً إذ
قتلوا أثناء الاضطرابات . ولما تم إخضاع جولكندا تحولت الجيوش إلى بيجابور
فلم تجد مقاومة إلا عند العاصمة وكانت شديدة مما اضطر الجيش إلى التراجع
خصوصاً وإن المهاراتا وجدوا في ذلك فرصة سانحة لهم فهاجموا أملاك المغول
واحتلوا برهان بور في نفس سنة ١٦٨٦ . وتقدم جيش أعظم ثانياً ولكن قوة
من جيوش بيجابور حالت بينه وبين معسكره ولم يمكن تخليصه إلا بصعوبة
وبمساعدة نظام الملك ، الذي سر منه عالم جير لدرجة أن قدم له الشكر مراراً
للخدمات الجليلة التي أداها ، وتجمعت جيوش المغول ثانية وانضمت لها بعض
القوات من جولكندا وانضم اليهم أيضاً عالم جير بنفسه ولكن حرس المدينة
أظهر رجولة فائقة إلا أنها لم تدم أمام هذه الجيوش المتدفقة فسلمت الحامية وسجن
الملك الصغير ولبث في سجنه ثلاث سنين مات على أثرها ، ومما ذكره مؤرخو
المهاراتا عن حالة مدينة بيجابور أنها لم تعد عاصمة للمملكة وهجرها سكانها وقد
كانت حيطانها من صخر منحوت وعلى ارتفاع شاهق ، ولا زالت إلى يومنا هذا
باقية على حالها ، ولا زالت قبابها ومآذنها موجودة وبعض مبانيها العامة ، ويمكن
مشاهدتها من الخارج ، ولكن من يدخل المدينة لا يجد إلا وحشة وسكوناً
وقفراً ولا زال الخندق العميق والأبراج وانقاض السرايات الكبيرة والقلعة
تشهد بسابق عظمة هذه المملكة ، ومن أشهر مبانيها المسجد ومقبرة إبراهيم عادل

شاه ، وهى وان كانت خالية من الزينة فهى تملأ عين الناظر بمنظر العظمة
الحزينة وكثير من علماء الآثار اعتبر مباني بيجابور الأثرية أرقى من أى مبان
أخرى فى أوروبا مع العلم بأن جو هذه المدينة من الأجواء التى لا تعمر فيها المباني
طويلا بل يسرع اليها الفساد وقد بلغ من شدة تقدير الحكومة الانجليزية لهذه
الآثار الاسلامية ما دفع اللورد كرزون والى الهند سابقا الى المحافظة عليها
والعناية بها .

وجاء دور جولسكندا ثانيا فان عالم جبر شدد على أبى الحسن كثيرا
اذ كان يمجته وأثبت كافى خان المؤرخ خطابا أرسله الأمبراطور عن أبى الحسن
الى بعض الأمراء فقال فيه ، « ان الأعمال السيئة لهذا الرجل الخبيت تفوق
حدود الوصف ولكن اذا ذكرنا واحدا من مئة منها وسردنا القليل من كثيرها
فيمكن أن نكون عنه بعض رأى وهذا الرجل بدأ فوضع مقاليد الحكم فى يد
بعض الكفرة المستبدين فظلموا وأهانوا الأشراف والمشايخ وأولياء المسلمين
وانقطع مدحهم الى الفجور وانغمس فى الدعارة وغرق فى بحر المسكرات والخبائث
ليلا ونهارا وصار لا يميز بين مسلم وكافر ولا بين الظلم والعدل ولا الصلاح أو
الفجور ويثير الحروب فى سبيل الدفاع عن الكفار ولم ياتمر بأوامر الله ولم ينته
بنواهيه خصوصا تأييد الكافرين ضد أمته واستهتاره بكتاب الله أمام الله
والناس ولم تفده النصائح ولم تجد معه التخديرات المتكررة التى أرسلت اليه وكان
على عكس ذلك يرسل مئات الآلاف من النقود الى الماهراتا اعانة لهم ضدنا
وظل يتخبط فى غفلته ووقاحته حتى ضمن لنفسه سوء الحال والمآل » وقد حصن
مدينته تحصينا شديدا ولكن حصارها لم يمكث أكثر من شهر واحد فى خلاله
وقع الأمير معظم تحت شك أبيه ولكن لما استدعاه ومع أنه ذهب اليه طائعا
قبض عليه وعلى كل ما تحت يده وكان سبب هذه المعاملة القاسية سعيه لى

الامبراطور في الحصول لأبي الحسن على شروط سهلة مخففة أثارت الظن عند والده فجزه لمدة ست سنوات ثم أرسل الى كابل حاكماً حيث أقام بعيداً عن والده طول حكمه ومع ما شاهده عالم جير بنفسه من المجاعة الشديدة التي قاساها الجيش لم يجد ذلك سبباً كافياً يشفع لابنه الذي عومل هذه المعاملة وقد دافع أبو الحسن عن المدينة دفاعاً مجيداً حتى أن كل محاولة حاولها المغول أفسدها عليهم ولم يتمكن منها جيشه وقد نسف الجند الامبراطوري بعض الحصون فهذا القسم الذي نسفه عاد ضرره على المحاصرين أكثر من المحصورين وإنما وقعت خيانة من بعض ضباط الحامية وتسلبوا من المدينة واحداً بعد واحد وانضموا الى عالم جير فكان ذلك سبباً لسقوط هذا الحصن وانتهى كل شيء وسلم أبو الحسن دون أن يطأ طيء رأسه خضوعاً وحافظ على عظيمته وأرسل هذا الملك الخلع الى دولت أباد أسيراً وتغيرت العاصمة وصار اسمها حيدر أباد بالقرب من العاصمة السابقة وجلس على عرشها عائلة جديدة ومن هذا العهد خضعت مملكتنا الجنوب الى المغول ولكن كان بهما نحو مئة إمارة صغيرة من الامارات المستقلة وأخذت هذه وقتاً طويلاً حتى تم خضوعها ولم يكن انقياد الجنوب تاماً كالبنجاب أو ولاية أودا في الشمال حتى ولا كالبنغال أو بيرار و بقيت بلاد الماهراتا كشوكة في جانب الامبراطورية ولكن عالم جير كان مخدوعاً في حقيقة أمرها إذ اعتبر أن أهلها كفيران الجبال وأجل الاهتمام بأمرهم الى حين الانتهاء من مملكة ييجابور ولكن كان تقديره بعيداً كل البعد عن الصواب وقدر لفيران الجبال هؤلاء فيما بعد أن خاضوا عدة حروب دامية زعزعت امبراطورية هندستان الكبيرة وصيرتها في حالة فوضى وخراب ولم ينقذ الهند من أن تصبح ماهراتية فيما بعد الا عنصر أجنبي عن الهند وهم الأفغان والشاه أحمد عبدلي ملكهم والانجليز فيما بعد الذين قضوا على أحلام الماهراتا وكان الماهراتا متغلغلين

في كل شؤون عالم جبر بواسطة دعايتهم الذين يعملون في الخفاء وكثيرا ما لجأوا الى وسائل الرشوة فافسدوا بها خلق الضباط في الجيش والحكام في الولايات وقد نظموا لهم عصابات في أغاب أجزاء الامبراطورية وأطلقوها للسلب والنهب ونشروا بها الفوضى في طول البلاد وعرضها وأزكى البراهمة روح الخلاف بين العائلات الاسلامية لأنهم كانوا ينوبون عنهم في مباشرة أعمالهم فزادوا في ارتباكات المجتمع الهندوسي وتسلط لصوص الماهراتا على ضياع كبار الملاك وصغارهم من المسلمين في الجنوب حتى صاروا يشكون من الجوع ونقص الأرزاق وغرسوا فسادهم في كل مكان وحالة كهذه لا يمكن أن تؤدي الا الى ضياع الامبراطورية وقد كان إذ تزعزعت أركانها وكانت تسير بخطى سريعة الى طريق الزوال — وكان يظن أولا أن حركة الماهراتا وحكومتهم لن تعيش طويلا بالنظر الى فساد أخلاق زعيمها وانحطاط ابنه سمبهاجي بعده وانحطاط أخلاق وكيه كالوشاه البرهمي ، ولم يكن باقى رؤساء الماهراتا الا من نوع زعيمهم وابنه في الخلق الدنيء. ولسكن اقرأ ما كتبه كافى خان عنهم إذ روى أنه بينما كان يقيم عند صديق له اسمه عبد الرزاق على مقربة من حصن بناء سيفاجى كان يسمع من الناس حوله تقول أن سيفاجى وان كان كافرا وثائرا فانه كان رجلا عاقلا ، وقد كانت البلاد حولنا أشبه بالجحيم لأنها جبلية وحجرية وفي فصل الصيف تقل المياه كثيرا وتسبب متاعب جمّة للسكان فحفر سيفاجى بئرا على مقربة من محل اقامته وأحاطه بحاجز ووضع بجانبه حجرا للجلوس عليه وسار يأتى الى البئر ويجلس على الحجر حين كان النساء يقبلن لأخذ الماء فيكلمهن بنوع الأدب الذى يراعيه مع أمه وشقيقاته ثم يعطى أولادهن جانبا من الفاكهة والحلوى ويلاحظهم مما جذب اليه القلوب فلما آل الحكم الى ابنه سمبهاجي صار يأتى الى البئر وبدلا من أن يحسن الى الأطفال ويلاطفهم صار يمزح مع النساء ويغازلهن فيقبل واحدة

أويضع يده على خصر أخرى فلم تعد امرأة مقبولة الشكل تقبل على البئر إلا وتلحقها منه اهانة فاستاء مزارعوه وهجروا موطنهم وقصدوا مزارع الأفرنج المجاورة له ، وإن أميراً بهذا الخلق غير كفيل بالاحتفاظ بمركز والده ، ومما زاد الحال سوءاً أنه اتصف بخصال أخرى ذميمة ولم ينقذه من وهدة السقوط طويلاً إلا انتشار وباء الطاعون الذي حماه من مهاجمة عالم جير لأنه اضطر أن ينجى للندن القريبة من سمهاجى وذهب بعيداً في الخلاء حتى خفت وطأة الوباء وقد أسر سمهاجى بحيلة ماهرة إذ كان من عادة هذا الراجا أن يخرج ومعه وزيره البرهمى في وقت معين إلى مكان يسكر فيه وينصرف إلى اللهو فتربص لهما ضابط اسمه مقرب خان ومعه ابنه اخلاص خان وفريق صغير من الجنود البياذة والخيالة وصاروا متسترين لا يشعر بهم أحد حتى باغتوا سمهاجى ووزيره فقبضوا عليهما وعلى ابن سمهاجى ساهو وسنه سبع سنين واشتبكوا هناك في قتال مع حرس صغير فغلبوهم وأتوا بهم أسرى وأحضروا أمام عالم جير في حفلة كافأ فيها ضابطه ورفقائه على عملهم العظيم الجرى وعلى أثر حادث أسر سمهاجى ومن معه . اجتمع رؤساء الماهراتا لينظموا أعمالهم المشتركة في المستقبل ومن بينهم « نيراجى » الشهير وكان ذا رأى سديد ومعه الرجل العملى « سنفاجى » فانتخبوا رئيساً على الماهراتا راجارام الابن الأصغر لسيفاجى واتفق مستشاروه على أن لا يبقى في مكان واحد بل ينتقل من جهة إلى أخرى حتى إذا خيف عليه أرسلوه إلى مدراس البعيدة عن المغول ورمت جميع القلاع وملئت بالموثقين والذخائر واقتفيت تعاليم سيفاجى الحربية وقطعت الأعشاب وصار تخزينها في القلعة للخيول وأزيلت كل الأحطاب والحشائش من حول القلاع وجاء جيش المغول وصار يحتل قلعة بعد قلعة ومن بينها قلعة سيفاجى الخاصة « ريجار » وقد وقع الاتفاق بين الماهراتا على اسناد القيادة إلى « رام شندر تنت » وأن ينحى

الراجا رام الى جنجى . ولم يكن وصوله الى هذا المكان سهلا اذ كان يعترضه في طريقه جنود كثيرة ولكنه لبث ثياب كاهن برهمى ووصل ومن معه دون أن يكتشف أمرهم أحد وبمجرد وصوله جلس على العرش وصار يصدر الصكوك والهبات والمنح ويوزع الأراضي لا التي في داخل ملكه فقط بل وفي خارجه أيضا على أعوانه والعطايا التي كانت من هذا النوع لم تكن ذات قيمة في أول أمرها ولكن في النهاية صار لها شأن آخر عند ما أخذوا صكوكا بها أو عند ذريتهم من بعدهم وبدأ عالم جير يستعد في جهاده للهندوس من كل ناحية حتى أنه غير الأسماء الهندوسية وأصدر عدة أوامر ضد هذه الطائفة منها : أنه لا يصرح لأحد منهم أن يركب خيولا عربية أو عربية إلا باذن خاص وان أسماء المدن التي تنتهى عند الهندوس بحرف الهاء يجب أن يزال منها هذا الحرف فمثلا مدينة ملواه تصبح ملوا وبنغاله تصبح بنغالا ، وكانت هذه التصرفات في أواخر أيام عالم جير ومع ذلك كان يباشر كل شئ بنفسه ونظراً لشيخوخته كان ذلك فوق الطاقة من أجل هذا لم يستطع تنفيذ خطته ولم يتقدم فيها كثيرا فانه أرسل جيشا مكث أمام مدينة جنجى سبع سنين دون طائل ، وأما باقى جيوشه فقد وزعها في جهات متفرقة ببلاد الماهراتا ، فصارت تحتل حصنا وراء حصن ثم تعود فتفقد البعض ثم تسترده بعد عناء شديد وتكبّد خسائر جسيمة مما جعل الماهراتا يخرجون لمحاربة جيش المغول وجها لوجه وقد جعل عالم جير مركز جيشه العام في مدينة « براهماپورى » على نهر البيا في سنة ١٦٩٨ وبنيت هناك محلة كبيرة وصارت هذه القرية لعدة سنين مركزا لامبراطورية المغول وصارت تخرج منها التجريدات الى جهات مختلفة ولكن بدون نتيجة تستحق الذكر غير مجرد مرور الجيش على الأرض التي يختارها للمسير وصارت كل بلاد الديكاف لا تأمن الماهراتا اذ كانوا يحتاجونها جزءا جزءا ومن حين الى حين وصاروا

يفرضون على الأماكن التي يمرون بها ضريبة (العلوفة) وهي أكل خيل جيشهم
يضاف اليه مقدارا من النقود وكان كل شيء خارج حكم الماهراتا يتناوله الدمار
والهدم وقد كتب كافى خان المؤرخ وصفا لأعمال سيفاجى فقال ، « ان
سيفاجى » اشتهر بتخريب العامر من المزارع ومهاجمة كبار قواد المسلمين ولم
يتقابل مع واحد منهم الا وظفر به قتيلا أو جريحا أو أسيرا واذا صادف وسلم
أحدهم فانما يكون بحياته فقط مع تضحية جيشه وأمتعته حتى أنه صار اذا هاجم
مكانا لم يوجد له الضابط الذى كان يجرؤ فيخرج للدفاع عن حوزته وكانت
الخسائر التي ينزلها بخصومه تزلزلهم من الجزع حتى أن اسمعيل خان وكان يعتبر
من أشجع ضباط المغول في الديكان لم يقو عليه بل وقع جريحا وأسير في أول
مصادمة حصلت له مع سيفاجى ولم يتمكن من فكك نفسه من الأسر إلا بعد
أن دفع مبلغا جسيما من المال وكذلك كان الحال مع رستم خان وقد كان يعتبر
رستم الزمان حيث فاق السباع في شجاعته ومع ذلك هزمه سيفاجى في اقليم
ستارا وفقد كل ما معه ولم يتخلص الا بدفع مبلغ كبير أيضا وكذلك على مروان
المشهور بحسينى بج الحيدر أبادى فانه هزم ، ووقع أسيرا ولم يفك من أسره
إلا بغرامة كبيرة وتوالت الأخبار تباعا على عالم جير بهزيمة قواده وأسراهم
فأزعجته كثيرا وكان يخاطب الناس بقوله ان الخلق لا يعمل شيئا وكل شيء
بيد الله وفي الوقت ذاته بدأ هذا الملك الشيخ حروبه مع الانجليز والبرتغال وكان
يكره الآخرين كثيرا لعدة أسباب أهمها اكره المسلمين من رعاياه على اعتناق
الدين المسيحى ولامتلاكهم جزءا كبيرا من مملكة بيجابور السابقة وكانت قواهم
البحرية تتفوق على قوته ولكن الانجليز على عكسهم لم يتدخلوا في المسائل
الدينية ولم تكن سياستهم وقتها التوسع في داخلية البلاد بل الاكتفاء ببعض
الثغور البحرية الا أنهم كانوا ملجأ للقرصان الذين يعتدون على مراكز الهندود

وكان الانجليز أنفسهم يحترف بعضهم القرصنة ومما كتبه كافى خان ملاحظته أن ايراد جمر ك بمباى من التجارة وأهمها جوز الهند والتوابل لم يتجاوز ثلثمائة ألف رويية بينما كل أرباحهم من تجارة وزراعة تقل عن مليونى رويية ولم يكن هذا المقدار بمفرده ليكفى جاليتهم اذ كانت كبيرة العدد ولذا يتساءل كافى « من أين هؤلاء الكفار المبالغ الكبيرة التى يحصلون عليها ؟ » ثم يقول انهم جهزوا مراكب للقرصنة ويسطون بها على السفن التى تقصد رأس الرجاء الصالح وينتظرون الحجاج المسلمين أثناء عودتهم من بيت الله فيسلمون كل ما تقع عليه أيديهم من ذهب وفضة وأشياء ثمينة .

ولم ينكر المؤرخون الانجليز عبارة كافى خان بل اعترفوا أن بعض المجازفين من بحارتهم كانوا يمارسون القرصنة فى بحار الشرق حيث لم تكن للقوانين الدولية رعاية وقتئذ ، حيث أسروا السفينة « جانج سواى » التابعة للامبراطور وهى أكبر مراكبه ، وكانت مبحرة من سورات قاصدة ميناء موكا بالين . عندئذ طفق السكيل لدى الامبراطور فأمر بالقبض على أصحاب فاوريقاتهم والاستحواذ على نفس الفاوريقات ، فترأخى والى سورات ولم ينفذ هذا الامر كما يجب لما سيكون له من سوء الأثر على ايراد الجمارك التى كان يتقاضى منها ايرادا وافراً ولم يخدم كثير من الموظفين الهنود مصالحهم الخاصة فنفذوا ما فيه المصلحة للأجانب الأوربيين على حساب المصالح العامة مما كان له أسوأ الأثر على استقلال الهند السياسى ، بل مما أدى فيما بعد الى خروج الحكم من أيدي الهنود والمغول الذين صاروا هنودا بمضى المدة ولتزوجهم من الهنديات ، حتى انتقل الحكم الى الانجليز ، ولقد كان الأجانب فى أول الأمر تجارا عاديين ، لا بأس لهم ولا قوة ، ولا شأن لهم بالسياسة والحروب فأطعمهم الهنود أنفسهم ووجهوا أنظارهم للناحية السياسية لما استخدموا فريقا منهم فى الجيش وفريقا آخر فى استحضر

الأسلحة ولقد كانت الجاليات الأوروبية قليلة العدد فأخذت تتزايد شيئا فشيئا حتى أن بمباى ضاقت بهم وبنى الانجليز بها قلعة لا ترام وأتقنوا تحصينها ولذلك حينما أمر المغول عماله بالاعتداء عليهم لم يجد اصغاء تاما لأن الانجليز وقفوا في وجههم فحسب الامبراطور لقوتهم حسابا وتغاضى عما صمم عليه أولا وفيما بعد قبل الصلح مع البرتغال نظرا لتعهدهم له بتقديم مدافع قوية لمحاربة الماهراتا بها وكان حصار جنجى قائما على غير هدى وقد أناط بامر « ذا الفقار خان » وابنه الأمير « كوم بكس » وقد انقض عليهما فجأة سمبهاجى من الخارج رغبة في تخلص مدينة جنجى أو تخفيف الضغط عنها ثم انه اغتصب مؤونة الجيش وحال دون تموينه وفي الوقت نفسه أشاع اشاعة خبيثة كاذبة وقال أن الامبراطور قد مات فكان أثرها سيئا للغاية اذ فكر « كوم بكس » في الاستيلاء على عرش أبيه فلما آنس منه ذلك « ذو الفقار خان » و « والده أسعد » اضطر الى عقد هدنة مع الماهراتا وقد استاء عالم جبر من هذا الخبر وأطلق سراح الأمير إلا أنه لم يرجعه الى قيادة الجيش وأمر القائد باعادة تطويق مدينة جنجى ثانية فلبى الأمر مع كثير من التلكؤ والترأخى كسابق عادته الا أنها لم تقاوم طويلا وسقطت في سنة ١٦٩٨ وأشييع عن هذا القائد أنه قبل الرشوة من أعداء الامبراطور واستولوا على ذلك مع أن المدينة كان بها مقادير كبيرة من الذهب والفضة والجواهر، وكان يقيم بها أيضا كثير من الراجات ومع ذلك بعد احتلالها اختفى كل ذلك ولم يظهر أثر لا للثروة المسكدة ولا لأغلب الأمراء الهندوس واسكن مما يمدح عليه القائد ذو الفقار أنه أعطى تصريحاً لزوجات رام سنج وأولاده وأسرتهم بالخروج دون تعرض لهم ، فبارحوا المدينة وسافروا بحرا الى بلاد الماهراتا واسكن مع انتصار جيش الامبراطور في هذه الناحية فانه قاسى هزيمة كبرى في ناحية أخرى اذ هاجم الماهراتا بعض ولايات بيجابور فخرج اليهم

أحد القواد هناك (وهو قاسم خان) بجيشه ليضع حدا لاعتداءاتهم على أملاك
الامبراطورية ، فلما أدركه الخصوم وكاد أن يطوق من كل ناحية لجأ الى حصن
هناك فدخل فيه بنصف جيشه وبقى النصف الآخر خارج الحصن ووقع الجند
في مجاعة شديدة ولكن همت خان أسرع لنجدته وكان يقود الماهراتا في هذه
الموقعة سمهاجى ولكن همت خان هزمه هزيمة شديدة فاضطر الى الفرار وفي
أثناء مطاردته للماهراتا أصابت قنبلة همت خان فقتل في الحال ولما رأى جنده
ما وقع لقائهم تفرقوا الى كل النواحي وسلم باقي جيش قاسم خان الذى انتحر
من أجل هزيمته أما باقى أعوانه من الضباط فقد أطلق سراحهم بغرامة دفعت
عنهم وصارت كل أمتعة الجيش المغولى غنيمة فى أيدي الماهراتا وكانت قيمتها
تقدر بستة ملايين من الروبيات ولم يعيش سنتاجى طويلا بعد سقوط جنجى ،
ومما يؤثر عنه شدة وفقه فى النظام وافراط فى العقوبة حتى أنه على أصغر هفوة
كان يأمر بطرح المخطئ على الأرض لتدهسه الفيلة . ولم تكن الماهراتا تحبه بل
تخافه ، وكان أشدهم كرها له رام سنج لأن شخصيته اختفت أمام شخصية
سنتاجى البارزة ولم يستطع المغول ايقاع سنتاجى الا بواسطة ناجوجى الماهراتى
لأن سنتاجى سبق أن قتل أخاه دهسا بأرجل الفيلة ، وقد تتبعه ليأخذ ثأر أخيه
وذبحه . بينما كان يستحم فى نهر صغير بمفرده وهو أعزل عن السلاح وحمل رأسه
ناجوجى الى عالم جبر فعفا عنه اذ كان من الثوار وأعاده الى وظيفته السابقة وأخلى
المغول معسكر براهما بورى حيث دعى الجميع الى الجهاد (الحرب الدينى) فتوجهوا
الى ستارا ، وكان وصولهم اليها فجأة ولكنها قاومت الى سنة ١٧٠٠ ثم سقطت
وأثناء حصارها ألغما المجاهدون مرة فتطارت صخرة من سورها وبذل أن تسقط
داخل الحصن كما كان يظن سقط فوق رؤوس المحاصرين للقاعة فزاد ذلك فى
غیظ عالم جبر وهجم بنفسه كما لو كان يبحث عن الموت فيشتريه وأمر أن تجمع

جث القتلى وتوضع فوق بعضها حتى صارت تلا احتفى فيه المجاهدون في وقت
الافتحام وسلمت ستارا بشروط ؛ ومات دام سنج قبل تسليمها وتولت كبرى زوجاته
تراباى ولاية العرش وصية عن ابنها القاصر وقد أظهرت هذه السيدة مهارة في
الحكم فاقت مهارة سمهاجى ورام سنج زوجها وزادت حالة جيش المغول سوءاً
على سوء وقد حاصروا بعد ستارا حصن « بارلى » وأسقطوه وفاضت الأنهار ،
وكانت دواب جيش المغول عظاما على جلود وفقدت وسائل النقل
ولما عبر الجند النهر في حالة فيضانه تناقص حجم الجيش كثيرا بعد العبور لفرق
عدد كبير من العسكر ومع توالى الصدمات وتتابع النكبات لم يفقد عالم جير أمه
وكان كل جنده وضباطه ينحصر أمهم في موته ولكنه عاش بعد ذلك ست سنين
لجأ في خلالها الى طريقة جديدة ، اذ صار يساوم قواد حصون الخصوم على مشترى
مأبأيديهم من القلاع بالمال فكان من دهأهم أنهم يبيعونها ويننون قلاعا جديدة
بدلا عنها وأحدث منها وزادت ثروة المهاراتا بينما كانت تتناقص الأموال عند
المغول ، وقد سعى خصومه لديه أن يطلق سراح ساهو بن سمهاجى الذى سبق
وقوعه في الأسر ، وبعد أن مال عالم جير الى إجابة ملتسمهم عاد فرفض ذلك في
النهاية ، ولم يكن هذا الامبراطور مادام فيه عرق ينبض ليترك طريقه القديم وهو
الاستمرار في الحرب ومباشرة كل عمل بنفسه ، وكل ماوقع في السنين الأخيرة
كان حصارا يتلوه حصار وربحا في يوم وخسارة في آخر ، وانهمزما وانتصاراً ،
فيوما يكسبه المهاراتا ويوما يخسره المغول ، وقد امتلأت الظروف بالخاوف فحينما
يقع سطو وحينما يهرب سكان مدينة ، وفي آونة يشب حريق ، وكانت كل
أدوار الحياة آلام ومجاعات وفجائع متنوعة واختتم هذا العهد الغريب في سنة ١٧٠٧
بمدينة أحمد ناجور حيث مات عالم جير عن تسعين عاما وسواء سعدت الهند في
عهده أو شقيت ، علت أو انخفضت ، قويت أو ضعفت فلا يمكن لأى منصف

أن يعادل به ملكا آخر في سمو أخلاقه ، وطهارة نفسه فانه لم يعيش لشهوة ولم يطلب الملك ثروة أو جاه ولا تتمتع نفسه بنعيم هذه الحياة ، بل عاش لعقيدة وعمل من أجلها ومات في سبيلها ، وهذه العقيدة التي سعى لها ، وإن قاست الهند من أجلها أهوالا وخاضت بسببها حربا ، وفقدت رجالا . وبذلت أموالا فان الدافع لهذا كله كان شريفا عظيما ، وهو سعيه في نشر الدين الذي يصدق فيه ويؤمن به . لهذا كله كان شريفا عظيما . وقد كان في وسعه أن يعيش هادئا لا يقطع الفياض والقفار ولا يقتحم الحروب والأخطار ويجمع حوله الغايات ويسمع الأغاني المطربات ولا يحمل نفسه هموم الأفكار والحياة ، ولا يواجه الحصون المانعة أو السيوف القاطعة ، ولكنه رحب بالشدائد وكان يجري وراء الموت ليحيى دين الله الذي آمن به وبرسوله وبكتابه وسواء أخطأ أو أصاب في نظر المؤرخين الذين ربما عدوا ضحاياه جسيمة إلا أنه مات عرض انسان لأمر عظيم أو جرى وراء غاية كبرى دون أن تبذل الضحايا أو تخاض الأهوال والمنايا وحسبه حتى ولو أخطأ صدق نيته وزهده في دنيا يسيطر فيها على وسائل الأغنياء ويعيش راغبا عيشة الفقراء ، وحسبه أنه لم يخلق ملك في الهند مثله يستطيع قهر نفسه ليدفع عنها شيطان الشهوة ويتقى الله في حقوق الضعفاء والفقراء ، فلا يبعثر في الأموال العامة على ما يسمونه فخخة الملك وأبهة العرش فكل هذه خيالات غير صائبة ووسائل يوسوس بها بعض المنافقين والمتملقين والخير كل الخير والحق كل الحق أن يقتدى بمثل عالم جبر وأنى لهذا العالم أن يخلق فيه مثله :

هيات أن يأتي الزمان بمثله إن الزمان بمثله لضنين رحمه الله فقد أتعب من بعده إذا شاء اقتفاء أثره فلا روح مثل روحه ولا ارادة في الخير مثل ارادته ولا طباع مثل طباعه ، وهذا الملك الذي ملك كنوزا من أكبر كنوز الأرض عاش يأكل خبز الشعير ، ألم ينم على الأرض ؟ ألم يخلع

ثوب الملوك الثمين ؟ ألم يلبس برودة الفقراء ؟ ألم يجلس بين الجائعين يطعمهم ؟ —
ربما سخر قوم وقالوا ليست هذه طباع الملوك ولا عاداتهم فأقول حقيقة هذه
ليست أخلاق الملوك بل أخلاق الملائكة .

فهل الملك الذى يسع قصره مدينة ؟

وهل هو الذى تكثر ملايينه وتنسع أملاكه حتى يفوق المرابين ثروة ؟

وهل هو الذى يدخر الجواهر ويكنز الذهب والفضة ؟

وهل هو الذى يصرف ذات اليمين وذات الشمال ولا يعمل للمال حسابا ؟

وهل هو الذى ان جاءت أمة شبيع وان عطشت ارتوى ؟

وهل هو الذى تحيط به الحدائق الغناء وحوله الآلاف من الخدم ؟ بعضهم
يخلع ثيابه ، وبعضهم يلبسه ، وبعضهم يؤنسه ، وبعضهم يشى له ، وبعضهم يخدعه
وبعضهم يغويه ، وبعضهم يلهيه .

اهذه صفات بعض الملوك على وجه الأرض وفي أغلب الممالك ؟ حتى اذا
صلح منهم واحد فهو النادر . ولئن كان الأمر كذلك فعالم جبر هو الأندر بل
انه لم يكن من ملوك الأرض ، ولعله كان كالوحي وهبط من السماء وها قد
انقطع الوحي ولم تبق إلا الذكريات ، فما أحسن ذكره !

كتب عالم جبر لابنه الأمير أعظم كتابا طويلا حينما شعر بدنو أجله ، ومما قال :
أرجو لك الصحة ، وقبلى معك ، فقد بلغت من العمر أطوله ، ووصلت الى
قمة الشيخوخة ، وأخضعنى الضعف وهجرت القوة كل أعضائى ، ولقد دخلت
هذا العالم غريبا وغريبا منه أخرج . وهاهى نفسى أراى أجهلها ، ولا أدرى من
أنا ، ولا ما الذى خلقت من أجله وها قد ذهبت أيام السطوة والقوة وخافت
وراءها حزنا وكأنى لم أكن ولى أمر هذه الامبراطورية ولا حاميا ، وقد ذهب

وقتي سدى ولقد كان في ضميري مرشدا ولكن جلال نوره احتجب عن بصيرتي
المظلمة ، ولقد ماتت معي آمال الصبا وخذت في حرارة القوة ، ولم يبق مني غير
عظم وجلد .

رأي المؤرخين المسلمين

في عالم جبر

أجمعت لغة المؤرخين المسلمين الذين كتبوا عن سيرة هذا الامبراطور العظيم
أنه لم يوجد ملك من سلالة تيمور ولا من أى عائلة أخرى اسلامية جلست على
عرش دلهي من عادل عالم جبر في تقواه وعدله وشدته في الحق أو شجاعته وقوة
احتماله للمشاق في سبيل أداء واجباته العامة أو في سداد الرأي ، ولم يسئ الى حكمه
الا الخلافات والمنازعات التي قامت بين أفراد عائلته وأشرف الأمة لمنافسات
بينهم ، فكان كل عمل نافع يقوم به عالم جبر لا يثمر ثمرته المطلوبة بسبب هذه
الطبقات ، وكان حافظاً لقواه العقلية ولحواسه الخمس ، إلا حاسة السمع فقد تأثرت
تأثراً بسيطاً وكان يصرف ليله في التهجد والعبادة .

ملخص رأي المؤرخين الأوروبيين :

لقد كان رأي المؤرخ الأوروبي رأي الشامت الكاره وقد أجمع المؤرخون
الأوروبيون على أن الملك أكبر هو الذي وضع دعائم قوية يقوم عليها عرش
المغول في الهند واعتبروه خير حكام البلاد من ملوك المسلمين ، ومنشأ هذا التقدير
جاء من أنه كان يحسن معاملة الأوروبيين ولأنه اعترته نزعة في رأيه كانت تدفعه
الى السعى لتوحيد أديان الهندو باقتباس دين من خلاصة تعاليمها . فأما من الناحية

السياسية فقط تكون الفكرة حسنة وصالحة لو انه ضمن نجاحها ، ولو انه حينما بدأ في تنفيذ هذه الفكرة كان العنصر الاسلامي أغلبية لعدت هذه الفكرة راجحة ورشيدة لأنه يكون بذلك أبدى منتهى التسامح والاحترام للأقليات الدينية ولا بأس من أن يتسامح الأقوى للأضعف ، أو صاحب الكثرة لدى القلة - أما الأمر بالعكس فتكون فكرته من أخطر الأفكار لأنها اذا لم تنجح في زرع التسامح الحقيقي بين الأجناس والعقائد المختلفة وفي اجتثاث الضغائن التي في صدورهم فانها كانت ستكون وبالاً على المسلمين فيما بعد إذ تمكن لأغلبية من السكان في أقلية منهم لأن خطة أكبر كانت ترمى الى الاكثار من اسناد الوظائف للهندوس ولا شك أن إسناد الوظائف ما كان لينسيهم أن هذه الأقلية المغولية أجنبية عنهم ولن ينسوا أنها خلعت أمراء منهم عن عروشهم وهدمت معابدهم وحطمت أصنامهم وقتلت كثيراً من أبنائهم ، ومثل هذه الأعمال لا تطفأ نارها أو يذهب أثرها بوظائف أو رتب ينالها عدد صغير من الهندوس ، وعليه فان عالم جبر لم يهدم الأعمال الصالحة التي يقول الافرنج إن أكبر أوجدها ، بل الاصح انه كان يداوى الآثار السيئة التي خلقها الملك أكبر ، خصوصاً اذا علمنا واعتبرنا عالم جبر حاكماً مسلماً مسئولاً عن مصالح المسلمين الذين أجلسوه على عرش دلهي وأجلسوا آباءه وأجداده عليه من قبل رغماً عن ارادة الهندوس أما اذا اعتبرناه مجرداً عن كل عاطفة دينية وتقاليد اسلامية (وهذا بالطبع لم يحصل) وصار هندياً أكثر من الهنود فانه لن يعدم من الهندوس من ينازعه الحق وينافسه في العرش ويجد نفسه أجدر به وأكثر هندية منه وأقرب الى قلوب الهندوس لنشأته على دينهم وعوائدهم من أجل ذلك لم تكن سياسة أكبر الا خرقاء. ولم يكن رأيه إلا طائشاً وعلى العكس منه كان عالم جبر فانه رأى أن حزازات النفوس لم تمت وان التسامح يكون سابقاً لأوانه ويعرض المسلمين للطرد

كما وقع لهم في اسبانيا ، واذا كانت سياسته لم تؤد الى الغرض المنشود فلم يكن الذنب ذنبه إذ لو هادنه نفس المسلمين ولم يخرج عليه بعض أمرائهم لكان الأمر عكس ذلك. ومن أكبر الشواهد على حسن رأيه أن ولاية أسام في عهد شاه جهان والده أى من عهد غير بعيد كانت تهاجم ولايات البنغال وتعتدى على السكان وكانت البنغال هذه ولاية تحكمها المسلمون فلما جاء عهد عالم جير انقلبت المسئلة فبعد أن كانت أسام تهاجها صار عالم جير يهاجم أسام بواسطة قائده مير جملا ، ثم انه غزاها ، وبسبب دخول المسلمين فيها انتشر الدين الاسلامى ، وهذه فائدة عظيمة اسداها عالم جير لالهونود فقط بل لكل العالم الاسلامى فان المسلم أكثر ارتباطا بالمسلم وهم أشد عطفا على بعضهم وتعاونهم يعود عليهم بالمصاحبة من كافة وجوهها سياسية كانت أو غير سياسية ، والذي يرجع الى الاحصاء المدرج بدائرة المعارف البريطانية يجد أن سكان ولاية أسام طبقا لاحصاء سنة ١٦٠١ بلغ عددهم ٦١٢٦٣٤٣

الهندوس منهم ٣٤٢١٠٩٩

الأوروبيون والمهاجرون منهم ٧٧٥٨٤٤

والمسلمون منهم ١٥٨١٣١٧

فالذى يدرك أن عدد المسلمين في بلاد لم يكن بها مسلم واحد يصبح فيها نسبة المسلم الى الهندوسى كنسبة واحد الى اثنين أى أن المسلمين اصبحوا بنسبة لا يستهان بها بين السكان ولا شك ان مثل هؤلاء سواء بقوا مع الهند أو بتروا منها كما هو حاصل الآن فلا يخلو وجود مثل هؤلاء المسلمين من فوائد كبرى للمسلمين الآخرين لا تحتاج الى شرح أو توضيح . من أجل ذلك كان

عالم جبر مذموم لدى الأفرنج ، وهم أكثر تعصبا منه ، والروح التي عمل بها
عالم جبر في القرون الوسطى لازال أشد منها يتأجج في صدور الفرنسيين والانجليز
ونظرة سطحية تلقى على مساعيهم في بث معتقداتهم بين المغاربة في تونس
ومراكش والجزائر وجمعيات التبشير في السودان وما يبذل لها من المساعدات
الحكومية يشهد بما عند هؤلاء القوم من التعصب الذي لم تخمد جذوته .

بهادر شاه

١٧٠٧ - ١٧١١

مات عالم جير في سنة ١٧٠٧ وترك ثلاثة أبناء وهم شاه عالم ، وأعظم شاه والأمير كوم بكس وقد تربع الأول منهم على عرش أبيه وتسمى بهادر شاه وكان بهادر أيام امارته قد وقع تحت سخط أبيه قبل وفاته بعشرين سنة فحجزه مدة ثم عاد فعفا عنه وولاه الحكم في كابل فبقى بها حتى مات والده ، فانضم له منعم خان مؤيدا ، وكان من أكبر رجال الدولة في لاهور ، فلما صار تحت سلطته جيوش الولايتين وهما لاهور والأفغان زحف بهما الى عاصمة الامبراطورية وكان له ولدان أحدهما عينه جده حاكما على ملتان والثاني على البنغال ، فعززا مركز والدهما ، وكان أخوى بهادر ينازعان على العرش وكان الأمير أعظم وهو الابن الثاني لعالم جير حاكما على مقاطعة ملوا فلما علم أن والده لفظ نفسه الأخير ، جعلهم يتلون الخطبة باسمه واعتلى العرش وكان الأخ الأصغر كوم بكس حاكما على مملكة بيجابور ، وقد أوصى والده له بها قبل وفاته ، كما أوصى بباقي الديكان الى الأمير أعظم ، وأن يكون شاه عالم (بهادر شاه) امبراطورا على الجميع ، وقد ذكر هذه الوصية كثير من المؤرخين الشرقيين وقالوا بصحتها . وقد قيل في المثل انه لا توجد مملكة مهما اتسعت مساحتها تكفي ملكين ، ويظهر أن الأمراء صمم كل واحد منهم في نفسه ، أو حرصه البعض ممن حوله على أن يستأثر بالملك ولكن في الواقع كان الأخ الأكبر بهادر شاه أسهلهم طبعاً وأكثرهم ميلاً للوئام ، علاوة على صدق نيته في احترام وصية أبيه فقبل أن يبقى لأخويه حكم الديكان وأن يستلم كل واحد منهما ما خصه له والده ، ولكن هذه الرغبة الصادقة لم تقدر في التوفيق بين الاخوة

وأُسرع الأمير أعظم محاولا الوصول الى أجرا قبل أخيه شاه عالم ولكن الأخير
حاز قصب السبق في الوصول وحاز العرش أيضا . اذ كانت نية قائد القلعة
هناك ترمى الى تسليمها لأول من يصل منهما ولم ينل بهادر شاه العرش فقط بل
وضع يده على الكنوز الكثيرة التي خلفها عالم جير بأجرا ، ولم يثنى ذلك عزم
الأمير أعظم من الاستمرار في المسير الى العاصمة ولكنه وصل متأخرا وتنحى
عنه أكثر أعوانه لما بدا منه من شح النفس وغلطسة الطبع التي نفرت مؤيديه ،
وحينما وصل أطلق سراح ساهو حفيد سيفاجي الذي كان قد أسره عالم جير ،
ليكسب بذلك عطف الماهراتا وحصل صدام بين الأخوين بجيوشهما وكانت
بوادر القتال تبدو في صالح الأمير أعظم ، الا أنها في النهاية صارت ضده . فلما
رأى ذو الفقار قائد جيش أعظم أنه سيخسر الموقعة وأن الكثير من أعوانه قد
قتل وأن الأمل في الخلاص صار ميثوسا منه توجه الى أعظم وقال له « ان بعض
أسلافك قد قامى نفس موقفك الحاضر ، ووقع في الهزيمة وتخلت عنه الجيوش
والرأى عندي أن تخضع لحكم الظروف القاهرة ، وان أسلم طريق لك الآن
أن تترك الموقعة وتذهب بعيدا حتى يعود لك الحظ من جديد ، فعندئذ تحاول
أن تسترد في المستقبل ما خسرتَه اليوم » . فبدلا من أن يصفى أعظم الى النصح
ليدفع عن نفسه الخطر ، اندفع في الغضب وقال لقائده . « اذهب أنت
بشجاعتك وانقذ نفسك بأى طريقة تحلو لك . أما أنا فمن المستحيل على أن
أبرح هذا الميدان ولا يوجد لأمير مثلى غير واحدة من اثنتين ، التخت أو التخته »
ولكن لم يطل الأمد فقد غربت شمس حياته اذ أصابه سهم فقضى عليه . ولم
يظهر شاه عالم القسوة التي اعتادها غيره من بيت تيمور في المدة الأخيرة اذ لما
قبض على أولاد أخيه لم يقتلهم كما أنه عفا عن ذى الفقار والحقه بجيشه وفي
سنة ١٧٠٨ انتهت الحرب الداخلية وكان الامبراطور يريد أن يبقى بيجابور

محت حكم أخيه كوم بكس وأن يضم إليها باقى ولايات الديكان ولكن هذا الأمير الذى كان متفطرسا قاسيا رفض هذه المعاملة الطيبة ولم يصنع الى عبارات الترضية التى صدرت من أخيه بسخاء ورقة ، وعادت الحرب بينهما وقد أظهر فيها الأخ الأصغر جسارة جنونية ولكنه سقط مع ابنه فى عداد الجرحى وخسر الموقعة ووقعا أسيرين ، فاعتنى بهما الملك وأرسل أطباء أوروبيين لتضميد جراحهما والعناية بهما ، ولكن كوم بكس رفض كل معالجة كما رفض تناول الطعام وتوجه الملك لزيارته فى المساء وواساه كثيرا وكان يلبس عباءة فخلعها ووضعها على أخيه الجريح وصار يسقيه المرق بيده لتغذيته وأظهر نحوهما كل عطف وحنان وقال لهما معتذرا « انى لم أكن أود أن يقع لكما ما حصل من مكروه » فرد كوم بكس قائلا . « كذلك لم أرد أن فردا من عائلة تيمور يسلم نفسه دون قتال فيوصم بالجن وقد ودعهما الملك والدموع تجرى فى عينيه رحمة بهما ولكن لم تمض أربع ساعات حتى مات الجريحان ونقلت جثتهما الى دلهى حيث دفنا فى مقبرة هامبون وصفا الجول بهادر شاه وصار لا ينازعه أحد فى العرش ، ومع ما طبع عليه الملك الجديد من صفات الرحمة والاعتدال اللتين تحببانه الى الناس فإنه لم يكن يصلح للقيام بأعباء الملك ، وقد جاوز كرمه حدود التبذير وقد قيل عنه انه لم يرفض طلب طالب واستمر على ذلك السخاء حتى أفنى الكنوز العظيمة التى خلفها له والده فى وقت قصير حتى قيل انه لم يتبق مالا احتياطيا للطوارئ التى تستهدف لها كل مملكة ، وما شهد به المؤرخون لهذا الملك كرمه وفضائله وحسن طويته ومداراته للعيوب وعفوه عن الذنوب وقليل من الملوك من كان يوازى شاه عالم من هذه الناحية الاخلاقية وخصوصاً من كانوا من سلالة تيمور

ولكن من ناحية أخرى كان شديد التواكل والاهمال فى المسائل الخاصة

بمحاربة المملكة ، وكيفية ادارة أحكامها ، وكان من عادته النوم بالنهار واليقظة بالليل فكان متعبا لمن يباشرون الأعمال معه وبالاختصار فانه لم يكن يصلح لحكم هذه الامبراطورية المغولية خصوصا في أوقات الاضطرابات التي بدأت تظهر وممن أيدته في ادارة الأحكام ذو الفقار خان ووالده أسعد ومنعم خان الذى ارتقى الى رتبة خان الخانات ، ومع أن أسعد صار وزيرا الا أنه كان متقدما في الشيخوخة ورغمما عن مركزه الأدبي لم يكن يصلح للعمل وكان الحمل الأكبر يقع على عاتق ابنه وخان الخانات الذى كان صوفيا وقد تأثر به الملك حتى قيل انه قرب من الشيعة ان لم يكن صار شيعيا بالفعل لأنه أوصى أن يقال في خطبة الجمعة انه صار وصى الامام على وهذا أهاج السنين من المسلمين وجعلهم يرفعون السلاح في وجهه ، ووصلت اليه تقارير تنبئ بقيام الهياج في أجرا ولاهور واحمد آباد ، حتى أن خطيب جامع احمد آباد الذى تلا اسم الامام على قام عليه المصلون وجذبوه من أعلا المنبر واستمروا يطعنونه بالخناجر حتى فاضت روحه وفي مدينة لاهور حيث يقيم شاه عالم هب أساندة الشريعة هناك وتوجهوا الى الملك وأظهروا له اعتراضهم على خطته فسلم اليهم الامبراطور لا بسبب اعتقاده كما يقول المؤرخ بل خوفا من الاضطرابات ، وكان مساهما لاهوريدا واحدة حتى اضطر الملك الى سحب هذه الكلمة وفي النهاية أمر بأن تتلى خطبة الجمعة طبقا للنص القديم الذى كانت تلقى به أيام والده عالم جير ، ولكنه أظهر استياءه فيما بعد من بعض العلماء البارزين وسجنهم ، وكان خان الخانات فى حكمه يتوخى طريق الرحمة والعدل وقد شكى اليه بعض الموظفين من أنهم كانوا يكلفون بمأمورية تغذية المواشى الامبراطورية حتى صارت حاصلاتهم لا تكفى إذ كان بعض الضباط لا يكتفون باطعام الدابة بل يطلبون مالا علاوة على ذلك ، فأدى الأمر الى جلد وتعذيب من كان يخالف هذه الطلبات من

الموظفين ، فنظر رئيس الخانات في أمر هذه الشكوى بعين العدل ورفع الظلم الواقع عن المشتكين ، وقد مات هذا الوزير المنصف قبل سيده بمدة قصيرة ، وقليل من الوزراء في أواخر العهد المغولي من كان يصلح للوزارة ، وكان هو في مقدمة هذا القليل ، اذ كان ذا سيرة طيبة وقال عنه كافي خان انه يميل الى التصوف ويصدق الفقراء ولم يتسبب في ايداء أحد طول حكمه ، ولكن النوايا الحسنة التي كان يظهرها هذا الرجل كثيرا ما ساء تنفيذها ، فقد قام بذهنه مرة أن يبني في كل بلد جامعا ومدرسة وخانا احياء لذكره بعد موته وتقربا الى الله بعمل صالح ، فكتب الى كل الولاية والحكام لتنفيذ هذه الرغبة ومشتري الأراضي اللازمة لهذا الغرض ، كما أنه أرسل مبالغ جسيمة الى الجهات المختلفة للصرف منها على هذا المشروع فلما وصل الأمر الى الولاية هبط عليهم كما لو نزل من السماء فاشتروا الأرض اللازمة وجاد بعض أهل الخير بها صدقة منهم ، أما في الجهات التي لم يتوفر فيها الطلب أو لم يحصل الاتفاق بخصوصها على الثمن الذي يرضى الطرفين صار الموظفون في هذه الحالة يستعملون سلطتهم ويضطرون من يقع عليه اختيارهم الى اخلاء مسكنه أو تسليم أرضه لهذا الغرض حتى أنهم أخرجوا سكانا من مساكنهم وملاكا من أملاكهم عنوة واقتدارا وعلى ذلك تولد الشر من الخير الذي أراده خان الخانات بما ارتكبه الحكام من المظالم في تنفيذ ارادته .

أما فيما يتعلق ببهادر شاه فقد خلف له والده مركزا سياسيا دقيقا اذ تولى العرش والهندوس تغلى مراحل غضبهم من معاملة والده لهم وظهر فيهم روح التمرد والانتفاض ، فمثلا الراجبوت وكان يرأسهم الراجا آجيت سنج الذي على أثر موت عالم جير أصدر أمراً بمنع ذبح الأبقار التي يعتبرونها حيوانا مقدسا وهذا الأمر بطبيعة الحال كان يسرى على كل سكان الولاية فلم يكن يقصد

سريانه الا على الأقلية المسلمة فان الأ كثرية الهندوسية لا تجيز شريعتها ذبح الأبقار كما أنه منع المؤذنين في الجوامع من تلاوة الأذان . وأمر فوضعت القاذورات في مساجد المسلمين وبدأ في بناء معابد للهندوس ، فلم يجد شاه عالم مفرا من الزحف على راجبوتانا فزحف بجيشه واخترقها عدة مرات لمنع هذه المصادرة التي وقعت على المسلمين في عقيدتهم وحمائهم وانتقلت جيوشه فيما بعد الي منطقة السبك حيث ظهرت بها اضطرابات

وعلى أثر خروج الجيش المغولي من راجبوتانا أصبحت هذه الولاية شبه مستقلة حتى لم تعد الامبراطورية تتدخل في شؤونها ولم تعد تعتمد عليها في تموين المغول بجنود للحروب التي تقوم بها الدولة ، وعقد الراجات الثلاثة — وهم راجات ميوار ومروار وعنبر — وهم الذين عرفوا حديثا براجا أودايبور وجايبور وجودبوره اتفاقا ثلاثيا بينهم بموجبه يتعاونون ويتولون الدفاع عن أملاكم وأن لا يصاهروا أمراء المغول ، واتفقوا أيضا على أنه اذا تزوج أحد الراجات ابنة راجا آخر فيكون الابن الأكبر من ثمرة هذا الزواج ولى عهد ، ويخلف والده (لأن الراجات يتزوجون أكثر من واحدة وقد تلد زوجة ليست ابنة راجا ولدا فان كان هو الأكبر فلن يكون ولى عهد بموجب هذا الاتفاق وذلك كله رغبة في تدعيم الرابطة بينهم وتقويتها) الا أن هذا الاتفاق أثار شقاقا فيما بعد بين الاخوة كانت نهايته الاضرار باتحادهم الراجبوتي لأن قانون الوراثة لم يكن محترما ومرعيا في أى بلد مثل ما كان في راجبوتانا .

ظهور عنصر اضطراب جديد

في الامبراطورية

في أوائل النصف الثاني من القرن الخامس عشر ظهر في الهند مذهب جديد يسمى مذهب السيكت ويوجد أكثر أعوانه في ولايات الهند الشمالية وأهمها البنجاب وكشمير والسند وتنحصر تعاليمه الأساسية في الاعتقاد بوحداية الله الذي ليس هو (رام) ... (رام هي الكلمة التي تعادل لفظة الله عند الهندوس) ولا هو الله الخاص بالمسلمين بل هو الرب رب العالم بأجمعه وليس إله المسلمين بمفردهم ولا رام الهندوس بل رب كل النوع البشري ورب كل الأديان وعلى ذلك فكانوا ضد فكرة الأصنام وتقمص الأرواح للأجسام على الطريقة الهندوسية وضد فكرة وجود طبقات بين الناس كما هو عند الهندوس ، فهي تعاليم نائرة على عبادة الأصنام ، وتحتم المساواة بين الناس ولا تجيز حرق الأرملة إذا مات زوجها إذ كانوا يعتبرون أن التي تموت بسبب الصدمة على الزوج أكثر إخلاصاً من التي ترغم على أن تحرق بعده . كذلك كانوا يحرمون الخمر والدخان والحج إلى الأنهر المقدسة في الهند ، وتحرض تعاليمها على الفضيلة والوفاء وعرفان الجميل ، وتعترف بتناسخ الأرواح بشرط أن تبقى الروح متمصصة في الجسم الجديد إلى أن تكفر عن ذنوبها وخطاياها حتى إذا تم ذلك عادت الروح ثانية إلى ربها ولم ينتشر هذا الدين ولا تعاليمه مرة واحدة ، وكان ينسب خرافات الأزمنة المتوالية التي لحقت بالأديان إلى العمى الروحاني ، ثم انتقلوا خطوة في تعاليمهم فصاروا يحاربون الفوارق الطائفية التي كانت بين الهندوس وخصوصاً عدم أكلهم أو تكلمهم سوياً ، ثم اتجهت أنظارهم إلى محاربة الأصنام والتقاليد

الخرافية كحرق الأرامل ثم صاروا ينشرون بين الناس أن الله واحد حتى باق أبدي لم يلد وهو عظيم كريم ثم حرموا أن يكون لرجال الدين ملابس خاصة إذ كثيراً ما أدى ذلك الى خلق امتيازات لهذه الطائفة علاوة على أنها تشير حولها شيئاً من الأوهام والتضليل وكانوا يقولون عن الذين يذهبون الى الأنهر المقدسة إنه وأن كان نزولهم بها ينظف أجسامهم فإنه يزيد في عدم صفاء عقولهم وقالوا ان أهم من عبادة الله من المعابد والمساجد عبادته في أى مكان آخر بروح حققة وصدق نية دون إطلاق البخور واحراق خشب الصندل والضحايا (عادة هندوسية) . وكان في كل زمن يعين لهذه الطائفة رئيس يسمى « الجورو » في عهد السادس منهم وهو « هارجوفند » أدخل أنظمة على هذه الطائفة بمقتضاها تصير حماية المتفرقين في الجهات فسلحهم جميعاً حيث اعتقد أن لا بقاء لهم بدون سلاح . ومن عهده بدأت الروح العسكرية فيهم تأخذ شكلاً حاداً وقد كان مبدأهم من قبل أنه اذا أساء لك أى واحد فاحتمله فاذا احتملته ثلاث مرات فالله يحارب من أجلك ويهين أعداءك . ولا شك أن تخليهم عن التسامح وكان من بين تعاليمهم والتجاءهم الى الروح العسكرية سواء أكان قصداً أو اضطراراً فقد غير من طباعهم كثيراً فصاروا وحوشاً كاسرة وقد تعددت منهم الثورات . وما طبعوا عليه من انقيادهم الأعمى لأستاذهم الدينى (الجورو) فكان اذا دعاهم الى قتال عن الطائفة تفانوا في تلميته وكان رئيسهم الدينى يعتبر نفسه نبياً ، ولكن لم يقل في يوم من الأيام انه نبي بالوحى أو أنه يأتى بالمعجزات وكان يحترم اعتقاد الهندوسى القائل بوجوب احترام الأبقار كما انه احترم فكرة بعض المسلمين للخنزير كحيوان نجس ولكنه كان على تقيضهم (كما يقول) فلا يهتم بهذه التوافه بل كان يجعل جل اهتمامه باقتفاء المثل الأعلى في كل شىء فلم يهن البقرة ولم يتحجب الى الخنزير انما حرم أكل اللحوم بتاتاً .

والآن وقد ذكرنا الوصف المختصر لعقيدة هذه الطائفة ورجعنا الى تاريخهم السياسى فنراهم تغيروا كثيرا عن نشأتهم فى أول الأمر اذ انتشرت فيهم الروح الحربية كانتشار النار فى الهشيم . حتى أنهم بدأوا يعصون أوامر الحكومة فى عهد الملك جهانجير الذى سجن ابن رئيسهم لعصيانه عن دفع الضرائب ، ثم أنهم فى عهد شاه جهان ثاروا عليه ثلاث مرات ، وفى مرة منها هزموا جيوشه وفى عهد عالم جير اضطر أن يتبعهم ويقتنصهم لما تكرر منهم من كثرة الأذى والمشاغبات حتى أنه سجن زعيمهم الدينى وقد رويت عنه رواية جاء فيها أن عالم جير سجنه فى دلهى ثم اتهمه بأنه كان ينظر دون احتشام الى الناحية التى يسكن فيها حرم الملك بأن أطل عليهم من فوق سطح السجن فقال ، « يا عالم جير ، انى كنت حقيقة فوق سطح السجن وكنت أنظر الى الناحية الغربية حيث يوجد سكن نسائك ولكنى لم أكن أنظر اليهن بل كنت أنظر نحو الغرب لأنه المنفذ الذى صار يتقاطر فيه الأوروبيون الذين يأتون من ناحية البحار ليستحذوا على أملاك رعيتك والقضاء على عرشك وسلطانك »

ولما جلس بهادر شاه ساءت العلاقة بينه وبين (بندا) رئيس السيک وقد وجد الملك فيه خصما عنيدا إذ ادعى أن رئيسه السابق تقمصت روحه فى جسم بندا لتنتقم من المسلمين لأن واحدا منهم قتله ، ولما أذاع بندا على قومه أمر تقمصه ثار كل أعوانه وزادهم ثورة طرقه السحرية التى وصفها فى شكل معجزات تغريرا لسخفاء العقول ، فاما شقوا عصا الطاعة ، تجمعت جموعهم واتجهوا نحو مدينة « سيرهند » فدافع عنها حاكمها (وزير خان) ولما هزم وذبح ووقعت المدينة فى قبضة السيک وكانت من الأمكن العامرة حيث يكثر بها التجار الأثرياء ويوجد بها عدة مصارف مالية وفريق كبير من الأعيان الأغنياء وكانت مركزا كبيرا للتعليم وأخصه الدينى ، ولم يتمكن أحد سكانها من انقاذ نفسه من

هذا البلاء الذى حل بهم فأريقت دماؤهم وذهبت ثرواتهم نهبا مشاعا واستمرت
المذابح بها ثلاثة أيام ، فلم يرحم السيک أحدا حتى الأطفال والنساء وزادوا فى
بغيرهم حتى كانوا يخرجون الأجنة من بطون أمهاتهم ثم حرقوا كل المساكن
وكانوا كلما وجدوا مسجدا أو مقبرة أو أى مكان محترم عند المسلمين هدموه
وحرقوه ولقد بعثوا عظام الأموات وكثيرا ما وقع بين المسلمين والمهراثا أو
غيرهم قتال ولكنه لم يصل فى وحشيته الى ما وصلت له هذه الطائفة من القسوة
والبربرية التى لم يعرف بها التاريخ الا اذا استثنينا عهد جنكيز ، ثم انهم تسلطوا
على المنطقة الواقعة بين لاهور ودلهى فصاروا ينهبون ويفتكسون بأهلها وقد
انضمت اليهم فصيلة من أهل هذه الجهة تسمى (الجات) وكانوا غالبا يتجنبون
المدن المحصنة وينقضون على الأماكن الخالية من التحصين فيعيشون فيها فسادا
ويسلبونها . وقال كافى خان « ان هذه المنطقة كانت هدفا لهذه الطائفة الكافرة
فطوقوا البلاد وخربوها وذبحوا الآلاف من سكانها وفى مقدمة البلاد التى
نسكبت بهم مدينة لاهور وشاه دارا وكرنال وأسروا مئات من الهندوس
والمسلمين معا فقصوا عليهم ذبحا . وقد انضم الى السيک كثير من طبقات
الهندوس المنبوذة ووضعوا أنفسهم تحت تصرف هذه الطائفة وقد أبطأت حكومة
المغول فى فهم هذه الحركة أو وضع علاج لها حتى زاد شرهم وتفاقم ضررهم لأن
الحكومة لم تقم لهم وزنا ولا حسابا كما كان الحال مع المهراثا الذين عدوهم فترانا
فصاروا فيما بعد أسود وكان اهتمام شاه عالم منصرفا وقتها الى الراجبوت ، لكنه
كان لظهور طائفة السيک بمظهر القوة الزائدة فى قلب الامبراطورية ضرر بليغ ،
وأخيرا وفى سنة ١٧١٠ فقط استيقظ شاه عالم من نومه فأوفد اليهم جيشا تحت
قيادة أمين خان وكان من أكفأ قواده فزحف عليهم وطوقهم فى وسط منطقة
من التلال ثم حاصرهم فى حصن لوجارا وطال أمد الحصار فنفذت مؤونتهم

شيئا فشيئا ولكن من تدهور حال المغول في الحكم صار أعداؤهم يشتركون
المؤون من نفس التجار المتعبدین للجيش المغولي ولا شك أن وقوع مثل هذا
التدليس لا يجيء الا من تراخى النظام العسكري اذ كانوا يدلون سباتا
مربوطة في حبال من أعلا الحصن فيملؤها التاجر بما يلزم ويرفعها المحصورون
الى سور الحصن فعاونتهم هذه الحيلة على طول المقاومة . فلما ازداد يأسهم اخترقوا
صفوف المحاصرين وفروا الى جبال الهملايا ، وقد قلد أحد رجال السيك زعيمهم
بندا وبني في الحصن فسر لأسره المسلمون ولكن لما اتضح لهم تزيف الشخصية
سخطوا كثيرا وأسرروا راجا الثلج (أى راجا الهملايا لوجود ثلج بها) انتقاما منه
لايوائهم عنده ووضعوه في قفص . واقتنى أثر السيك وهزموا إلا أن بندا زعيمهم
لم يزل طليقا ، وبدا على هذه الطائفة الضعف المؤقت إلا أنها فيما بعد قويت
واشتد ساعدها حتى صارت من أقوى قوات الهند التي ستحارب نفس الانجليز
طويلا . وكان مما ساعد هذه الطائفة على الظهور ضعف الحكم المغول
في أواخر أيامهم ولو كان فيهم مثل عالم جير أو شاه جهان لما تمسكوا من ذلك .

ولقد بدأت الامبراطورية المغولية تتحلل وتذهب هيبتها ، وتضعف قوتها
بسبب سوء الادارة وإن من أغرب الأمور أن يساهم فريق من اللصوص
وتكون له اليد الطولى في اسقاط امبراطورية لها تاريخ مجيد مع أن هذا
العامل الذي يهددها كان يكفي في معالجته الضرب على أيدي الأشقياء ، والقضاء
عليهم أولا بأول قبل أن ينموا شرهم ويستفحل أمرهم . وها هو باب راى كان
رجلا فقيرا يبيع عرق النخيل في الشوارع ، وزاد طمعه فاعتصب أموال أخته
ثم تقدم خطوة أخرى في الاجرام فجمع عصاة صغيرة من الأشقياء وصار يهاجم
الآمنين ، ويقطع الطريق على المسافرين وكبر شيئا فشيئا حتى بنى قلعة يعتصم
بها وقت الخطر ، فجدد عهد سيفاجى وسمباجى وبلغ من عظم شأنه في القوة .

أن حاكم الديكان زحف عليه بجيش وحاصر قلعته ، فلم يستطع إخضاعه قبل انقضاء تسعة أشهر مضاهها في حرب طاحنة ولو أنه حزم أمره وعالج مثل هذه الصفائر قبل أن يكبر شأنها لوفر كثيرا من الضحايا التي بذلها ، والتي زادت الأمبراطورية ضعفا حتى أصبحت الحالة السائدة فيها أن الحكم للأقوى فكل من رأى نفسه أكثر جاها وأعز نفرا استعمل هذا التفوق على جيرانه وصار حاكما بأمرة فضربت الفوضى أطناها وتلاشى الضعيف وازداد القوى فجورا وتمردا مما كان مقدمة لسقوط هذه الدولة ذات التاريخ الغني بمجد ملوكها الأولين وأثرهم العظيم في نشر الاسلام وثقافته واحداث المباني العظيمة التي لا زالت تشهد بما وصلت اليه الهند من مدنية ورفاهية ورقى في الفنون والصنائع ولقد مات شاه عالم في سنة ١٧١١ بمدينة لاهور وكان آخر حاكم مغولي استطاع أن يسند اليه شيء من المديح في أيام حكمه .

جهان دار شاه

— ١٧١١ —

تولى هذا الأمير العرش بعد أبيه وكان له ثلاثة من الاخوة نازعوه أمر التاج
والذى يرجع الفضل اليه فى حصوله عليه هو موت أحد أخوته غريقا فى نهر راوى
وأن آخر منهم أصيب خطأ بطلق نارى ، وكان يؤيده فى الجلوس على العرش
أكبر قائد فى الدولة وهو ذو الفقار خان الذى أجهد نفسه كثيرا حتى رآه على
عرش أبيه ، وقد قيل عن هذا الملك انه لما علم بوفاة أخويه صدفة وقتل الثالث
وانه صار امبراطورا تلقى كل هذا وهو فى حالة سكر ولم يدم حكمه إلا عام واحد
وبضعة أشهر مضاهيا فى الدعارة هو وحاشيته ، وكان مغرما باحدى جوارى القصر
واسمها لال كوار ، وقد كانت ذات دل وسلطان عليه ، وكان كثيرا ما يرافقها
ويخرجان معا فى شوارع دلهى . وقد رجع بها مرة وهو لا يعى من السكر فترك
فى العربة حيث لم يجزأ أحد على ايقاظه حتى الصباح ، وهذا التبذل منه أغضب
كثيرا من كبراء الدولة ، وكم عبثت جاريته لال كوار بالشؤون العامة حتى
أحضرت رجلا يبيع الخضر فى الشوارع ، وبعض خدمها وأسندت اليهم بعض
الوظائف الكبيرة ، مما أدخل بالنظام وزاد الحالة ارتباكا ، واتفق مرة أنها خرجت
راكبة فى الشوارع فقابلها موكب « نظام الملك » حاكم الديكان فى المستقبل
فأصدرت أمرا الى رجال هذا القائد العظيم — لكن بطريقة خشنة منافية
للاداب — أن يخلوا لها الطريق ، فأمر القائد رجاله بالانصياع لأمرها ولكن
لما مرت عليه هذه المرأة تلفظت بعبارة وقحة وجهتها للنظام بنفسها فلما رآها لم تحترم
شخصها بسبب مسلكها الذى سلكته معه ، أمر رجاله بضرب أعوانها ، كما أنه

طرحها وألهمها بالسياط تأديبا لها ، فذهبت وشكت أمرها للامبراطور ولكن ذو الفقار وكان صاحب السلطة والكلمة أشار على الملك بصراحته المعهودة أن يتغاضى عن هذا الموضوع لكيلا يجلب على نفسه خطر الخروج من العرش نظرا لما للنظام من قوة وبأس .

ومما روى أيضا أن الامبراطور عين أخا للال كوار محافظا وكان موسيقيا ولكن ذو الفقار رفض تنفيذ القرار الخاص بتعيينه في هذا المركز ولما سأله جهان دار شاه قال له بصراحته المعهودة « نحن رجال الحاشية لا نقدم خدمة لأحد إلا اذا أعطانا الرشوة التي ننتظرها أزاء الخدمة التي يراد منا انجامزها » فابتسم الامبراطور من قوله وقال له « وما هي الرشوة التي تطلبها منه حتى تؤديها لك ؟ » قال « عاينه أن يحضر لى ألف عواد بأعوادهم . وما دمت ياسيدي تعطى للموسيقين الوظائف التي تسند لأمثالنا ، فيجب علينا والحالة هذه أن نختلط بهم ونحفظ عنهم صنعتهم » فابتسم الامبراطور وفهم الغرض من كلامه في هذا الموضوع ، فسكت .

وكم كان في الهند من الملوك الذين اشتهروا بالدعارة والتهتك ، ولكنهم لم يصلوا الى حد جهان دار إذ كان لا يعرف التستر على فضائحه ، وكان في هذا الوقت فاروق سيار واليا على البنغال بالاسم ، ولما تولى جهان دار العرش أرسل الى جعفر خان الذي كان والى البنغال بالفعل أن يعتقل فاروق ويرسله أسيرا وقد كاد جعفر أن ينفذ ارادة الامبراطور لولا ما رآه من أن فاروق كان تحت رعاية والى « بتنا » الشريف « حسين على خان » ، وقد كان أحد أشرف بارا وقد كان هو وأخوه من أقوى أشرف هندستان في وقتهم وكان ثانيهم قومندان لحيش الله آباد فجهز الاخوان جيشا وتوجها به نحو نهر الجانجيز وبمجرد أن التحمت جندهم مع جيوش جهان دار وولده انهزمت القوى الامبراطورية حيث أظهر

الامبراطور جينا في الحرب ولم يكن مؤيدوه عندهم النية الصادقة لتأييده فهرب جهان دار الى مدينة أجرا وتوجه لمخاطبة أسعد خان الذي ما زال رئيس الوزراء بالاسم فأراد الوالد أن يقبض عليه ويسلمه لخصمه ولكن رأى ذى الفقار كان المقاومة لأنه لم يكن ينتظر من فاروق خيرا ، ولكن لما بارح ذو الفقار مكانه بعد المقابلة قبض عليه وذبح وأخذ والده وصودرت كل أملاكه وأودع السجن ، وحل محل هذين الوزيرين الأخان السيدان شريفا بارا ، فكان هذا التصرف سببا في ضياع الملك فاروق سيار لأنه رغما عما أداه لهذين الشريفين لم يثق به ، وعلاوة على ذلك فقد ارتقى في أحضان رجال من الحاشية لا كفاءة لهم ولم يعرف عنهم غير الخبث والمكر مما جعل عهد فاروق مشهورا بكثرة الحوادث الجنائية من ذبح وقتل ومما أدى في النهاية الى سقوط فاروق نفسه وضياع دمه وقد كان فاروق هذا لا ارادة له وكان صغير السن ناقص الخبرة وقد نشأ في البنغال بعيدا عن والده وجده ، وكان دائما يعول على آراء الغير وكان فاقد العزم والتمييز ولكن ساعده الحظ ، وكان ضعف أخلاقه لا يتفق بالمرّة مع أخلاق عائلة تيمور وكان يخدع بكلام المخادعين المحيطين به ، فجلب الشقاء على نفسه من أوائل أيام حكمه . ومن ناحية أخرى فاز كان واقعا تحت ضغط الشريفين ، وكان مركزهما قويا ويؤيدهما كثير من رجال حاشية الملك وصار السيد عبد الله خان وزيرا ، وأما الأخ الثاني وهو حسين على خان فلم يكن بت في تعينه ، وكانا يرأسان حزبا يسمى حزب هندستان وهو يعارض في خطته حزب الرؤساء التورانيين الذين كان يرأسهم نظام الملك (- التوراني - اسم ينطبق على الأتراك الذين استوطنوا الهند بعد هجرتهم من أواسط آسيا وما وراء النهر) وعين فيما بعد الشريف حسين على خان في الديكان ، فعد النظام هذا التعيين اهانة له وكان يشغل هذه الوظيفة ، ويعتبر بالديكان أكبر شخصية ، فنشأ التنافس بينه وبين الأخوين مما أدى الى سقوطهما فيما بعد .

وقد افتتح فاروق حكمه بارسال جيوش لاختراق سهول الراجبوت مما أدى الى انتهاء النزاعات الدينية في هذا الجزء من المملكة . ثم وقعت حروب بين الملك والسيك ، أدت الى انهزام الأخيرين ، وكانت العداوات الدينية منها ما هو بين المسلمين كفريق والهندوس كفريق آخر ، ومنها ما هو بين المسلمين السنيين والمسلمين الشيعة ، وكانت العداوة بين الفريقين الأخيرين ينفجر بركانها على أوهى سبب طائفي . وقد وقع قتال في سنة ١٧١٣ حينما كان الهندوس يحتفلون بعيد ديني في مدينة أحمد آباد ، وكانت ترتكب في هذا العيد أمور مخلة بالآداب ويكثر فيه السكر وغيره . ومن أجل هذا قام نزاع بين المسلمين والهندوس وقد انضم فيه الحكام المسلمون الى خصوم دينهم ، إذ اعتبروا الهندوس أحراراً في احتفالاتهم ، فأثار ذلك حقد المسلمين ولجأوا الى بقرة وقتلوا أمام منزل أحدهم فهجم الهندوس وقتلوا ابن الرجل الذي ذبح البقرة وكذلك بعض زملائه وأوفد المسلمون وفدا الى عاصمة الامبراطورية للشكوى وبمجرد وصولهم وشرح شكايتهم أودعوا السجن بطريق السعاية من كبار الهندوس ، حيث قدموا رشوة لموظفي السراى وظهرت اضطرابات أخرى في ولاية كشمير أثارها السني الشهير محبوب خان الذي جمع فريقاً من أتباع مذهبه وطلب من القاضي والحاكم عدم التصريح لهندوسي بركوب الخيل أو لبس العباءة أو العمة وهما من شعار المسلمين ، الى غير ذلك من المطالب ، وعزز طلبه بفتوى ولا يعرف كيف حصل عليها وربما كانت أسبابها سياسية أكثر منها شرعية ، خصوصاً وان حكام المغول كانوا يركنون الى الأحكام السياسية أكثر من ركونهم الى الوسائل الشرعية ، وعلى ذلك فان والي والقاضي لم يعبأ بالفتوى ولم يأمر بتنفيذها فقامت قيامة محبوب خان وجموعه وأفهمهم علانية أنه يعرف كيف يؤدب هؤلاء الهندوس بنفسه ، ولم يكذب في تهديده ووعيده ، إذ ذهب فوجد فريقاً منهم مدعوين

عند رجل كبير من الأعيان في حديقة — وكان أكثرهم من البراهمة — في يوم عيد لهم ، فافتتح عليهم السكان وقتل بعضا منهم وخرج يدعو قومه للجهاد الديني ضد هؤلاء الكفار ، وهاجم أيضا أما كن الحكومة حيث أظهر ولاية الأمور تحيزا للهندوس إذ جمع مير احمد خان الوالى قوة من الجند ليكافح بها أعوان محبوب ولكن جموعهم كانت تزايدت فلم يستطع تشييتهم من شوارع سرنجار ، وقد أشعل المتظاهرون النار في عدة شوارع ، وأحاطوا برجال الحكومة وصار ينهال على الآخرين الطوب وغيره من المقذوفات وأخذ الاضطراب شكلا حادا ، وقتل فريق من الناحيتين ، واضطر احمد خان الوالى في نهاية الأمر أن يطلب الرحمة من المتظاهرين ، ولم يستطع أن ينقذ نفسه الا بكل صعوبة ، وفر هربا بين سخرية الجماهير الظافرة ، وبقي محبوب حاكما لعدة شهور قتل فيها فريق كبير من الهندوس ، ولما وصل الوالى الجديد الذى بعثته الحكومة لاختصاص الفتنة ووجد محبوب أن المقاومة أصبحت لا تجدى سلم نفسه لأحد الموظفين التابعين للوالى السابق ، ولكن فى أثناء خروجه ومعه ابنه من منزل الموظف بوغتوا وقتلوا ، ويقال ان الذى انتقم منه كان من طائفة الشيعة الذين أساء اليهم كما لو كانوا هندوسا ، وقام على أثر ذلك قتال جديد بين السنيين والشيعة سالت فيه الدماء ، ولم يوقف إلا بعد أن حضر الوالى المبعوث من دلهى فاخضع الثائرين وأعاد النظام الى نصابه بما اتخذ من الاجراءات الشديدة الرادعة ومات الملك فاروق سيار فثار السيک ثانية ووقع بينهم بعض الاعتداءات واتخذوا مركزا لفتنتهم حصن جارداسبور فى ولاية البنجاب ومنه صاروا يوزعون جموعهم فيجتاحون الجانب الغربى من هذه الولاية ، وقد جرد عليهم ديلير جنج حاكم لاهور قوة من الجند حتى اضطروهم أن يتقهقروا ويعتصموا فى حصنهم وطلبوا أن يساموا الى القائد على شرط أن يعفوا عنهم ويؤمنهم على

حياتهم ، ولكن القائد نصح لهم أن يطلبوا هذا الطالب من الامبراطور فلما امتنعوا عن الانقياد لرأية ، هجم عليهم وأوقع فيهم مذبحه عظيمه ، قتل فيها الآلاف حتى أن القائد حنط ألفي رأس من ثوار السيك وأرسلها الى مدينة دلهي ليثبت حقيقة النصر الذي أحرزه وأرسل معهم أيضا ألف أسير من بينهم زعيمهم المشهور (بندا) وابنه الصغير وكان سنه ثمانية سنوات وطيف بالأسرى وبالرؤوس على جمال في داخل المدينة أمام الامبراطور الذي أصدر أمره باعدامهم فبدأوا بالتنفيذ فيهم . ومن أفضع ما وقع تسكليف بندا أن يتولى قتل ابنه بيده ، وقد ظهر من هؤلاء الثوار تضامن وارتباط غريبين يدعوان الى الاعجاب والدهشة ، وما ذكره كافي خان عن ذلك القصة الآتية : بينما كان يجرى تنفيذ الأعدام في الثوار ذهبت أم واحد منهم بواسطة أحد ذوى الجاه والنفوذ وأمكنها أن تقابل الامبراطور وتشكو له متظلمة أن ابنها لم يكن من طائفة السيك وأنه سبق اعتداؤهم عليه حتى أنهم اغتصبوا ممتلكاته وأنه وجد بينهم حيث كان مسجوناً عندهم وقاسى كثيراً من الأهوال منهم ، والآن فقد أخذ بين الأسرى وسينفذ فيه حكم الأعدام فرق الملك فاروق لشكواها وأرسل ضابطا بالعفو عن ابنها وإيقاف تنفيذ الحكم فوصل في آخر لحظة وقد كاد ينفذ فيه فلما علم الابن بعفو الامبراطور احتج قائلاً أن أمه كذبت عليهم وأنه يتضامن بروحه وبقلبه مع أبناء طائفته ويتفانى في الإخلاص لزعيمه بندا ورجاهم أن ينفذوا فيه حكم الأعدام ولقد كان لهذه الموقعة أشد تأثير على طائفة السيك حتى كادت تتلاشى من عظم ما وقع عليهم من قتل وتأديب صارم وكان يظن أنه لن تقوم لهم قائمة ولكن البقية الباقية من أفرادهم تماسكوا واستمروا في إخلاصهم للمذهب فرعى واشتد ساعدهم ، وسيظهر بأسهم فيما بعد فقد صاروا يزيدون يوماً بعد يوم حتى أصبح أحد شيوخهم والياً على البنجاب وكون لطائفته قوة صارت أقوى خصم في المستقبل

للإنجليز بالهند — وإذا تركنا أطراف الامبراطورية الآن ورجعنا الى العاصمة نجد أن شريفى بارا السابق ذكرهما صارا قوة فى الامبراطورية وتقلدا أكبر وظائفها فهما اللذان وضعنا فاروقا على العرش وكان كلعبة فى يديهما فان شاء عزلاه وجاءا بغيره وكان بعض رجال الحاشية يساورهم القلق على مركز الملك منهما ، حتى أن مير جملا (ابن جملا الأكبر) كان ينصح له سرا أن يتخلص منهما ولم يكن بمفرده على هذا رأى . بل كان يؤيده فيه نظام الملك بالنظر الى تعيين الشريف الصغير بالديكان . وبدأ المنضال بين الحزبين يشتد . ومما عقد العزم عليه فريق الشريفين أن لا يتيحوا الفرصة لحاشية الملك المستاءة أن تقوى عليهم ، وعلى ذلك فقد أرغموا الملك فاروق أن يرسل مير جملا الى بتنا لىكى يكون بعيدا عنه ، ويقال أن حسين على خان الشريف الذى عاد من الديكان قريبا ، خاطب الأمبراطور بلهجة شديدة وقال له « انك اذا استدعيت مير جملا الى جانبك أو اذا عاملت أخى بمثل المعاملة السابقة . فتق أنى اذا علمت بذلك بعد رجوعى الى الديكان ، فانى سأعود اليك فورا فى ظرف عشرين يوما . » ثم انه أشار الى تعيين بعض الضباط فى القلاع وأملى ملحوظته على السراى املاء . وقد فكر نظام الملك فى أن يعصى الأوامر ظاهرا ولا يخلى الطريق للشريف الذى عين بالديكان ، ولكنه فى النهاية فضل أن يستتر الى أن تسمح له الظروف بالظهور ، واكتفى بأن أوعز الى داود خان وهو ضابط أفغانى شجاع أن يقاوم حسين على خان عند حضوره . وقد أظهر داود شجاعة نادرة ، ولكنه أصيب بقنبلة فقتل ، وقد مات فى هذا التاريخ أسعد خان والد القائد الشهير ذو الفقار الذى ذبح ، وكان فاروق يحاول الاستفادة من معلومات أسعد فى المدة الأخيرة إلا أن ذلك جاء متأخرا فقد كتب له أسعد كتابا قال له فيه « إن الغلطة التى ارتكبتها تخالف تقاليد عائلة

تيمورولكن ما حصل كان بارادة الله ، وأنا كنت على يقين أن الوزارة متى خرجت من بيتي فإن الدمار سينزل بعائلة تيمور ، ولكن بما أنك وضعت نفسك وجعلت تقاليد أمورك في يدي الشريفين فخير شيء للحكم أن تبقى معهما على وئام بقدر جهدك ولا تثر بينك وبينهم عداوة أو خلاف فانك ان فعلت فستفقد عرشك ولكن العلاقات انتقلت من سىء الى أسوأ بين الامبراطور والشريفين وقد مضى حسين على خان المدة ما بين سنة ١٧١٧ وسنة ١٧١٨ في قتال مع الماهراتا ، ثم تفاوض معهم وأما أخوه عبد الله فانه اذا لم يمضى وقته في الملاذ والمجون لجأ الى الشحنة مع حاشية الملك ومكث عدة شهور لا يوقع على الأوراق الحكومية بسبب سوء علاقته مع الملك ، وقد وقع أخوه اتفاقية مع الماهراتا عدتها حاشية الملك مهينة وجارحة لكرامة المغول ، فجعل فاروق يفكر في الخلاص من الشريفين فاستدعى بايعاز من كشميرى أحد وزرائه بولاند خان والى بتنا ونظام الملك والى مراد آباد وراجا آجيت سنج الى دلهى وطلب منهم القضاء على سيادة شريفى بارا ولكن لما أظهر الملك رغبته فى اسناد رئاسة الوزارة الى كشميرى وكان رجلا حقير الطبع لم يظهروا ميلا لتنفيذ خطة فاروق . وكان حسين على خان سمع بذلك فقام بجيشه من الديكان قاصدا دلهى ، وكان يؤيده فريق من الماهراتا وصار يحتل حصنا بعد حصن فى طريقه ، وكان نظام الملك قد بارح دلهى قاصدا مراد آباد ساخطا ، وأما بولاند خان فقد فكر أن يطلق الأحكام ويصير فقيرا ، ولكن عبد الله خان عينه فى كابل ، وأما آجيت سنج فقد تراضى مع الشريف ولذلك لما وصل حسين على خان الى دلهى لم يجد أى مقاومة من قائد من القواد ، وكان القصد الذى أتى من أجله هذا الشريف خلع الملك فاروق ، وأكبر دليل على ذلك أنه حينما قرب من العاصمة جعل يدق طبوله عالية ، وقد كانت تقاليد

المغول لا تجيز لأحد أن يقرع طبله على مقربة من مكان الملك فلما سمع فاروق
أصوات الطبول عالية اعتبرها تحديا لشخصه وسلطانة فانفعل وظهر عليه الضعف
وأظهر استعدادا للتسليم ، ثم عاد فاستعد لمقاولة الخصومة بمثلها ، فلما جد الجد
ورأى الأمر محفوفا بالخطر ، رجع اليه خلقه الضعيف ودفعه جبينه الى المفاوضة
بدل المعارضة وأظهر المحبة بدل الخصومة ، ولم يكن لهذا المسلك المتقلب غير
نتيجة واحدة وهى خلعها عن العرش ، وقد دخل حسين على خان قلعة دلهى
وانتهى حكم فاروق ، وكانت الليلة التى وقع فيها العزل مملوءة بالخواف ولكن لم
يحصل غير اضطراب بسيط .

حكم رفيع الدرجة

١٩٧١

وجلس على العرش بعده الملك رفيع الدرجة ، وقد اختلف في أمر فاروق فقائل أنه قتل على أثر عزله ومن قائل انه مات سجيناً بعد ذلك بقليل إلا أنه على كل حال كان بين العرش والقبر خطوة واحدة اذ لم يره أحد عقب خلعه ، وكان الذي خلفه أمير من بيت تيمور ومات بعد ستة شهور من بدء حكمه

حكم رفيع الدولة

كان هذا الملك الجديد من نسل عالم جبر لكننه لم يرث شيئاً من صفاته بل كان العوبة في يد من حوله من الحاشية وتسمى باسم محمد شاه وطال حكمه وظل على العرش تسعة وعشرين عاماً قضاها مشاهداتاً لانحلال هذه الامبراطورية وتفكك أجزائها وعاش حتى رأت عيناه دخول نادر شاه ملك إيران الى دلهي في سنة ١٧٣٩ ، وكانت أول سنة حكم فيها محمد شاه انقرضت فيها سلطة شريفي بارا فان تحكمها صار غير محتمل مما أدى الى استياء الحزب التوراني الذي يرأسه نظام الملك وقد ثار عليهما في وقت كانا فيه منهمكين في محاربة أحد أمراء الهندوس واسمه كاييلارام وكان حاكماً في الله آباد ولكننه مات وقام مكانه أخوه وتملك قلعته وتمرد ورفض تسليمها للشريفيين رغم ما بذلاه من الوعود ، واستمرت الحرب ثم عاداً ثانية واتفقا على الصلح وأقسم الراجا على ماء الجانجيز أن يحافظ على عهده ومن مقتضاه تسليم القلعة الى الامبراطور الذي حول وجهه نحو نظام الملك حيث جمع جموعاً عديدة من الديكان وتوجه نحو دلهي . وقد سلمت مدينة برهان بوردون مقاومة وتقدم شمالاً وهزم ديلاور على خان أكبر قواد شريفي بارا ، ثم فيما بعد

هزم عالم خان بن حسين على خان بالتبني ، وقد أحدثت هذه الأخبار انقلابا في
دهلي التي كان أغلب من بها من المسلمين والمغول يكرهون شريفى بارا لما أظهره
من التحيز للهندوس راجا راتان شاند الذي كان يدير دفة الأحكام بالنيابة عنهما
يضاف الى ذلك استياء أعوان الملك فاروق الذى قتله الشريفان ، وكان مما قرره
الاخوان فيما بينهما أن يهاجم حسين على خان نظام الملك وأن يستصحب معه
الامبراطور الجديد وأن يبقى السيد عبدالله خان فى مدينة دهلي توطيدا للنظام ،
ولم يكن حسين على قد ابتعد طويلا عن العاصمة حتى فاجأه ميرحيدر على الأفغانى
وذبحه فهاج لذلك أعوان الشريف واتهموا الملك بالتحريض وكادوا يفتكون به
لولا أن الفريق الذى أيدته كان أشد قوة ، ولما وصلت الأخبار الى أخيه السيد
عبد الله خان بما حصل أتى بامير آخر من بيت تيمور وأجلسه على العرش وجيزله
جيشا وأخرجه لمقاتلة الامبراطور السابق وتقابل الجيشان وهزم الامبراطور الجديد
وأخذ أسيرا الى محمد شاه لكنه عفا عنه ، ومات السيد عبد الله خان فى أسره فى
سنة ١٧٢٢ . وعاد الامبراطور السابق الى دهلي وعين نظام الملك وزيرا للدولة
وفى المدة الأخيرة التى ضعف فيها شأن ملوك المغول لم تذكر حركة الماهراتا بشكل
يفى الايضاح ، ولقد سبق أن ذكرنا أن الأمير أعظم بن عالم جبر حينما كان ينازع
أخاه على عرش دهلي أطلق سراح ساهو بن سمبهاجى وكانت تارا باى أرملة رام
راجا الابن الاصغر لسمبهاجى جالسة على عرش الماهراتا اسما وليسكنها كانت
نشطة وذات مطامع كبيرة ، فلم تشأ أن تخلى العرش دون الاقتتال عليه ، وقد
شجعها أمراء الماهراتا الذين يخدمونها فقد رأوا خدمتهم لها أسهل عليهم من خدمة
رجل كساهو فاضطر الى مناوئة هذه الاميرة وحاربها حتى احتل ستارا عاصمة
الماهراتا . ولكن رغما عن ذلك فان تارا باى لم تتنازل عن العرش بل جعلت
كولابور عاصمة لها وكان معها ابنها الصغير . وفقد ساهو شيئا كثيرا من نشاطه

المهراثى بسبب بقاءه محجوزا فى سراى المغول مدة طويلة . ورغما عن أنه حصل على رئاسة طائفته فان كثيرا من القواد حوله أسسوا لأنفسهم امارات اختصوا بها ولا زالت أسرتا «هولكار» «والجايكور» صاحب ولاية بارودا يمكن الى الآن وكان أشهر الأسر التى ظهرت فى عهد ساهو «نيمباجى سنديا» وقد رأى من مصلحته أن ينضم الى صف شاه عالم حينما ثار عليه أخوه كؤم بكس ، وقد أفادته هذه الخطة . ومن الزعماء الذين ظهوروا تحت ظروف عجيبة عائلة فاتح سنج وهذا الراجا كان طفلا من عائلة بائسة أتت به أمه ووضعته أمام ساهو حينما كان يقاتل قرية تابعة للأميرة «تاراباى» ، وقالت للأمير أنها وهبته هذا الطفل لينشأ فى خدمته فقبله ساهو وكفله حتى كبر وسماه فاتح سنج وعامله كما لو كان أحد أبنائه وهو مؤسس عائلة بنسولا التى حكمت فى ناجيور الى سنة ١٨٥٢ ؛ وفى أيام الحرب بين ساهو وتاراباى صارت بونا مركزا عاما للراجبوت ، وكان حاكم هذه المدينة يؤيد قضية الاميرة تاراباى وحكم هذا المكان باسمها فقصدته ساهو فى سنة ١٧١١ ولكنه انتحر بطريقة الغرق قبل وقوع القتال . وكانت عائلة بالاجاى من أشهر المهراثا حتى أنهم بعد سنين صاروا رؤساء اتحادهم جميعا وأقاموا فى بونا وصارت العاصمة ومات ابن تاراباى سنة ١٧١٢ بالجدري ، وتولى بعده أخوه من أم أخرى على عرش كولاپور وحكم بالنيابة عنه وزراء من البراهمة ولكن «تاراباى» كانت قد حجرت وفقدت نفوذها ، وفى المدة السابقة صرح ذو الفقار خان للمهراثا فى جباية ضرائب من بعض أجزاء معينة من الامبراطورية مقابل التزامهم السكنية ولكن بعد موت بهادر شاه وانتهاء حكم ذى الفقار فى الديكان عادت الأمور الى ما كانت عليه من الفوضى وصارت المهراثا تعيث فى كل مكان فسادا وتسرق كل ما صادفها وكثيرا ما كانوا يجبون الضرائب باسم المهراثا عنوة واقتدارا وكان نظام الملك الذى حكم مدة قصيرة فى الديكان على علاقة حسنة

بعرش « تارا باي » في كولا بور ولكن هذا المكان فقد أهميته باندثار حكامه وصارت الكلمة العليا لساھو ، وكان على شيء من الكفاءة واشتهر بالكرم وكان يغدق المال على كل المؤسسات الدينية لجميع الطوائف وأخصها فريق البراهمة ، ولكن ساھو كان ينقصه بعض صفات الماهراتا وقدرتهم على العيشة القاسية واحتمال المصاعب فانه لم يعيش في الجبال مع حداثة سنه بل كان محجوزا في دلهي وقد أخذ كثيرا من أخلاق الوسط الذي كان فيه عند عالم جبر فكان يحب الأبهة التي يألفها أغلب أمراء المغول ووزرائهم ، وكان لا يميل الى العمل كثيرا ويسر حينما يتخلص منه ، ويجنح الى اللهو كصيد الأسماك وصيد الطيور بالصقور ، ولم يدرك أنه موكل اليه أمر الماهراتا الطموحين فقبل أن يعترف بسلطة المغول عليه على أن يتقاضى بعض ضرائب من عدة ولايات ببلاد الماهراتا وفي مقابلها يقوم بإيجاد خمسة عشر ألفاً من الخيل وتدير شؤونها لتكون تحت طلب حاكم الديكان ليستخدمها في أشغال الجيش عند الزوم ، وبالجملة فقد حصلت عدة اتفاقات لم يوقع عليها فكان سكان الجنوب في ظلام وحيرة من حيث معرفة حقيقة موقفهم ومقدار الضرائب التي يدفعونها ومقدار ما يأخذه المغول ومقدار ما يفرضه الماهراتا .

وكان حكم المغول يرضى القانون بعض الرعاية بخلاف الماهراتا فان قانونهم أن لا قانون وقد تراخت الحكومة المغولية في فرض سلطتها بينما كانت مملكة الماهراتا تحتاج الولايات المجاورة لها وترهق أهلها حتى أوصلتهم لدرجة الفقر المدقع إذ كان في كل مكان يأتي الرؤساء العسكريون ويجمعون لحساب أنفسهم من الأهالي وتأتي بعدهم طبقة دونهم وتجي لنفسها شيئا حتى أصبحت هذه الجهات قاعا صفصفا . فلما عاد نظام الملك من العاصمة ووجد الفوضى فاشية وأن سلطة الامبراطورية جار عليها الماهراتا بأجبر واستخدموها لصالحهم وتوالت عليه أخبار

كثيرة عن مظالم ارتكبها هؤلاء القوم في كل مكان فأمل أن يعمل شيئا يعالج به هذه الحالة السيئة ولكنه كان متحققا أن ليس من المستطاع الوصول الى غرضه قبل معالجة المركز الرئيسى بدلهى وادخال بعض الاصلاحات عليه فنصح للامبراطور أن يتشبت دائما بالوقار والحزم أمام الناس، وأوفى الحفلات وأن يخصص بضعة ساعات يوميا للنظر فيما يقدم اليه من الشكاوى وأن يقرر العدالة ونصح له أن يظهر حاشيته من أدرانها وأن يعصمها من تداخل النساء المقربات منه ولكن الامبراطور كان صغيرا وتنقصه الخبرة ويميل الى اللهو وكان محاطا ببعض مريديه الذين كرهوا نظام الملك وقاوموه وأخصهم بالذكر « دوران » الذى كان رئيس الحكومة قبل رجوع نظام الملك الذى عاد من أجل الخلاص من دوران خان نفسه وابعاد سيدة من محظيات الملك تسمى لوكي باد شاه اذ كانت تسعى لدى الملك فى مخالفة نظام الملك وقد فكر الملك فى الأمر ورأى أن يعين النظام رئيسا لوزرائه ، وكان متقدما فى السن متحفظا فى الطبع ميالا الى محاربة البدع والملاهى وقد طلب الى الامبراطور اصلاح نظام ضرائب الأراضى وخصوصا ما تسمى (الخالصة) (هذه الأرض عبارة عن اقطاعات كبيرة المساحة جدا وموجودة فى كل أنحاء الامبراطورية وكان يمنحها الامبراطور الى بعض الأعيان والمقربين ويعفيها من الضرائب ، ولم يكن هنالك أى معنى لاعفائها اذ كان ذلك يفقد الخزينة موردا كبيرا من موارد الايراد) وطلب الضرب على أيدي المرتشين من الحاشية ابقاء على سمعة العرش واعادة فرض الجزية وقيل أنه نصح أيضا بمساعدة ايران ضد الأفغان التى كانت تحاربها وكادت تتغلب عليها ، ولم يلح فى هذا المطلب بل اعتبره كاليا ، وفى الواقع أن حالة الامبراطورية الهندية المتسعة المعقدة ما كانت لتسمح بفتح أبواب جديدة والاشتغال بها كمسئلة التدخل بين الأفغان وايران خصوصا وأن الحالة فى ولايات الديكان كانت فى

أشد الاحتياج الى العناية . ولما رأى النظام أن مطالبه لم تحز قبولا طلب الاذن من الامبراطور أن يسمح له باجازه للصيد وخرج وقصد الديكان وأقام هناك لمباشرة الممالك والمقاطعات التي كانت خاصة به وأقام بها الى قرب الوقت الذي حضر فيه نادر شاه لغزو الهند ولما علمت حكومة دلهي بأن نظام الملك قام من الديكان قاصدا نحوها أوعزت الى حاكم برهان پور بمجاربته ، ووعدته أنه اذا نجح يأخذ مكانه وحدثت بينهما موقعة قتل فيها حاكم برهان پور ، وكتب نظام الملك الى الامبراطور متهمكا اذ قال له انه وجد الحاكم ثائرا فقتله تأديبا له على ثورته وأرسل كما هي العادة الهدية التي يرسلها كل قائد منصور الى الامبراطور وأرسل معها رأس الوالى وكان من ألد خصوم نظام الملك (باجى داو) الزعيم الماهرانى الجديد الذى ضاعف قوته فى خلال العشرين عاما التى حكم فيها محمد شاه ، وهو أول من حرض الماهراتا وجرائم على غزو هندستان وإيقاعها فى الفوضى التى وقعت فيها ولايات الديكان بسبب كثرة اجتياحهم لها ولكنه لم ينجح أولا فى اقناع ساهو وباقي الزعماء ، لا بعد مفاوضة ولما كانوا يتشاورون تخوفوا أن يكون هذا المشروع كبيرا على قوة الماهراتا اذ قد تتغلب عليهم قوى الامبراطورية ونظام الملك الذى كان يخشى منه اذا اشتبكوا فى الشمال انقض على الاماكن التى غزوها واستردها منهم ولكن باجى راوانبرى لمعارضيه بقوة حجته ولأنه كان فى مقدمة الملمين بأمور الامبراطورية وظروفها أفهمهم أنها سائرة فى طريق الانحلال ، وأنه قد أتاحت لهم الفرصة الآن فى أن يطردوا المسلمين من الوطن وأن يرفع علم الماهراتا من كستنا فى الجنوب الى حصن أتوك فى جبال الهملايا وحررض ساهو قائلا له : « انك ابن شريف لأب مجيد فلا تفكر فى صفائر الأمور ودعنا نضرب فى هذه الشجرة التى ذبلت فتنساقط أغصانها »

وأثناء عودة نظام الملك الى الديكان وقبل وصوله اليها قام بولاند خان من

كابل ليتولى حكومة جوجيرات التي كان حامد خان عم النظام واليا عليها . ولم يقبل حامد خان التخلي عن مركزه دون قتال ، فلما دارت الحرب بين الواليين ساعد الماهراتا حامدا ؛ وكانت النصر له في أول الأمر ، ولكن بولاند خان احتل أحمد آباد زمنا ولم يكن هذا الوالي محبوبا من حكومة دلهي ، فأرسلت राजا آبي سنج ليحل محله فلجأ الى المفاوضة وأرسل مندوبا لبولاند ولكنه طرده ، ثم سار بولاند نحو خيمة خصمه وتفاهما حيث كانا أصدقاء سابقا ، وكانت النتيجة أن بولاند خان سلم الولاية الى آبي سنج وهذا الأخير سلمها للماهراتا ، وكانت حكومة ملوا يحكمها راجا هندوسي وقد غزاها الماهراتا ، ولم تصل للوالي نجدة من حكومة دلهي وكان نظام الملك طول هذا الوقت ينظر الى تطورات الأمور دون البت في الأمر ولكنه في النهاية عقد النية على أن يطهر هذه المنطقة الجنوبية من خصومها ، وقد مدحه كافي خان قائلا : « في وقت قصير استطاع نظام الملك إعادة هذه البلاد الى حكم المسلمين وطهرت من أرجاس الكفرة الخائنين بعد ما كانت مملوءة باللصوص وقطاع الطرق وكان يغزوها الماهراتا من حين الى آخر حتى عطلت وسائل النقل وتعسر السير اذ لم يكن بها أمن أو ضمان ، وقد كان الماهراتا يعصرون المزارعين عصرا ليدفعوا لهم أتاوات وضرائب كل حين حتى صارت الحال فوق طاقة الاحتمال ولكن نظام الملك أزال كل هذه المساوئ وقضى عليها وأعاد الأمن والسلام الى البلاد وهي المعروفة بحيدر آباد ، وكان من مهارته السياسية أن أوقع النفور بين ساهو وحكومة كولا بور ليصفا لبعضهما ويأمن تضامنها ضده ، ودارت الحرب بين البشوا ونظام الملك فانهزم الأخير وسلم للماهراتا بدفع غرامة لهم وجعل لهم حقا في حصه من الضرائب التي تجبي من بعض ولاياته وطلب منه أن يسلم راجا كولا بور الذي كان ضمن أعوانه فرفض ذلك كل الرفض ولم يتوطد مركز الماهراتا في

جوجيرات وملوا إلا في سنة ١٧٣٢ فلما تقووا بهما فكروا في غزو هندستان وبدأوا فغزوا بند لـكـنـد وهرب حاكمها الى الله آباد حيث ترك الماهراتا أسبيادا ودخل الماهراتا بلاد الراجبوت واجتاحوها ولم يظهر من أهلها الشجاعة التي اشتهروا بها ولا الجلد بل ظهر أنهم فقدوا مزاياهم الحربية التي اشتهرت أيام أكبر وشاه جهان وحصل كل ذلك والمالك ومن حوله لاهين بملاذهم نائمين عن واجباتهم وكانوا كلما جهزوا جيشا سار قليلا دون أن يؤدي واجبا أكثر من مطاردة بعض قطاع الطرق ثم يعود قائده أدراجه ويدخل دلهي دخول الظافر المنصور ، ولم يفكر أحد في دلهي في مواجهة الماهراتا الى أن علموا أن باجي راو زحف الى الشمال فاضطربت العاصمة لهذه الأخبار وصارت على تمام الاستعداد للتسليم بكل طلباته التي غالى فيها كثيرا ، والماهراتي لا يعرف التواضع أو التساهل حينما يكون منتصرا فطلب تسليم الهند الجنوبية ابتداء من « شمبال » ، ولكن بينما كانت هذه المفاوضات دائرة بين باجي راو ودلهي اذا بساعات خان في سنة ١٧٣٦ يعبر الجانجيز من أورا ويترد فريقا كبيرا من الماهراتا حتى عبروا نهر الجننا ، فلما وصلت أخبار انتصاره الى دلهي قاومت في التسليم واستصغرت شأن الماهراتا ولكن باجي راو أقنعهم أنهم كانوا واهمين اذا اسرع ومشى رأسا الى دلهي ، إلا أنه كان خائفا من أن ينتهز نظام الملك اشتباكه مع الجيش الامبراطوري ويحتاج أملاكه في الجنوب فاكتفى بغرامة قدرها مليون وثلاثمائة ألف روبية وتحول نحو الجنوب وفجأة ظهر النظام في العاصمة وطلب ولايتي ملوا وجوجيرات لابنه غياث الدين فأجيب طلبه مقابل طرد الماهراتا منهما ووقعت بينهما معركة في بهدبال وأخطأ نظام الملك لأنه تحصن ولم يهاجم خصمه الذي لم يكن عنده مدفعية قوية كمدفعية النظام وتكاثرت الماهراتا حوله فقتلت مؤونة جنده وبعد محاولة ابنه في الوصول اليه لامداده فشل في ذلك ، واضطر للتفاوض

حيث تنازل عن ولاية ملوا لغاية شمبال ونهر النربدا . وقد وافق نظام الملك على هذه الشروط وتعهد باقرارها لدى الامبراطور ومطالبته بغرامة للمهاراتا قدرها خمسة مليون روبية وقال باجى راوانه حاول أن يحصل على غرامة من النظام نفسه فلم يمكنه لأنه كان ضنيناً بماله ولم يتشبت الراجا .

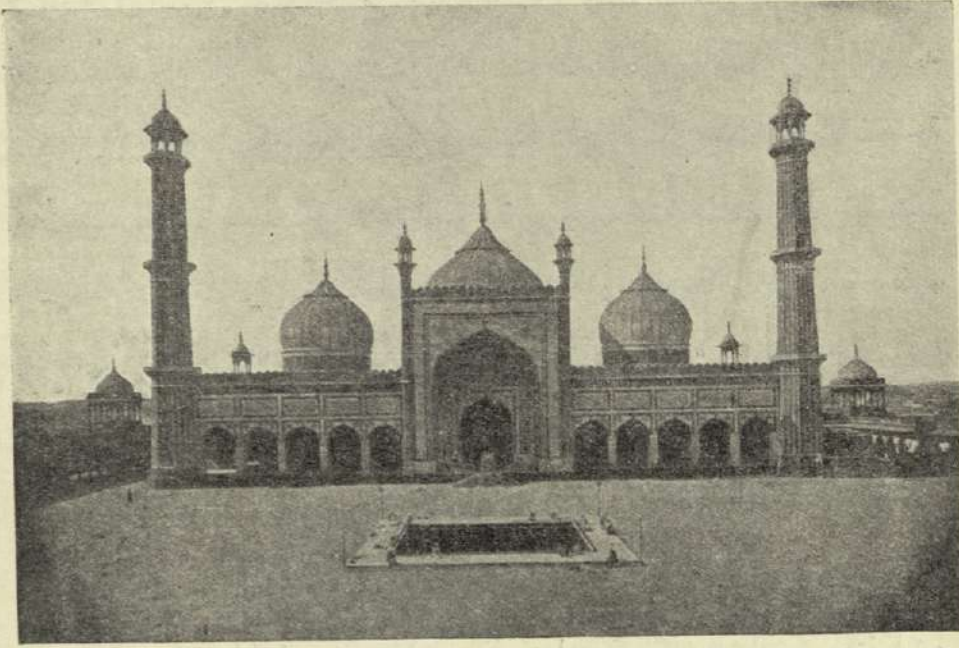
وفي سنة ١٧٣٨ صارت الامبراطورية لا توجد إلا اسماً وخصوصاً في جنوب الهند وصارت المهاراتا تحكم جزءاً ونظام الملك جزءاً آخر وكان مع ذلك الجزء الثانى الذى تحت سلطة الامبراطورية يحكمه ولاية شبه مستقلين كما كان الحال فى أودا وكابل وبيهار والبنغال وكان ولايتهم من أكفا الرجال مثل سعادات خان وعلى وردى وظهر زعيم من الجات وجعل مركزه فى بوهارتابور وصار يسرق يميناً وشمالاً ما بين دلهى وأجرا ، أما البنجاب فلم يثر به إلا السيک مرة واحدة وظل هادئاً لمدة عشرين سنة حتى جاء نادرشاه وغزا الهند فقام بعض الهياج وفى نفس دلهى وقعت الاضطرابات مراراً فى أثناء الاحتفالات الدينية واحتلت الجماهير المدينة لمدة أيام ، وهذا وصف مختصر للحال التى كانت عليها الامبراطورية عند دخول نادرشاه ملك فارس فى سنة ١٧٣٨ . وقد احتل العاصمة وأباحها لعسكره لعدة أيام بناء على اعتداء وقع من الأهالى على الجند بعد أن عسكر بها وعلى أثر ذكر نادرشاه يجب أن نرجع قليلاً الى التاريخ القديم فى القرن السادس عشر جلس الشاه اسمعيل كأول حاكم وطنى على ايران بعد قرون عديدة حكمت فيها هذه الأمة إما بواسطة العرب أوحكام من التركمان وقد كان قريباً لمرزا بابر ولما فرهايون الى ايران بعد أن هزمه شيرشاه كان وقتها حاكم ايران يعتبر من أكبر ملوك الشرق ولمدة سنين قليلة ارتفعت ايران فى مركزها ارتفاعاً كبيراً مدة حكم الشاه عباس الذى كان يلقب بالعظيم ، ولم تكن هذه التسمية نتيجة تملق بل عن استحقاق . وقد مات فى نفس الوقت الذى مات فيه شاه جهان وعلى أثر موته

ابتدأت دولة ايران تضمحل وانها وإن كانت احتلت قندهار سنة ١٧٢٣ من شاه جهان فانها كانت تضعف شيئاً فشيئاً ، وبعد ذلك هاجم ملك الأفغان حسين شاه الفرس الضعيف وهو ابن شاه عباس العظيم ، وقد هزمه بعد أن حاصر إصفهان لعدة شهور حتى وقعت في مجاعة ، ولم يكن محمود الأفغاني إلا جزارا ، وكان حكمه سلسلة مذابح ولما مات وجد ورثته وهو ابن عمه أشرف أن البلاد التي تحكم بالدماء لا تلبث طويلا حتى تحرر ، وفي مدة الشاه طهاسب طرد الأفغان منها ولكن لم يكن الفضل إلا لنادرشاه الذي كان الحاكم بالفعل وكان تركماني المولد من أبناء القبائل الراحلة التي كانت تنتقل من مكان الى مكان وقد صار فيما بعد نادر الشاه الحقيقي ، وقد استهل حكمه بمحاولة تغيير مذهب ايران الديني اذ كان يريد أن ينقلها من الشيعة الى المذهب السني ولكنه فشل في كل مرة كان يحاول فيها تحقيق هذه الرغبة وكان لديه شواغل أهم من تغيير المذهب الديني وهي ارجاع حدود مملكته الى الحدود الأصلية فأخرج الأفغان كلية من ايران ، ووجد أن من الضروري احتلال قندهار وقد استتب فيها الحكم لأحد الأمراء الأفغانين فكان من نصيب هذا الحاكم أن يصطدم مع نادرشاه في المدينة المذكورة ودارت الدائرة على هذا الأمير الافغاني فحسر بالسيف ما كسبه سابقاً به وترك امارته فاحتلها نادر شاه وهذه خطوة كبرى في سبيل ارجاع ايران الى حدودها الأصلية وقد تحققت هذه الأمنية حينما حارب الروس والأتراك في شمال ايران وغربها وطردهم منها ، ولما عادت ايران الى مكانتها الأولى لم يقف عند هذا الحد بل كان هذا الملك كبير المطامع واسع الهمة فصرف عمره في الحروب الى آخر يوم من حياته ، وقد احتل العراق العربي وولاية أذربيجان وجزءا من القوقاز ، وكاد في عهده أن يصير بحر قصبين بحيرة إيرانية ، وخاضت جيوشه عدة حروب في أواسط آسيا واحتل مملكتي بخارا وخيوا ،

ولم يقتصر على كل هذه الفتوحات الواسعة بل انه حينما فتح قندهار كان قريبا من حدود الهند التي كانت حالتها السياسية كمرجل يغلي ، وقد قامت فيها قيامة الهندوس على المسلمين في عهد محمد شاه امبراطور دلهي و كان حاكما ضعيفا طمع فيه الولاة ، فصار كل واحد منهم ، يقطع جزءا من المملكة ويستقل به ورأى بعض الوزراء المسلمين أنه ربما كان من الخير الاستنجاد بنادرشاه وقد طلبوا منه سرا التدخل دون علم من ملوكهم الذي كان يقضى يومه في الخمر ويبدأ ليله بتعاطي الأفيون مما أفقده همته وكثيرا من عقله وقد أخبر الوزراء نادرشاه أنه اذا لم تصل جيوشه لانقاذهم وقعت هذه الامبراطورية في أيدي الماهراتا والسيك وباقي الهندوس . علاوة على ذلك فقد لوحوا بكنوز الهند المكسدة في دلهي مما أثار رغبته في الحرب وقد كان المشروع الذي يطلب منه تنفيذه من الخطورة بمكان عظيم لأن الهند بلاد متسعة حتى أن ولاية واحدة من بعض ولاياتها تزيد في السكان عن ايران . وكان جيش نادر من يوم أن جلس على عرش طهماسب الحاكم السابق لم يذق جنوده طعم الراحة ، ولم تكن من عنصر واحد ولا من قبائل مؤتلفة مع بعضها بل كان مكونا من فرس وترك وأفغان وأزيك ، ولم يكن ارتباطه بهذه الأجناس موروثا عن والده بل كان حديثا ولم يكن طال أمد اتصالهم به بل ان أغلبهم انضم اليه طلبا للمغانم والاسلاب وجند هذا دأبه قد يكون خطرا ولكن نادر كان رجلا بمعنى الكلمة فقد جمع مع حسن الادارة ومهارة القيادة وكان منظما للجنود حتى أنه حين استخدمه الشاه طهماسب الضعيف ليثبت ملكه رأى بثاقب بصره أن حالة الجند الأوروبي أصبحت متفوقة على الجنود الشرقية بسبب نظامها أولا وبالأسلحة الحديثة ثانيا . فلم يقف جامدا ازاء هذه الحالة بل دفعه فكره أن يستخدم مثل هذه الأسلحة ويستفيد من هذه النظم حتى أنه استعان ببعض الانجليز في استيراد الأسلحة وفي

صنعها وصنع المراكب لبحر قصبين وخليج فارس وعلى العموم فقد كان رجلا مجددا نشطا فكل قديم غير صالح أزاله وكل حديث رآه نافعا اقتبسه . وكان جنده شديد الهيبة له اذ كان لا يتردد أن يطوق فصيلة من عسكره بمرجع من الجند ويأمر بآبادتها اذا عصت أو امره وبهذه الطريقة أدخل النظام على جيوشه وأمن من عوامل الفوضى فيها يضاف الى ذلك أن المكاسب الكبيرة التي عادت على الجند وضباطهم بسبب ما أخذوه من الأسلاب والغنائم كانت مغرية لهم وبذلك جذب الآلاف الكثيرة من المجندين الى جيشه ، ولولا ذلك لكانت كثرة فتوحاته وتعدد غزواته تقضى على العدد الأكبر من جنده بسبب كثرة القتل وتفشي الأمراض خصوصا وأن معاركه كانت لا تنقطع فيصبح الجيش عاجزا ولكن مهارته في القيادة وبعد نظره عاجلا كل هذه المسائل فتغلب على أكبر المصاعب ودخل الهند نجدة للمسلمين بدلى الذين استغاثوا به فاخترق جبال همالايا الوعرة ودخل أرض الهند ، ولم يكن بينه وبين الامبراطور محمد شاه سابق اتفاق ، بل كل ما حصل جاء من ناحية الوزراء الذين اهتموا بأمور المسلمين أكثر من عرش سيدهم وقد تحققت غايتهم ودارت موقعة بين نادر شاه وجيش المغول بمدينة كارناك ، ولم يقبل نظام الملك تأييد الامبراطور بل بقي بعيدا بجيشه ينتظر الحوادث ، ولم يطل أمد القتال وكانت الخسائر طفيفة من الطرفين ولكن قتل القائد المغولى داوران خان وأسر القائد الآخر سعادات خان ، وعلى أثر ذلك انهزم جيش المغول وفر من القتال وقد فكر نادر شاه فى أن يكتفى بهذه الموقعة ويرجع الى بلاده بعد عقد محالفة ودون التوجه الى دلهى وذلك بسبب ما قاساه الجيش من طبيعة البلاد الهندية المرهقة لجنده ، ولكن سعادات خان القائد المغولى ناه عن عزمه وأظهر له ضرورة دخول دلهى حفظا لمركز المسلمين هناك وسهل له الأمر وكانت المسئلة مغرية لأنه اذا نجح فيها يصبح

لا يعدله في الشرق ملك آخر من حيث فتوحاته وسعة ملكه فاندفع في طريقه نحو العاصمة واذا بالامبراطور يحضر راجيا منه عقد الصلح فأفهمه نادر شاه أنه لا يمانع في ذلك ولكن يجب اتمامه في مدينة دلهي ليتمكن جيشه من الاستراحة بعد العناء الذي قاساه فدخل الامبراطور المقهور ومعه الشاه المنصور الى المدينة . وكان الهدوء شاملا ، ولكن قامت اشاعة بأن نادر شاه قد مات ، وبعضهم يرويها بأن الموت كان عاديا والآخر يقول أن امرأة (دخلت عليه فطعنته فسقط قتيلا وقامت على أثر هذه الاشاعة الاضطرابات في المدينة ، وصار الهنود كلما وجدوا جنديا أو شرذمة صغيرة من الفرس فتكوا بها فأثار ذلك المسلك غضب نادر شاه فأمر جنده فورا باخضاع الحركة دون رحمة وكانت فرصة ثمينة يتمناها أغلب الجند فانبروا لتنفيذ هذه الأوامر وأمعنوا في السكان ذبحا ولم يكتفوا بمن كانوا في الشوارع بل صاروا يقتحمون الأماكن التجارية على أصحابها والبيوت على سكانها فيقتلونهم ويسلبون منهم كل ثمين وساءت الحال وانتشرت النار تلتهم البيوت وغيرها واشتد هول المصاب حتى أن بعض السكان كان يقذف بنفسه في النيران فرارا من الشقاء الذي وقع عليهم وذهبت المدينة فريسة للقتل والسلب والحرق فأعاد لها نادر بذلك عهد تيمور الذي كان مضى عليه ثلاثة قرون ونصف بل ربما كان ما عمله نادر أشد وقعا على هذه المدينة وقد ذهبت ثروتها وانكششت عظمها المادية حتى أن جيوش الانجليز لما احتلتها على أثر انقراض الحكم المغولي لم تثر من دلهي غير اسمها التاريخي ولم يخرج منها نادر شاه حتى أخذ كل مكنوز بها من ذهب وفضة وجواهر ومن بين أسلابه عرش الطاووس الذي تقدر قيمته بستة ملايين من الجنيهات وجوهرة كوهن نور التي تزين الآن تاج ملك انجلترا وبالاختصار فكل ثمين جمع من عهد تيمور الى غزوة نادر جمع كله في أمد قصير ونقله الى فارس . ولم يبرح المدينة قبل



المسجد الكبير بدلهى

أن تتم تصفيتهما من كل ثمين وزاد على ذلك أنه زوج ابنه بأميرة من سلالة شاه جهان ولم يعزل نادر الامبراطور محمد شاه عن عرشه بل أبقاه عليه تحت حمايته وبقي حاكما بالاسم على الولايات المجاورة لدلهى ويكاد من هذا التاريخ يعتبر المغول اسما على غير مسمى إذ صار كل جنوب الهند فى قبضة نظام الملك والمهاراتا ، وأما شمال الهند فقد كان عبارة عن ولايات وممالك يتبع أصحابها المغول اسما . والواقع أنهم صاروا الحكام الحقيقيين ، وبعد مضى ثلاثين عاما على هذا التاريخ أى دخول نادر الهند وكان فى سنة ١٧٣٩ أمراء المغول تحت ما يشبه الوصاية عند شركة الهند الشرقية التى حصلت على اعترافات رسمية بأحققتها فى ادارة عدة حكومات أهمها البنغال وبيهار وأوريسا وقد أتى وقت قصير بعد ذلك صار المغول فيه تحت وصاية رعاياه السابقين وهم طائفة المهاراتا وبعد انقضاء عشرين سنة على دخول نادر شاه الهند غزاها ثانية أحمد شاه ابدلى

الأفغانى . ولم تكن غزوة هذه المدة موجهة ضد المغول بل كانت ضد قاهريهم
أى الماهراتا ، وقد وقعت بينهما موقعة عنيفة فى سنة ١٧٦١

وكان يتوقف عليها كل مستقبل الهند وفيها تمزقت قوى الماهراتا ولو أنهم
لم ينكبوا بجيش عبدلى لاحتلوا عرش دلهي ، وقد سهلت هذه النتيجة للانجليز
دخول الهند . ولو أن الماهراتا لم تقهر لتغير التاريخ هذه البلاد بل وتأثر به تاريخ
العالم اذ لو لم تملك انجلترا هذه المستعمرة لما صارت فى مركزها الحالى بين الدول
ولكانت خلقت مدينة أسيوية على يد أمة الماهراتا

عهد الانحلال والفوضى

بعد عودة نادر شاه الى بلاده دبت الفوضى وانتشرت الحروب الداخليه فى
كل مكان ولم يكن الحكم للأصلح بل صار الحكم للأقوى ولما صار امبراطور
الهند ضعيفا أصبح يتقاسم تركته الأقوياء من أمراء المسلمين وغيرهم من الماهراتا ،
وان عدم جلوس امبراطور قوى بعد عالم جبر مهد السبيل الى الماهراتا أن تتقوى
شيئا فشيئا ، ولم يكن للحكام فى كل الهند تقريبا سلطة إلا بالاسم ،
فالامبراطورية لم يبق لها سلطان على الممالك والممالك كانت مقسمة الى ولايات
وفى كل ولاية حاكم يكاد يكون مستقلا عن ملكه وبذلك صارت الامبراطورية
ليست مجزأة الى عشرة أقسام أو مئة فقط بل لهذا الشكل صارت مجزأة الى ألف
جزء كل جزء منها يتولى أمره حاكم يحكم فيه لصالح نفسه وشبت عائلات فى
هذا العهد كبيرة وقوية مثل بشوا وهولسكار وجايسكواري وحيدر على والنظام
ولقد عاش محمد شاه تسع سنين بعد أن قهره نادر شاه . وتولى بعده امبراطوران
ضعيفان حكم أولهما ست سنوات وحكم ثانيهما خمسة سنوات وقد قتله نظام الملك
وحكم بعده شاه عالم الثانى وكانت مدة حكمه سبعة وأربعون سنة أى لغاية

سنة ١٨٠٦ وقد عاش الى أن رأى للانجليز السيادة على دلهى ولم يكن لهذا الامبراطور الأخير أى سلطة حقيقية على أى جزء من الامبراطورية التى تولى على عرشها ووقعت فى أوائل حكمه حرب الماهراتا التى قهروا فيها سنة ١٧٦١ كما ذكر من قبل وقد أثبتت الحروب التى دارت على مدى القرون المتعددة بين الهنود والشعوب التى جاءت من وراء الهملايا كالترك والأفغان والتتار والفرس أن الهنود أضعف فى الحروب من هذه الأجناس الشمالية ، التى كان جندهم أقوى أبدانا وأشجع جنانا ، والحرب التى دارت رحاها بين الماهراتا والعبدلى قضت على أحلام الماهراتيين الذين اتسعت مطامعهم حتى صاروا يتطلعون الى حكم الهند بأسرها ابتداء من رأس كومورين فى الجنوب الى حصن أركوت عند جبال هملايا وبعد ذلك لم يبق أمام الانجليز إلا فريق عاطل من أمراء المغول الذين أفسدتهم الرفاهية والانغماس فى الشهوات والذين ادبرت أيامهم واندثرت قوتهم ولولا هذا الظرف لما استطاع الانجليز بمثل القوة الضئيلة التى كانت تحت يدهم والتى كان أكثرها من عناصر هندية مأجورة أن يتغلبوا على الهند فيمتلكوها ولقد كان أكبر مساعد لهم على تحقيق هذا الحلم الاستعمارى استمرار الحروب الداخلية الكثيرة فى كل مكان . وهى التى جعلت الهنود يسفكون دم الهنود فزادتهم ضعفا اذ لم تكن سيوفهم مصلته على أعداء الهند الأجانب بل على أبناء الهند أنفسهم .

وقد سطا الانجليز على هذه البلاد الواسعة وصارت فى حوزتهم غنيمة باردة لم يدفعوا ثمنها بل دفعه أصحاب الهند أنفسهم بسبب انغماسهم فى الشهوات والخلافات الطائفية التى قضت على أخلاقهم فجعلتهم لا يصلحون لحكم ولا يحتفظون بملك ، وصاروا عبيدا لشهواتهم فاصبحوا فريسة لغيرهم .

مبدأ الاستعمار الأوروبي

كانت موجات غزو الهند تأتي تباعا من الشمال الغربى يقوم بها المسلمون مرة بعد أخرى ولكن الأوروبيين الذين غزوا الهند وأقاموا بها بعد المسلمين جاءوها من ناحية البحر وعلى الأخص من ناحية الجنوب وكان أول من أذاع شيئا عنها فى أوروبا وذكر الكثير عن حاصلاتها وخيراتها فاسكودى جاما البرتغالى الذى استصحب معه بعثة ووصل الى مدينة كاليكوت فى سنة ١٤٩٨ وأقام هناك ستة شهور وقابله بالعداوة العرب الذين كانوا يحتكرون تجارة البحار الهندية وقابل جاما الراجا الهندوسى الذى يحكم فى جايانا جار وقد أعطاه كتابا الى ملك البرتغال مضمونه كالآتى :

(أخى . . .

رأيت رجلا شريفا من أقاربك وسرتنى رؤياه كثيرا ، ويوجد فى بلادى كميات وافرة من القرفة والزنجبيل والفلفل والأحجار الثمينة وكل ما يلزم لنا مقابلها من بلدك هو الذهب والفضة والمرجان)

ولما عاد جاما الى بلاده قوبل باحتفال عظيم فانه اذا كانت اسبانيا كشفت الهند الغربية فقد اكتشف جاما للبرتغال الهند الشرقية وقد أثار هذا العمل العظيم حماس البرتغاليين لفكرة تملك مستعمرات جديدة فى الشرق وفتح أسواق تجارية ، يضاف الى ذلك ما كان لديهم من الرغبة الصحيحة فى التبشير بالدين المسيحى فأوفدوا مع جاما ثلاثة عشر مركبا واثنى عشر ألف جندى ، وكذلك أرسلوا مع قائد آخر ألف وخمسمئة جندى وطلب منهم أن يحاولوا الدخول فى الهند بالحسنى فاذا لم يستطيعوا فبالسيف ، ووصلت أخيرا هذه القوة الى كاليكوت

وأنشأت بها فابوريات ثم توسعت في خطتها وأنشأت مصانع أخرى في كوشين
رغما عما قوبلوا به من العداوة التي أبداهها لهم سكان هذه الجهات ، وقد حصل
ملك البرتغال على فرمان من البابا رسمه فيه سيدا لبحار العرب والعجم والهند
والحبشة ، وفي ثانی مرة عاد جاما الى الهند بعشرين سفينة وعقد محالفة مع
بعض الراجات الهندوس ضد صديقه الأول راجا فيجايا ناجار وفي سنة ١٥٠٩
وصل البوكرك البرتغالي وفرنسيسكو الميدا واحتلا ثغر جووا ، واتسعت أملاهما
بالهند . وفي خلال قرن واحد يبدأ من حوالى سنة ١٥٠٠ الى سنة ١٦٠٠ ميلادية
تقريبا تمتع البرتغال باحتكار التجارات الشرقية ولكن في أواسط هذه المدة
بدأت ولايات كثيرة تسقط في يد المسلمين ، وبدأت أيضا تجارة البرتغال في الهبوط
والمدة الأخيرة التي مضاهها البرتغال كان يتخللها نضال مستمر مع المسلمين ولهذا
السبب اشتد العداء بين المسيحية والاسلام ولم تطلق البرتغال الصغيرة رغم قوتها
أن تثبت في نضالها أمام مسلمى الهند خصوصا وقد ساعدتهم الهولنديون والانجليز
الذين بدأوا في الظهور وانهزمت البرتغال على يد هولندا في أواسط القرن السابع عشر
وشيد الهولنديون لأنفسهم مراكز تجارية في أرخبيل الهند الشرقية وصارت
لهم محطات في جزائر جاوه وسومطرا واشتدت سطوتهم هناك حتى خافها الانجليز
واكتفوا بالهند الأصلية خصوصا بعد موقعة أمبويينا سنة ١٦٢٣ وذلك مما ساعد
الانجليز فيما بعد في التغلب على الهند والاستئثار بها ، ودامت المواقع البحرية بينهم
وبين خصومهم الهولنديين لغاية سنة ١٦٨٩ ولم يستطع الانجليز التغلب عليهم الا
في سنة ١٧٥٨ بواسطة « كليف » ، كذلك تم تغلب الانجليز أيضا على البرتغال
قبل ذلك بمدة طويلة ، ورضخت الأخيرة لفتح موانئها بالشرق الى الانجليز وقد
كانوا يطمعون في الاستيلاء على بومباي ولكن لم يستطيعوا ذلك بالقوة الا أن
الظروف ساقطها اليهم حيث قدمت لهم كهر للأميرة براجنزا التي تزوجت شارل
الثاني ملك انجلترا

حركة قومية ضعيفة

حاول الهنود أن يثبتوا عرش المغول الذي كان يتداعى الى السقوط فقامت لهم حركة ضد الانجليز على يد أمير يرتبط تاريخه بأيام جبر اذ كان الأمير الحاكم على ولايات البنغال سنة ١٧٠٧ يسمى مرشد كولى خان وظل حاكما عليها بنجاح لمدة احدى وعشرين سنة ، وكان للانجليز والفرنسيين والهولنديين فلوريات على سواحل ولايته وابتدأ من هذا الحين يظهر شأن شركة الهند الانجليزية الشرقية وقد ذهب أعضاء هذه الشركة الى الهند تدفعهم رغبة الاتجار لا الاستعمار ولكن فشت ثروة الشركة ونمت مصالحها واتسعت سلطتها وكثر عدد عمالها فصارت صاحبة السلطان لما بها من الأموال والرجال وكان كثيرا ما يقع بينها وبين الهنود منازعات دعت الشركة فى آخر الأمر الى تنظيم هيئات عسكرية للمحافظة على مصالحها وأموالها ، فاستخدمت لهذا الغرض بضعة آلاف من الجنود الانجليزية والهنود المأجورة وكانت لها عدة محطات من أهمها مدراس وبمباى وكلكتوتا ، وفى سنة ١٧٥٦ صار حكم البنغال فى يد سراج الدولة وهو من نسل مرشد كولى خان المشار اليه سابقا ، وقد اختلف سراج مع الانجليز حينما علم أنهم ينشؤون حصونا واستحكامات حول مدينة كلكتوتا ، ولأنهم آووا لديهم خصما من خصومه ، فاعد سراج الدولة جيشا يبلغ خمسين ألفا وهاجم به حصون كلكتوتا الجديدة واقتحمها بعد دفاع لم يطل أمده وفر فريق من الحامية وأسروا من بقى من كلكتوتا من الانجليز وكان يبلغ عددهم ١٤٦ وأودعوا فى سجن كلكتوتا الأسود الى أن ينظر فى شأنهم وكان هذا السجن ضيقا تبغ مساحته ١٨ قدما × ١٦ قدما فحشروا به جميعا وعلى ضيق هذا المكان كان الوقت صيفا فاختنق كثير من الانجليز ولم ينج منهم فى ثانى يوم من سجنهم غير

ثلاثة وعشرين شخصا أطلق سراج الدولة سراحهم ويظهر أن ما وقع لهم من النكبة لم يكن عن رغبة منه بل ان فريقا من ضباطه كانوا يكرهون الانجليز فانتهزوا فرصة القبض عليهم وقسوا في معاملتهم حتى وقعت لهم هذه الكارثة التي ترتب عليها أن وضع الانجليز نظاما عسكريا وسياسيا استطاعوا به أن يحكموا الهند وقد اهتموا بتدريب عسكريهم وصاروا يتدخلون بين الحكام الهنود ويشيرون بينهم العداوة والبغضاء فاحتلوا بهذه الوسيلة ولايات الهند شيئا فشيئا خصوصا وقد خلا لهم الجو من منافسة الفرنسيين الذين كانوا يزاحمونهم في امتلاك هذه الامبراطورية الواسعة ولكن بمهارة اللورد كليف في الشؤون الحربية وبسبب دهاءه السياسي صارت الغلبة للانجليز ، وهو الذي انتصر على خصومه في سنة ١٧٥٧ في موقعة بلاسى وكان جيش سراج الدولة يبلغ ستين الف جندي بينما كان جيش كليف يتكون من الف جندي انجليزى وألفين من الجنود المأجوره ، الا أن انتصار الانجليز لم يتحقق الا بسبب خيانة أحد الأمراء وهو مير جعفر الذي انتقض على سراج الدولة في أثناء الموقعة ومما يدعو الى الدهشة أن لا تتجاوز خسائر اللورد كليف اثنين وعشرين قتيلا وخمسين جريحا

تمرد الهنود على الشركة (سنة ١٧٥٨)

وعلى أثر هذا الانتصار بدأت صولة الانجليز تدخل في دور شديد الخطر على استقلال الهند فان موقعة بلاسى أعقبتها عدة مواقع بين جيش الشركة والأمراء الهنود وعلى توالى السنين صارت الامارات تدخل تباعا مرغمة أو مخدوعة تحت سلطان الحكم الانجليزى ومن أجل هذا نشأت روح جديدة من الاستياء بسبب تسلط الانجليز على حرية الهنود خصوصا وأن الشركة في كثير من الأحوال كانت تقوم بعزل الأمراء من هندوس ومسلمين وتعين فريقا آخر

غيرهم من منافسيهم فتكونت حركة معارضة زكاهها الامراء والوزراء المفصولون عن العمل وكل من كان يلوذ بهم ويستفيد من نفوذهم ، يضاف الى هذا أيضا أن الكثير من موظفي شركة الهند الشرقية الانجليزية كانوا تحت سلطان المطامع الشخصية يجورون في معاملاتهم مع الهنود ويستغلونهم استغلالا مرهقا ، وقد نمت حركة الاستياء والانتقاض هذه وترعرت تحت رعاية بهادر شاه الثاني وهو والى الشرعى ووارث عرش المغول بدلهى والذى لم يكن له وقتئذ من السلطة إلا اسمها ومن القوة إلا شبحها ولم يكن ينتظر من بهادر أن يحرك ساكنا أو أن يفكر فى أن يسترد نفوذه المسلوب وساطته المغتصبة وقد اكتفى بمعاش كبير كان يتقاضاه من الشركة ورضى بالعيش فى هدوء ، واكتفى بالانقياس فى أنواع الترف والملاذ التى كانت أسبابها متوفرة لديه ، الا أنه فى أواخر أيامه تزوج بأميرة هندية فرزق منها بولد واتفق أن أكبر اخوته من أم أخرى كان ولى عهد لأبيه الا أنه مات فى حياة والده فانهزت الزوجة الجديدة هذه الفرصة وأرادت ان تعين ابنها ولياً للعهد فقبل والده ذلك الا أن الانجليز وقد أصبحت لهم الكلمة العليا فى الهند لم يوافقوا على تعيين ابن بهادر شاه ولياً للعهد فامتلات أمه غيظا من الانجليز وزجت بنفسها فى تيار المعارضة الذى خلقته ظروف حكم الشركة السيئ . وقد عملت الأميرة على بث روح الاستياء واشعال نار الثورة ضد الانجليز فصادفت كثيرا من النجاح خصوصا وأن جيش الشركة كان أغلبه من الجنود المأجورين السيئوى والذين تمردوا على الانجليز وبدأ تمردهم يأخذ شكلا خطرا فى الاسبوع الأول من شهر يونيو سنة ١٨٥٧ ، واندلعت نار الفتنة وتمرد الجيش فى عدة أماكن وانضمت اليه الجماهير وابتدأ أثر الاعتداء يقع على حياة الانجليز وأملاكهم فى أنحاء متعددة أهمها لكناو وفاروق آباد وأجرا ودلهى وكولونبور وهى التى رفع بها الأمير نانا صاحب الهندوسى علم الثورة ، وقتل

كثيرا من الانجليز الذين وقعوا في قبضة يده ، وظل نطاق الثورة يتسع حتى نودى بهادر شاه ملكا على الهند بواسطة (الباراتوبى) (أى مجلس الاثنا عشر رأس) وهو الذى كان يدير حركة الثورة ولكن ثبات الانجليز وتفرق كلمة الهنود وتناقض مصالح رؤسائهم وطوائفهم الدينية كانت السبب الأكبر فى اخفاق هذه الثورة التى انتهت بالفشل وانهزام بهادر شاه الذى قبض عليه حيث وجد مختفيا فى مدفن هايون شاه وحاكمه الانجليز واتهموه بالثورة وقتل الأوروبيين وظلت محاكمته شهران وحكموا بادانته الا أنهم خففوا الحكم عنه حيث اتضح لهم أنه كان تحت ضغط الباراتوبى واستبدلوا اعدامه بالسجن طول حياته ونفى فى مدينة رانجون حيث مات هناك سنة ١٨٦٢ ، وكان من أشد ما يثير الألم والحزن أن هذا الأمير حينما أسر جاء الضابط الانجليزى هدمسون بأبنائه الثلاثة وأعدمهم أمام والدهم وبذلك انقرض أيضا حكم المغول وأصبح الانجليز يتحكمون فى أشخاص الهنود وأوطانهم ويتصرفون فيهم تصرف السيد فى العبيد قبل إلغاء نظام الرق وقد انتقلت سلطة الحكم من يد الشركة الى التاج البريطانى حيث أعلن ذلك رسمياً فى سنة ١٨٥٧ ، ولا زالت الهند ترزح تحت سلطان الانجليز وتقاسى الأهوال والعذاب ، وقد توطد الحكم للانجليز ودانت البلاد لهم وخضعت الجماهير تحت ظلمهم المنظم واستعبادهم الجسيم ولكن بوادر الخطر على نفوذهم ابتدأت تتجمع ويبدو منها أن حكم الانجليز أصبح مهدداً ويأتى هذا الخطر من ناحية اليابان فهذه الدولة الفتية نفضت عنها الجود الذى استخور على الأمم الشرقية واقتبست من النظم الأجنبية ما يلائم نهضتها وقطعت شوطا عظيما فى سبيل التقدم سبقت به من معها وفازت على من سبقها وصارت فى مقدمة الدول القوية الممتازة وظهرت عظمتها فى الحرب الروسية اليابانية سنة ١٩٠٤ حيث قهرت حكومة القيصر واحتلت مملكة كوريا ولم يمض زمن طويل على ذلك

حتى وقعت الحرب الأوروبية العامة التي أنهكت أوروبا وشتت كلمتها وحولتها مؤقتاً عن الاهتمام بالشرق فوجدت اليابان الفرصة سانحة في أن تقوم بمجهود أكبر واحتلت منشوريا وأعلنت الحرب أخيراً على الصين ويدل سير الأمور هناك على أن النصر صار محققاً لليابان وهي التي أصبحت شعارها الآن (آسيا للأسيويين) ، والذي يدرك المجهود الذي بذلته أمة الميكادوا والانتصارات التي حازتها في وقتنا هذا يحكم أن شعارهم سيتحقق عملياً خصوصاً وأن الانجليز بما طبعوا عليه من شدة الطمع يضعون العراقيين في وجه اليابان فيما يتعلق بتجارتهما في البلاد الراضخة للنفوذ البريطاني ، واليابان وهي بلاد كثيرة السكان ضيقة المساحة ستدفعها الحاجة حتماً إلى توجيه ضربة قاضية إلى النفوذ البريطاني في الشرق ، ومن الآن لا يمكن أن تعيش اليابان راضخة إلى التحكم البريطاني وستجد نفسها مضطرة إلى مناوأة الهند .

وأما الخطر الثاني الذي يستهدف له الحكم البريطاني في الهند فهو من ناحية البلاشفة فالثورة البلشفية ليست ثورة قومية يراد بها تحرير الأمة الروسية بل هي ثورة عالمية يراد بها تحرير العمال من الحكم الرأسمالي وهم يوقنون أن الرأسمالية والبلشفية نظامان متنافران لا يمكن أن يعيشا بجانب بعضهما طويلاً ، لذلك سعت روسيا أولاً في بث دعايتها بأوروبا فوجدت في الوقت الحاضر ألمانيا وإيطاليا حائلاً قوياً دون تحقيق غرضها لذلك لجأت إلى جهة أخرى وهي آسيا وصارت تبث فيها دعايتها وبنوع أخص في بلاد الهند والصين ، وهذه مسألة أثبتتها وقائع رسمية إذ أن البوليس الانجليزي حاصر « أركوس هاوس » حيث يوجد مقر الوكالة البلشفية في لندرة فوجد به وثائق تثبت صراحة عظم المجهود الذي يبذله البلاشفة في إيجاد ثورات شيوعية وتشكيلات بلشفية في كل من الهند والصين إلا أن الدعاية الخطرة التي تقوم بها روسيا الآن ابتعدت مؤقتاً لأن

التعاليم الشيوعية التي كانت تغلغت في الصين لم تمهلها اليابان بل ضربتها ضربة تكاد تكون قاضية فأجلت الخطر على النفوذ البريطاني مؤقتاً من ناحية البلشفية في الهند .

أما الخطر الثالث فيأتي من شمال الهند وقد يظن البعض أن هذا الخطر يعد من الأوهام لأن الأمم المجاورة للهند من الناحية الشمالية ليست بذات قوة تسمح لها أن تغتصب الهند من يد انجلترا إلا أن من يدرس المسألة الهندية بتوسع يتضح له أن الخطر من هذه الناحية على النفوذ البريطاني أكثر احتمالاً ، بل يعتبر حقيقة لا وهماً إذ أن سكان الهند يبلغ عددهم كما جاء بدائرة المعارف البريطاني طبقاً لتعداد سنة ١٩٠١ يبلغ نحو (٢٩٤٣٦١٠٥٦) نسمة ويبلغ عدد المسلمين منهم (٦٢٤٥٨٠٧٧) وقد جاء في نفس دائرة المعارف البريطانية أن الدين الاسلامي يزداد انتشاراً بنسبة أكبر من غيره من الأديان ، وإذا لاحظنا أن هذه الملايين من المسلمين يكاد يكون أغلبهم أي أربعة أخماسهم على الأقل ينحصر في الولايات المتاخمة للممالك الاسلامية المستقلة وهي الأفغان وإيران ثم إن جانباً كبيراً من هؤلاء المسلمين المقيمين بالهند هم أنفسهم من أصل أفغاني وإيراني وبناء على ذلك فإذا جاءت غزوة من الشمال فستجد لها دعاة مخلصين بل أعوانا من الهنود أنفسهم يقاتلون في صفوفهم إذ لا يخفى أن ولاية الهند الشمالية الغربية تبلغ نسبة المسلمين بها ٩٢ ٪ من سكانها بينما في كشمير وبلاد السند تبلغ نسبة المسلمين ٧٥ ٪ من السكان وفي البنغال الشرقية وولايات أسام تبلغ نسبتهم ٥٨ ٪ وفي البنجاب تبلغ النسبة ٤٩ ٪ وهذه الولايات متلاصقة بل تعد بلاداً واحدة قسمتها فقط الخرائط الجغرافية ومن يدرك عظم النهضة القومية الحديثة في الأفغان وإيران يستخلص منها أنها لازالت تنمو الى الهند . ومما يدل على مقدار تعلق المسلمين خارج الهند باخوانهم فيها زيارة حبيب الله خان ملك الأفغان سابقاً

ووالد أمان الله خان (الذى زار مصر من مدة قريبة) والذى كان حين زيارته
يبت روح الوفاق والمحبة بين الهنود والمسلمين ومواطنيهم الهندوس وبين المسلمين
السنين وبين الشيعيين ، فان هذا الملك قبل أن يصل الى مدينة دلهى علم أن
المسلمين هناك سيحتفلون بمقدمه واطهارا لفرحهم سيدبحون مئة من الأبقار
لتوزيعها على الفقراء فلما عرف أن هذا العمل سيؤدى حتما الى وقوع النفور بين
المسلمين والهندوس الذين يعتبرون الأبقار من الحيوانات المقدسة التى لا يجوز
ذبحها فى الحال أرسل لهم على عدم موافقته لهذا التصرف الذى ينشأ منه اساءة
لاحساس مواطنيهم الهندوس وأفهمهم أنه جاء لزيارة كل سكان الهند لا المسلمين
خاصة وهو لا يميز بين دين وآخر أو جيش وجيش ، لذلك فهو لا يوافق على أى
عمل يثير بين طوائف الهنود النفور والشقاق ، وطلب منهم استبدال الأبقار بالماعز
فكان هذا العمل موضع استحسان الجميع ، ولما توجه حبيب الله خان الى كلية
عليكرة الاسلامية لزيارتها أخذه موظفوها الى « كتيختاتها » ليراها وأطلعوه
على نسخ من القرآن وبعض كتب الشريعة الاسلامية فقال لهم فى رفق « إني
ما حضرت لأرى الكتب بل حضرت لأرى الطلبة الذين وجدت الكتب من
أجلهم » وأبدى لهم للملاحظة الآتية قائلا « هل اذا وجدت فى دولاب أحد من
الناس نسخة من رباعيات عمر الخيام فهل تحكم لمقتنيها بأنه من شعراء الفرس ؟
وأنتى أعرف جيدا ما تحتوى عليه صحائف هذه الكتب التى أطلعتمونى عليها
والآن أريد أن أعرف ما فى رؤوس من يقرأ هذه الكتب . » ولما فهمت
حاشية المدرسة أنه يريد الاتصال بالطلبة لم يجدوا مفرأ من ذلك فأخذوه الى
بعض الفصول وبعد استئذانه من رئيس المدرسة فى أن يوجه بنفسه بعض
الأسئلة للطلاب وبطبيعة الحال وافق المدير على ارادة الملك الذى سأل أحد
الطلبة ما هى قواعد الاسلام الخمس ثم انتقل بعد ذلك الى عدة أسئلة

ثم طلب من أحد الطلبة أن يتلو شيئا من القرآن قائلا له أتلى أى شيء تعرفه ،
فتلا سورة بصوت جميل فسالت الدموع من عيني حبيب الله خان وجرت على
خده فابتعد قليلا الى أن حبس دموعه ، ولما أدرك أن الطلبة فيهم شيعة خاطبهم
قائلا « أنا شخصا رجل سنى وأريدكم أن تصغوا إلى وأن لا تنسوا ما أقوله
لكم اذا تقدم بكم السن ووصلتم الى الشيخوخة — انى سمعت أن البعض يقول
عنى ان أمير أفغانستان من السنين المتعصبين فهل تظنون أننى من أجل مذهبي
حتمأ أكون متعصبا ضد الشيعة فقالوا « لا » ، فقال لهم دعونى أسألكم هل
أنتم أيها الشيعيون تفضلون الهندوس على السنين فقالوا لا ، فقال لهم هذا حسن
ولعلكم قرأتم فى الصحف أننى منعت المسلمين من ذبح الأبقار استبقاء لمودة
الهندوس ومحافضة على احساسهم فهل من يكون شعوره نحو الهندوس مثل
شعورى يكون شعوره نحوكم أقل مودة من شعوره نحو الهندوس لهذا أطلبكم
أن لا تظنوا بى الظنون فلا تعتبرونى من السنين المتعصبين وأنا فى أفغانستان
يوجد بين رعاياى من هو سنى ومن هو شيعى ومن هو هندوسى وهم يتمتعون
جميعا بتمام حريتهم الدينية فهل تعدون ذلك تعصبا ؟ واذا كان هذا شأنى فأنى
من أجل ميلى الى الحرية لا أصرح للشيعة بسب الخلفاء الثلاث فاذا قدر
واعتبرتكم هذا تعصبا فلا أكن متعصبا اذن وانتقل الملك من كلامه عن الدين
والتعصب الدينى الى شئون الكلية الأخرى فقال انى سمعت كثيرا من المدح
والذم عن هذه الكلية ولكن ما سمعته عن ذمها كان أكثر لذلك جئت
بنفسى لأقف على حقيقة الأمر فأنى قليل الثقة فى التقارير التى ترفع الى وقد
بحثت اليوم مسألة هذه الكلية وقد ثبت لى بعد بحث دقيق أن ما سمعته من
الذم فى كليتيكم كان كذبا وانى أحمد الله كثيرا اذ أن معلوماتكم الدينية صحيحة
وصفاتكم كاملة ومن الآن فصاعد سأسكت كل لسان يتكلم بسوء عن كليتيكم

وقد لاحظت أن كثيرا من مسلمي الهند يسيئون الظن بالتعليم الحديث أو ما يسمونه الأوروبي فما أشد غفلتهم وأرجوكم أن تصغوا الى وقال « انى أقف موقفى هذا لأروح للتعليم الأوروبي وعلاوة على أنى لا أجد فيه أى ضرر فقد أنشأت فى نفس بلادى كلية على النمط الأوروبي غير أنى لم أهمل مع ذلك التعليم الدينى بل جعلت اهتمامى به عظيما وأنا ممن لا ينكر أن التعليم الشرقى له قيمته بل أعترف به غير أنى فى الوقت نفسه لا أهمل التعليم الأوروبى تمشيا من روح العصر

وبمناسبة هذه الزيارة اكتب حبيب الله لاكمية بما قيمته ١٣٣٣ جنيتها وأوقف عليها أملا كما ارادها السعوى أربعمئة جنيتها ومثل هذه الزيارة وما بدا فيها من الشعور الفياض بالعطف والاخاء لدليل قاطع على ما فى قلوب المسلمين خارج الهند من تمسك بالهند وبمسلميه وحنان الى تاريخهم المجيد بها وأنه اذا قدر وسارت نهضة الشعوب الاسلامية فى شمال الهند فى سيرها الحالى نحو التقدم والرقى فسيكون لهم شأن مع الانجليز وليس يبعد أن يعيد أفغانى مجد الغزنوى أو نادر شاه خصوصا وأن العقيدة الاسلامية والاخاء الاسلامى هما من أنجع الوسائل التى تربط الامم ببعضها فتجعلها أمة واحدة فيوما من أيام الغزنوى أو بابر ياشعب فارس وياشعب الأفغان .

ويا ليت المسلمين يأخذون درسا نافعا مما حل بهم بسبب تفرق كلمتهم وتوزع قوتهم حتى استعبدتهم الأمم الأوروبية فى مشارق الأرض ومغاربها ، وهل هناك مثل يضرب على تفرق كلمتهم أوضح مما هو حاصل بجزيرة العرب التى لا يتجاوز سكانها اثنا عشر مليوناً من الأنفس ، وبالرغم عن هذا فقد انقسمت وتفرقت شيعا وقبائل وصارت ممالك وامارات وهى فى عدد أهلها لا تعد شيئا اذا قيست باحدى الأمم الأوروبية كالمانيا أو ايطاليا أو فرنسا :

فنسمع عن أمارة في شرق الأردن ومملكة العراق والحجاز ونجد والين وسلطنة
مسقط وامارة الكويت ثم نعود فنسمع عن السنيين والشيعة والوهابيين
والزيديين . فهاهم انقسموا وماهم اختلفوا فرفقا ملوك العرب وأمراءهم بأمة كان
لها تاريخ بلغ مجده عنان السماء ثم أصبحت فريسة لأحق طوائف الأرض —
ألم تر فلسطين وما حل بها وهل يموت أبناؤها وأتم أحياء وهل يحصل كل هذا
من أجل تفرق كلمة الملوك والأمراء . وليت السماء انطبقت على الأرض ولم نسمع
أن الصهيونية بنت عشها بفلسطين وباضت فيه وأفرخت ، ونشأت فيها دولة
للمرايين الذين أصبحوا يستعبدون أبناء الصحراء وهي منبع الرجولة بل الوطن
الذي أخرج أكبر غزاة العالم وعظماهم وهل يصبح أبناء الغزاة الذين دانت
لكلمتهم الأمم ورفعت راياتهم في ربوع الهند وأفريقيا — هل يصبحون
مكتوفى الأيدي أذلاء ؟ والله لئن اجتمعت كلمتكم وتوحدت مجهوداتكم لتقذفن
الصهيونية ومؤيديها في اليم . وما للمسلمين وهم اخوان في الدين وشركاء في الحق
لا يعملون على ايجاد خلافة محمدية أو تكوين عصبة أمم اسلامية يسود بين
أصحابها السلام والاخاء والتضامن والولاء — والفرصة سانحة ويالها من فرصة
عظيمة اذا اغتنمتموها — وهذه انجلترا التي استخدمت مئات الألوف من
المسلمين الهنود وغيرهم نسيت دماءهم البريئة التي أريقَت في الحرب الأوروبية
الأخيرة ، والآن تطارد طائفة صغيرة من المسلمين من أجل أمة المرايين الذين
أنذرهم الله بالحق اذ قال في كتابه العزيز « يحق الله الربا »

إن سماء انجلترا السياسي فيه سحب متقطعة ونذر متجمعة فالخطر محقق
بها واليابان واقفة لها والروسيا تبث دعايتها وقد نفذت كلمة ألمانيا وإيطاليا عليها
بعد ما كانت تخضع لها وقد أصبحت هذه الامبراطورية المستعمرة لحس العالم
تتخبط في سياستها وهي التي غررت بالشعوب الضعيفة وطنطنت بديمقراطيتها

وأصبح حاضرها شراً من ماضيها ، ولقد كان في ماضيها بعض الحسنات فهي التي ساعدت على الغاء الرق وحررت منه السود في أفريقيا وأمريكا فمالها الآن تريد أن تستعبد العرب وهم من أعرق الشعوب حرية ومالها تخرج شعباً من وطنه وتهدم منازل السكان فتتخدم بذلك مآرب الصهيونيين وهم الذين نشروا الشر في الدنيا فأصبحت الأمم تطردهم والحكومات تلفظهم ، وهلا وسع اليهود جزء من أملاك الانجليز وهم أصحاب كندا وأستراليا الخالية من السكان ولعل اليهود يدركون في آخر لحظة ما زجهم فيه الانجليز من ورطة ، ولعلهم يرجعون عن غيهم وانى لأحذرهم بأن آية المرابين سيتم تفسيرها في تل أبيب .

أيها التل الأخضر ستصير أسود قائما .

قد يدهش القراء اذ يرون في بعض صحائف هذا الكتاب شرودا لا يتعلق بالهند بل بالعرب والدعوة الى ائتلافهم وتجمع كلمتهم ، ولكن المسلم أخو المسلم يشعر بشعوره فما يؤلم الهند يؤثر في مصر وفي صنعاء وبغداد ونجد فكما ذكرت فلسطين غلبت على نزعة الغضب فلم أستطع مقاومته بل كتبت ما كتبت رغما عني وضد واجبي كمصري ، ومصر حليفة لانجلترا ، من أجل هذا اعتقدت أن في مقدمة الأخطار التي تهدد مركز انجلترا في الهند معاملتها السيئة للعرب في فلسطين وفي جهات عدن ، وانى أؤكد لخضرات القراء أن من الواجبات المقدسة علينا كأمة أن نحفظ عهد الانجليز كخلفاء فنحارب جربهم ونسلم سلمهم ولكن لا زال في الشرق للنزعة الدينية سلطان قوى ، يسيطر على مشاعرنا جميعا والمسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه والمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا ، من أجل هذا صار منبع الخطر الذي يأتي من ناحية المسلمين ليس بعيد الوقوع بل كثير الاحتمال ، وأن شرر فلسطين ربما أشعل الشرق الأدنى

والأوسط وياليت انجلترا أحبت السلام وياليتها راعته في فلسطين كما « احترمتها في برلين في مسألة تشيكوسلوفا كيا »

بقيت مسألة أخرى خاصة بمسلمي الهند فهذا الفريق من المسلمين كان في الماضي يلزم سياسة العزلة عن باقي اخوانه المسلمين في الممالك الأخرى فلا يتصل بهم ولا يتصلون به حتى انتهت الحرب الأوروبية فتغيرت أطوار مسلمي الهند وتآلفت بينهم جمعية الخلافة الاسلامية التي قام بها الأخوان محمد علي وشوكت علي بالهند وهي من العلامات التي تدل دلالة قاطعة على تيقظ الشعور الاسلامي في الهند . ومما يجعل مركز الانجليز بالهند مزعزعا ما يسلكه بعض الموظفين البريطانيين مع السكان ويرتكبونه من قسوة وظلم ولا يغيب عن البال حوادث الجنرال داير في مدينة أمرتسار بالبنجاب إذ بلغت اجتماعاً كانت تلقى به خطب سياسية فبدلاً من أن يأمرهم أو ينذرهم أولاً بالتفرق أمر بتسليط المدافع الرشاشة عليهم واستشهد في هذه الحادثة ثلثمائة وستين من الهنود وبلغ عدد الجرحى منهم ألفاً ومئتين ، ولم يكن بينهم من يحمل سلاحاً فلم تكن حادثة دنشواي التي ولدت في قلوب المصريين كرها ومقناً للانجليز الا امراً بسيطاً بالنسبة لحوادث الهند ومع ما كانت عليه حادثة الجنرال دير من الفظاعة والقسوة فقد قال عنه القاضي الانجليزي « ما كاردي » « أنه لا غبار عليه » وأمة تستخف بالأرواح وتهرق الدماء وتكثر من الشهداء بين الشعوب التي تحكمها فبشرها بأن دماء هؤلاء الشهداء والأبرياء لن تضيع أبداً . وأذكر عبارة تاريخية لا بأس من سردها :

لما نكب هارون الرشيد وزراء البرامكة ذهب أحد أعوانهم وأخير يحيى بن خالد البرمكي وهو يقاسى أهوال السجن في أواخر أيام حياته وقال له : « لقد قتل الرشيد ابنك » فقال له : « كذلك يقتل ابنه » وعاد الرجل وقال له :

« لقد هدم هارون منازلك » فقال : « كذلك تهدم منازلهم » وهاهم الانجليز يرتكبون الجرمين وسيجزون بمثل ما يعملون .

بفي الخطر الرابع وهو داخلي يتعلق بنفس الهنود والذي له إمام بشؤون الهند يستنتج من حالتها أنها لا يمكن أن تكون أمة واحدة وحكومة واحدة فالأديان فيها متعددة إذ فيها الهندوس والمسلمون والسيك والباراسي والمسيحيون وغيرهم ، علاوة على ذلك ففيها تعدد اللغات ، ففيها الهندستاني والراجبوتاني والأوردو والتاميل والبنغالي والجواجيراتي وكل هذه تقف كعوائق تحول بين تكوين أمة هندية مؤتلفة لذلك كانت الأخطار الداخلية ليست ذات شأن عظيم فهي لا تهدد انجلترا اللهم إلا اذا استطاع زعماء الأديان أن يأتلفوا فيما بينهم وأن يحترم كل فريق منهم الاستقلال الداخلي للفريق الآخر فاذا أمكن التغلب على الخلافات الطائفية والدينية واللغوية فلن يصبح الخطر الداخلي من الأمور التي يستهان بها .

كلمة المؤلف

كنت أسمع أن في الهند شعوبا إسلامية يزيد عددها عن مجموع سكان تركيا والعرب وفارس والأفغان فتصفحنت كتب الكامل لابن الأثير وتاريخ الطبري وابن خلدون وابن إياس ومروج الذهب للمسعودي وغيرها من كتب التاريخ المكتوبة بلغتنا العربية فلم أجدها ما أستطيع أن أستفيد منه شيئا تاريخيا عن الهنود المسلمين ؛ لذلك لجأت إلى كثير من المؤلفات باللغة الانجليزية منها :

الهند في القرون الوسطى (للمؤلف لنبول)

تاريخ المغول العظام (« كندى)

دائرة المعارف البريطانية

الهند (« السير فالنتين تشيرول)

وكتاب آخر عن الهند الحديثه (للأستاذ وليم مدرس التاريخ

سابقا بجامعة الله أباد)

وغيره من المراجع

وكتبت هذا التاريخ راجيا أن أسد به نقصا في كتبنا التاريخية إذ يجب

على من يريد الالمام بتاريخ المسلمين وثقافتهم أن يلم بهذا القسم الغير عربى

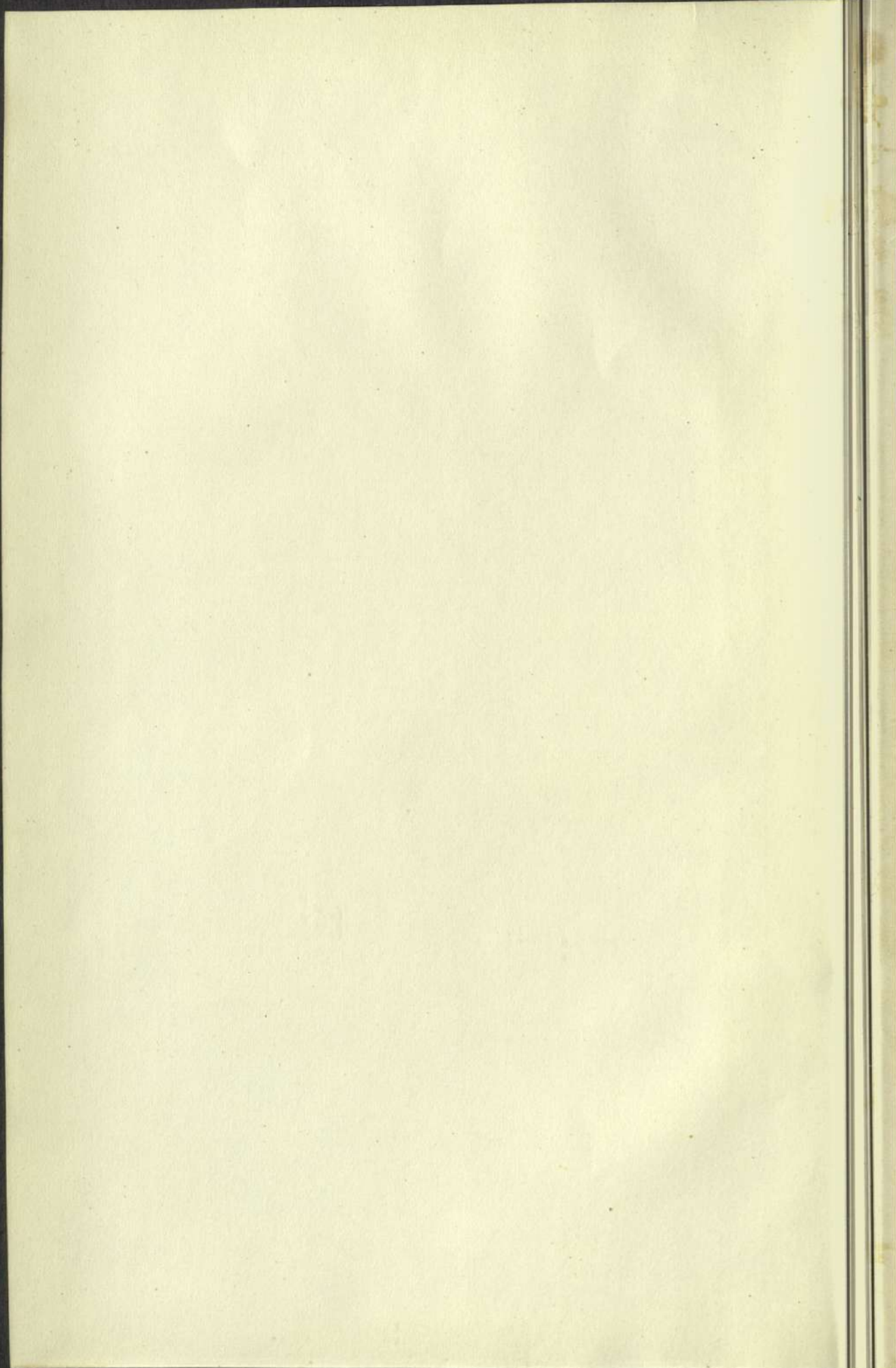
والذى بدونه لا تكون معلومات المؤرخ الاسلامى كاملة ، ولقد شجعنى ودفعنى

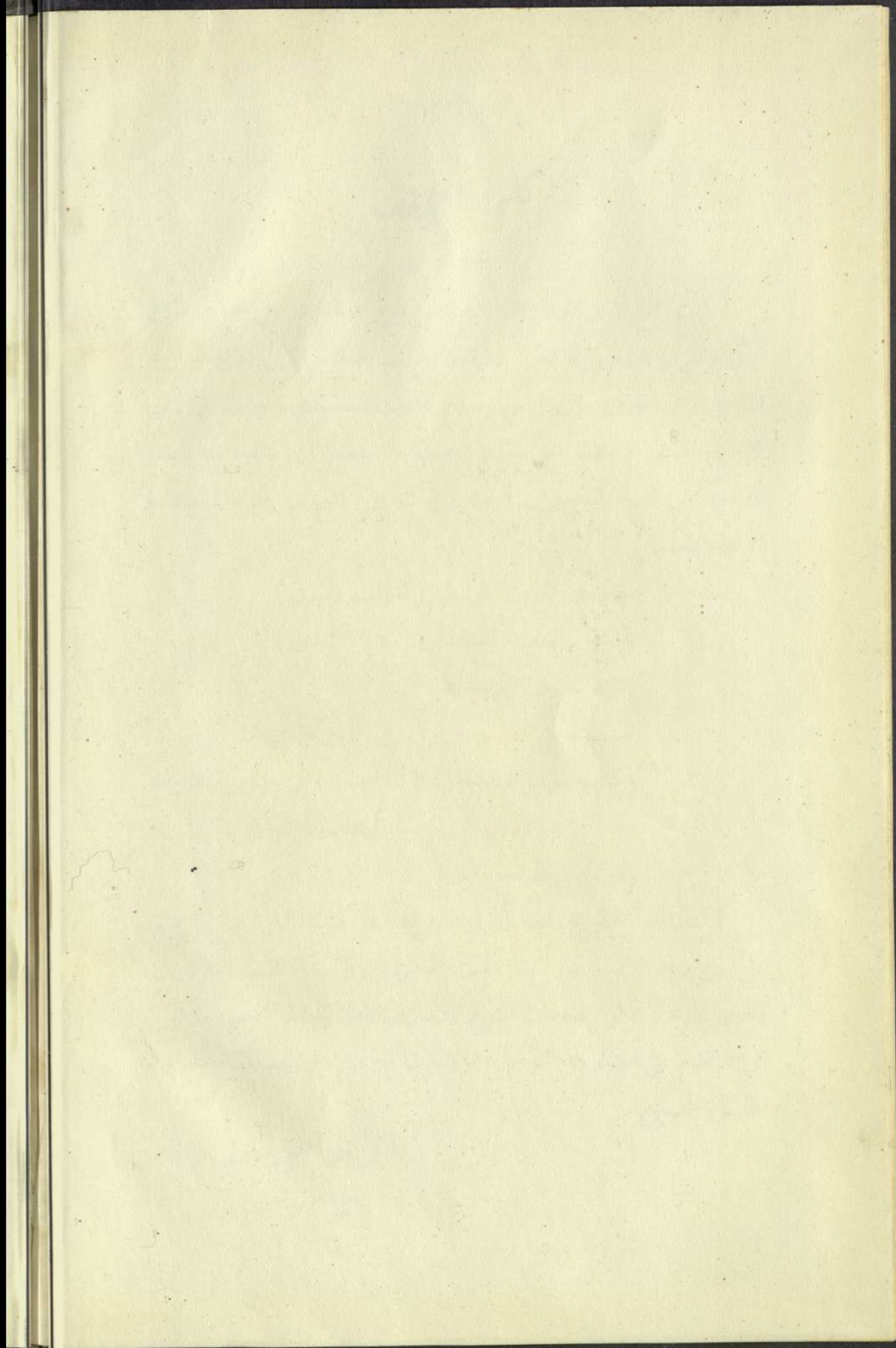
الى الاقدام على اختيار هذا الموضوع ما وجدت فيه من عبر ومواعظ ينتفع بها

الحاكم والمحكوم .

محمد عبد المجيد العبد

عضو مجلس الشيوخ





297.09:

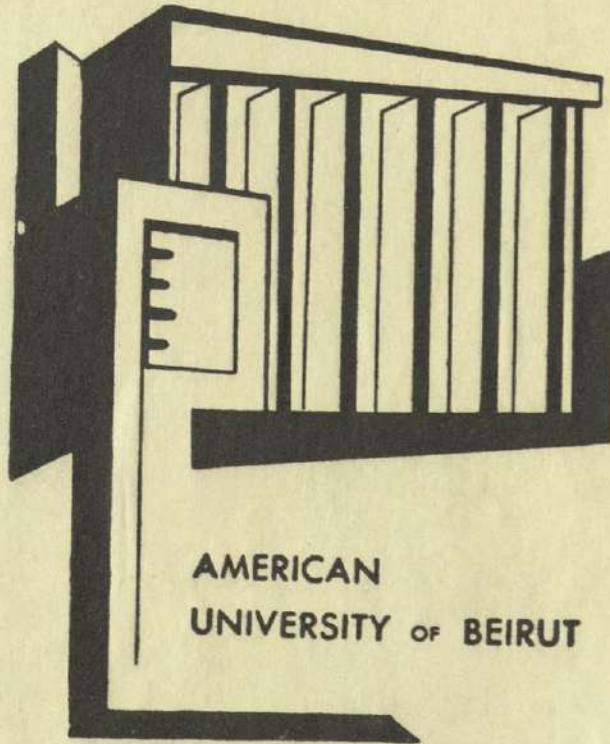
العبد، محمد عبد المجيد

... الاسلام والدول الاسلامية في الهند

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01003559



AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

